موسوعة
تاريخ مصر
N
نوبليس

موسوعة

التاريخ المصري

(١٥)

ميخائيل شاروبيم بك

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد الخامس عشر

الكافـــــي

في تاريخ مصر القديم والحديث

الجزء الرابع ـ ١ ـ

عن فترة من ١٨٠٠ م إلى سنة ١٨٩٠ م

١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩ هـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة التاريخ المصري
اسم الكتـــــاب:	الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث الجزء الرابع ـ ١ ـ
اسم المؤلــف:	ميخائيل شاروبيم بك
قيـاس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	٢٠٨
عدد صفحات الموسوعة:	٨٨٤٠
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	٩٦١ (١) ٥٨ ٣٤ ٧٥
هاتــف:	٩٦١ (١) ٥٨ ١١ ٢١ ـ ٩٦١ (٣) ٥٨ ١١ ٢١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

وصــــــــــل

(فى ترجمة محمد على باشا)

هو محـمد على بن إبراهيم ولد فى بلدة قـاوله التابعة للروم إيلـى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وكان أبوه من صغـار مقدمى العـسكر وقيل إنه كان شـيخ خفراء البلد وهو الصـحيح ولما بلغ محمـد على الرابـعة من عمره مات أبوه فتـولى حضانـته عمه طـوسون فأقـام عنده ما شاء الله ثم جاء مرسوم السلطان إلى والى قاوله بقتل طوسون المذكور فقتل وكان محمـد على إلى هذا الحين لم يبلغ أشده فـأخذه أحد أعيان البلد واسـمه براواسطه فأقام عنده حقيراً مهانا وكان كلما شب شبت معه الأحزان وظل على هذا الحال حينا حتى ضاقت نفـسه وتاقت إلى الأسفار فى طلب الرزق فسـار فى أرض الله الواسعة الفضاء وأجهد النفس فى تحمل الجوع والعناء فقاسى من الشدائد ما لا يحتمل، ومما حكاه عن نفسه أنـه قال: كنت أتمنى أن الله سبحانه وتعـالى يدفع عنى هذه الشدائد ويرحمنى مما ألاقيه من الضنك والذل فكنت أجهد النفس فى طلب العيش على قدر الحاجة وكان يمر بى اليوم واليـومان أطوى الأرض سائرًا على أقدامى لا أذوق مناما ولا أسيغ طعاما وكانت الأرض وطائى والسماء غطائى وأتفق أنى سافرت على ظهر مركـب أريد أرض الله الواسعـة فى طلب العيش فـخرجت ريح شـديدة فأرتفـعت الأمواج وعلت وأزبد البحر وهاج وألقى مركبنـا على الصخور فتحطمت وغرق كل من فيها فـتركنى رفاقى وطلعوا إلى بعض الجزائر القريبة وبقـيت أنا عرضة للأمواج تعلو بى تارة وتهبط بى أخرى وتستقبلنى الصخور فتدق عظمى وتدمى جسدى حتى

يسر الله لـى الوصول إلى تلك الجـزيرة سالماً وقد صـارت اليوم من بعـض أملاكى فسبحان المعطى بغير حساب. اهـ قوله.

وما زال على هذا الحال من قلة ذات اليد وضيق العـيش حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر فـدخل فى خدمة العسكرية وظهرت عليـه علامات الشهامـة وشدة البأس فقيده الوالى بجـباية الأموال وجمع الخراج ومال إليه وأحبه وولاه رتبـة البلكباشية. قال بعض الكتاب: وقد زوّجه إحدى قريباتـه. وقيل غير ذلك فولدت له خمسا من بنين وبنات وهم إبراهيم وطوسون وإسماعيل وزهرة وزينب، فلما كبرت عائلته وقل ماله ترك خدمة العسكرية واتخذ له حانوتاً يبيع فيه التبغ (الدخان) فيسر الله له الحال وبسط له فى الرزق وكانت قد بلغت منه الشجاعـة مبلغاً عظيماً فكان إذا تعذر على الوالى القبض على جـان سير إليـه محمـد على فيأتى به صـاغرا فهـابه الناس جدا وأجله رفاقه وشـهدوا له بالبسالة وعلو الهـمة ولبث على هذا الحال حينـا فلما أغار بونابارته بجيـوش الفرنسيس على ديار مـصر وكبر ذلك علـى السلطان سليم جيش لقتاله الجيوش وأعد المعدات وأرسل إلى والى مـقدونية فى طلب النجدة فبعث والى مقدونيـة إلى براواسطه وكان قد تولى على ولاية قـاوله بأن يجهز لقتال الـفرنسيس مائة مقاتل فجهزهم وجعل مقدمهم ولده عليا ورسم لمحمد علىّ بأن يكون فى ركابه وجاءهم حـسن باشا أميـر سفن الدولة بسفـينة فركبـوها فسارت بهم إلى أبى قـير وأنزلتهم هناك فقاتلهم الفرنسيس قتـالاً عنيفاً وظفروا بهم فخاف علىّ المذكور ورجع بالذى بقى معه من عسكـره وأقام محمد على فى نفر قليل ممن مال إلى البـقاء معه فأعجب حسن باشـا فعله وقلده رتبة البكباشية على من كان معـه من العساكر وضم إليه طائفة أخرى فسار بهم مع العمارة الإنجليـزية والجيوش العثمانية التى جاءت مع يوسف باشا الصدر الأعظم لقتال الفرنسيس فأبلى محمد على فى قتالهم بلاء حسنا ولما استقر بهم المقام بالقاهرة بعد جلاء الفرنسيس عنها قاتل الأمراء المصريين وكانت له معهم وقائع مذكورة.

واتفق أن حضر بعيـد ذلك خسرو باشا أحد كبار عـسكر السلطان لقتال الأمراء المصريين والمماليك وقـطع شأفة من بقى منهم وإنقاذ البلاد من أيديـهم فوقعت بينه وبين محمد على مناظرات كثـيرة واشتدت الوحشة بينهما وكبـرت حتى كاد خسرو باشا ينفشل ويسقط فى يده ثم عاد فتمكن من نكاية مـحمد على وسد عليه مسالك التقدم وقـفل دونه أبواب الفلاح وجعل يراقب أموره ويرصد أعـماله فخافه مـحمد على وخشى العـاقبة وجعـل يستميل إليـه طوائف الأرنؤط ويتزلف حتى مـالوا إليه

وأحبوه فاستوثق لنفسه فولوه وظيفة (فابى بولك باشى) وهى فى عرفهم رتبة حرس السراى فهابه خسرو باشا وعاد إلى مسايرته وأدناه منه وقرّبه من مجلسه وبقيا على ذلك حينا ثم ولاه منصب سرجشمه ولعلها مقدم أربعة آلاف فظهر من هذا الحين طالع نجمه وعلت كلمته ومال إليه الناس وتعلقت به آمال العسكر لا سيما طوائف الأرنؤط فخضعوا له وأطاعوا أمره وعملوا بإشارته فحسده خسرو باشا وتحذر منه وخشى عاقبة ظهوره فلما عصى الأمراء المصريون وخرجوا على خسرو باشا وانحدر إلى القاهرة من كان منهم بالصعيد الأعلى سير لقتالهم عسكرا من العثمانيين ورسم إلى محمد على بالخروج فى جنده لنجدة العساكر السلطانية فخرج كارهاً فلما احتدمت نار القتال بين الفريقين تأخر محمد على عن نجدة العثمانيين وخذلهم فانتصر عليهم الأمراء المصريون نصرة عظيمة وأعملوا فيهم القتل والتشريد وجاء مقدم العساكر العثمانية يشكو مما فعله محمد على فشق فعله على خسرو باشا وأكبره ورسم بقتله وحرر فرمانا بذلك واستدعاه ليلة إلى قلعة الجبل فأحس بالمكيدة وعلم بما وراء صعوده إلى القلعة فى تلك الليلة فتمارض وأصبح وقد ثار الجند يطالبون بالمتأخر من جماكيهم وعلوفاتهم فتحزبوا وشددوا فى الطلب وركبوا على خسرو باشا وقاتلوه فانهزم وفرّ إلى دمياط فى نفر من أتباعه فأقاموا فى الولاية بعده أحمد طاهر باشا وهو من مقدمى عسكر الأرنؤط فلم تكن إلا أيام قلائل حتى قام عليه جماعة الانكشارية وقتلوه فقامت بعد قتله الفتنة وعم الاختلال واشتدت الخطوب وكثر السلب والنهب وهتك النساء فى الشوارع والطرقات واشتد الأمر شدة بالغة ووقع من الحوادث ما مر بك بيانه فى محله مفصلا فكان لمحمد على فى إضرام نار هذه الفتن اليد الطولى وأعانه على جميع ذلك الشيخ الشرقاوى والسيد عمر نقيب الأشراف وخلا لمحمد على الجوّ بموت طاهر باشا وصارت جميع الجند من الأرنؤط طوع أمره فلما آنس منهم كمال الطاعة عمل على استمالة من كان بالقاهرة من كبار المشايخ والعلماء وأرباب الوظائف العالية فانحازوا إليه ولبوا دعوته وتقدموا إلى دار السلطنة العثمانية فى طلب توليته على ديار مصر وكان السلطان قد رسم بولايته على جدة كما أشرنا إلى ذلك بقصد إبعاده عن ديار مصر وتمزيق شمل أصحابه فقد كان هو وأصحابه أشد خطرًا على الدولة من جماعة الأمراء المصريين فلم يتعجل بالسفر وتقاعس وأظهر الاهتمام بجمع الزاد والذخيرة واحتياجات العسكر وكان المشايخ والعلماء فى خلال هذه الفترة يكثرون من الإلحاح على دار السلطنة بطلب تقليده الولاية على مصر ويرفعون إليه القصص ويشكون مما يلاقونه من الجور والعسف وقد

أضرموا نار الفتنة بمصر والقاهرة وأثاروا العامة أياماً فخرجوا على أحمد باشا خورشيد عامل الدولة يومئذ على ديار مصر وحاصروه بقلعة الجبل فكان بينه وبين الجند والعامة وقائع وحروب هائلة قد مر بك بيانها فى محلها. وطالت أيام الفتنة والرسل تتردد ما بين دار السلطنة ومصر والحرب والقتل والنهب قائمة على ساق حتى جاء الفرمان بولاية محمد على اعتباراً من العشرين من ربيع الأوّل سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ولم يستقر به المنصب إلا فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأولى سنة عشرين لتمنع أحمد باشا بقلعة الجبل وعدْم اعترافه بصحة ولاية محمد على باشا حتى وفد عليه رسول الدولة بمرسوم السلطان يأمره فيه بترك قلعة الجبل والجلاء عنها إلى الإسكندرية فنزل وسار إلى الإسكندرية على ما تقدم بك بيانه.

(فصل)

(فيما وقع فى أيامه من الحوادث والأنباء إلى ولاية ولده الأمير إبراهيم)

ولما استقرت الولاية بمحمد على باشا جعل يتصرف فى الأمور ويعمل على تعزيز سلطانه وتأييد مقامه باسترضاء الجند وصرف المتأخر من جماكيهم فضرب على قبط مصر قرضا وقسمه على كبرائهم، فكان ذلك أول قرض أحدثه بعد ولايته وكان عظيمًا للغاية وبث الأعوان لقبضه فعاثوا وفعلوا ما لا خير فيه ثم قبض على المعلم جرجس الجوهرى معلم مصر يومئذ وصاحب خراجها وعلى جماعة من عظماء القبط وسجنهم ببيت كتخدا وطلب من المعلم جرجس حسابه عن سنة خمس عشرة ومائتين واستقدم المعلم غالى وكان يومئذ كاتب الألفى بالصعيد وأقامه بدله وضيق على المعلم جرجس وشدد فى طلب الحساب وفرض عليه مبلغًا عظيمًا من المال فباع ما كان عنده من أثاث ومتاع ووفى بعض ما طولب به فلم يخل عنه وبقى معتقلاً أياماً. والطلب على أهل البلاد بما فرض عليهم مترادف فحسد الأمراء المصريون محمد على باشا على ما وصل إليه من علوّ الكلمة واتساع الشهرة وحقدوا عليه واستصغروا قدره وناووه فخافهم وخشى عاقبة أمرهم واهتم لقتالهم وشدد فى طلب الأموال وفى جمع الخراج وبث أصحاب الجباية فجابوا البلاد شرقا وغربا ونزلوا على القرى وجمعوا منها ما قدروا على جمعه ثم أخذ فى تدبير أمور العسكر وصرف الجماكى والعلوفات المتأخرة لهم وأكثر من جمع الأسلحة ومعدات الحرب وسير إلى زعماء الأمراء المصريين الذين كانوا بالأقاليم القبلية والبحرية يدعوهم إلى

ترك القتال والعود إلى طاعة السلطان فشطوا فى الطلب وبالغوا فلم يقدر على القيام بمطالبهم فلما علموا بعجزه انحـدروا بخيلهم ورجلهم إلى الجيزة وضربوا على أهلها الكلف والمغارم وانضم إليهم من كان بها من لمومهم وأتباعهم وسار جماعة منهم إلى ناحية المذبـح وكسروا باب الحسينيـة ودخلوا من باب الفتوح وهم فى ضـجة وجلبة عظيمة وخلفهم طبول ونقاقير وجمال وأحمال وساروا من بين القصرين حتى جاءوا الأشرفيـة فاندهش الناس من دخولهم المدينة على هذه الحـال وما زالوا حتى وصلوا إلى عطفـة الخراطين فـافترقـوا إلى فرقـتين ودخل جـماعـة منهم وبأيديهم البنادق والسيوف ومروا بالجامع الأزهر إلى بيت السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى فامتنع السيـد عمر من لقائهم فـدخلوا إلى بيت الشيخ الشرقـاوى وأتى إليهم السيد عـمر فطلبوا منه النجدة وخـروج العامة معهم لقتـال محمد على باشا فأمتنـع فألحوا عليه فلم يقبل وهددهم فـركبوا وخـرجوا من باب البرقـية، وكان قد وصل خـبرهم إلى محمد على باشا فأرسل فى أثرهم حسن بيك الأرنؤطى فى عدة وافرة من المشاة فلم يلحق بهم، أما الفريق الثانى منه فإنه جـعل يتقدم حتى وصل إلى باب زويلة وسار قليلاً إلى جهة الدرب الأحمر فمـانعه العسكر المرابطون هناك وأطلقوا عليهم البنادق فرجعوا القهقرى إلى جهـة باب زويلة وهموا بالدخول إلى جامع المؤيد والتحصن به فمانعهم المغاربة الساكنون هناك وأطلق عليهم المرابطون نيرانهم فقتلوا منهم وجرحوا وقوى جـأش المرابطين بجهـة الدرب الأحمـر عند سمـاعهم أصوات البنـادق وتنبه غيرهم أيضاً فاجتمعوا لمعاونة بعضهم فلما شاهد الأمراء المصريون ما حل بأصحابهم من تساقط النيران عليهم من كل صوب وحدب ولوا الفـرار فتبعهم العسكر يضربون فى أقفيـتهم فلم يزالوا فى سيرهم إلى النحاسين. وقـد أغلق الناس بوابة الكعكيين وبوابة الخراطين وبوابة البندقـانيين فانقلبوا إلى مـا بين القصرين فلاقـاهم فريق من عسكر محمـد على باشا وأطلقوا عليهم البنادق فوقعوا بيـن نارين فانفشلوا وسقطوا فى أيديهم وترجلوا عن خـيلهم ودخل منهم جـماعـة إلى جامع البـرقوقيـة وذهب آخرون بخيلهم إلى باب النصر فوجدوه مغلقا فنزلوا أيضاً عن الخيل ودخلوا العطوف وتسوّروا الأسوار وتسلقوا الجدران إلى خارج باب النصر وتفرق منهم جماعة اختفوا فى الحارات وبعض الـوكائل والبيـوت فأحاط العـسكر بمن دخلوا جامع الـبرقوقـية وأحرقوا باب الجامع وقـبضوا على من كان به وجردوهم من ثيـابهم وأخذوا ما كان معهم من ذهب ونقود وأسلحة وذبحوا منهم جماعة وأخذوا من بقى مكبلين بالحديد وهم فى أسوأ حـال وساروا بهم إلى بيت محـمد على باشا بالأزبكيـة، وكان على أهبة الركوب فلما ألقوا بين يديه رؤوس القتلى سكن جـأشه وفرح كثيراً، وكان ممن

قبض عليه من الأمراء أحـمد بيك تابع البرديسى أمير دميـاط وحسن شبكة وآخرون فلما مثل أحـمد بيك بين يدى محمـد على باشا قال له: أو لم تدر يا أحمد عـاقبة الخروج؟ فقال أعطونى ماء فأمر محمد على باشا ففكوا قيوده وأتوه بماء ليشرب فنظر حوله وكان على مقربة منه أحد الجند وفى حـزامه خنجر فخطف الخنجر من حزامه وهَمّ بقتل محمـد على باشا وقد جرح عدة من العسكر فتكـاثروا عليه وقتلوه ذبحًا كذبح الشاة وساقوا الباقين إلى المحبوس فكان ذلك آخر العهد بهم، **قلـت**: وكانت هذه أول وقعـة وقعت بين الأمراء المصـريين وعسكر محـمد على باشا بعـد وصول فرمان السلطان بولايتـه على ديار مصر، وزاد من هذا الحين تحذر محـمد على باشا وأصحابه من هجمـات الأمراء المصريين وسير عابدى بيك فى عـسكر عظيم لقتالهم فنزل عابدى بيك على طرا وألتقى مع من كان بها منهم فكان بها إبراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وأصحابهما فأقتتلوا قتالاً شديداً فى البر والبحر وأبلى إبراهيم بيك وأصحابه فى هذه الحـرب بلاء حسنا فانهزم عابدى بيك ومن معـه وقتل من عسكره خلق كثير وعاد من بقى إلى ناحية الفـسطاط وقد غرقت بعض سفنهم فتقوت بذلك عزيمة إبـراهيم بيك ونشر جموعـه فى البلاد فعاثوا وأفـسدوا وقتلوا ونهبـوا وسبوا النساء والأولاد وأحرقوا الكفور والقرى فسير محمد على باشا اثنين من أصحابه إلى إبراهيم بيك ليـخاطبـاه فى أمـر الصلح فلم يجب إليـه وشط فى الطلب، وحضـر جماعة من أصـحاب الألفى إلى جهة سقارة والجـيزة وعاثوا فيها أيضـاً وطلبوا منها الكلف والأموال وبلغ الصـائح القاهرة فنادى محـمد على باشا بخـروج سائر الجند والعسكر فـخرجوا مـشاة وركبانا وركب مـعهم محـمد على باشا فى أبهـة وجلالة وعبروا النيل إلى الجيزة ليلاً ولم تطلع الشمس إلا وكل أمير قد وقف على أصحابه. وجاء الخبر بقرب العدوّ من محلتهم فزحفوا وبانت طلائع العدو فهجم عليهم عسكر محمد على باشا فأنهزموا وولوا الأدبار فتبعوهم وأعملوا السيف في أقفيتهم واشتدوا عليهم شـدة بالغة، فبينما هم كذلك إذ خـرج عليهم كامن من خـلف فوقع بينهم الضرب وحمل أحـد مقدمى عسكر مـحمد على باشا بمن معـه على الأعداء فظنوه محمد على فأحاطوا به وأخذوه أسيراً هو ومن معه واشتد القتال بين الفريقين وعلت الضوضاء وكـثر الصياح فلم يلبثوا على هذا الحـال حتى تقهقر عسكر مـحمد على باشا ورجع من بقى منهم إلى ناحية الفسطاط وترفع المصريون إلى ناحية بياض وبنى سويف فكانت وقعة من شر الوقائع مات فيها خلق كثير من الفريقين وداست جثثهم سنابك الخيل.

ولم تكن إلا أيام حتى رجع المصريون فى أول المحرم افتتاح سنة إحدى وعشرين فى جمع كثير من العربان ولموم أهل الحرف ونزلوا بناحية جزيرة الهواء فأزعج حضورهم محمد على باشا ورسم بخروج العسكر فخرجوا لقتالهم واقتتلوا قتالاً شديدًا فمات من الفريقين خلق وانضم فريق من عسكر الباشا إلى العدوّ وكان المقدم عليهم يومئذ حسن باشا الأرنؤطى فأرسل إلى محمد على باشا يستنجده ويخبره بما وقع فهاله الخبر وأزعجه فجمع جيشاً ضخماً وسير به نجدة إلى حسن باشا وعين المرابطين بإنبابة وطرا وشدد عليهم فى ملازمة المعاقل ونادى فى جميع الجند بذلك وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وجاء إلى القاهرة كثيرون من الجرحى ونادوا بعدم الخروج إلى الأسواق بعد أذان العشاء فكان لذلك النداء أثر مخيف وعاد العامة وأصحاب البيوت إلى حمل السلاح والسهر والتحرز وملازمة الأزقة نهارًا والأسطحة ليلاً وسار عابدى بيك بعسكره خلف لموم الألفى إلى الفيوم فلم يجد بها أحدًا منهم فاحتلها بعسكره ثم ترك بها رباطا وعاد لنجدة أخيه حسن باشا وأقام معه بناحية الرقق وتوالت رسائل الألفى الكبير على السيد عمر النقيب بالوساطة بينه وبين محمد على باشا وتقرير قاعدة للصلح فشاور محمد على باشا أصحابه فى الأمر فقرروا إقطاع الألفى بلاد الجيزة من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب وكتبوا له بذلك على يد رسوله الذى حضر بخطابه واحتاج الألفى وأصحابه وهم فى انتظار الجواب إلى النفقة فطلبوها من أهل برطس وأم دينار ومنية عقبة فامتنعوا عليهم فركبوا وحاربوهم ونهبوا وقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال وفعلوا ما لا خير فيه ثم تفرقوا فى البلاد وعاثوا ووصلت طلائعهم إلى المنوفية ففعلوا بها من القتل والنهب ما لا يوصف وانضم إليهم جماعة من عساكر محمد على باشا فتقوت شوكتهم وزاد عسفهم فعزم محمد على باشا على الخروج لقتالهم بنفسه وأخذ يتأهب لذلك وأنزل شيئاً كثيراً من المهمات من قلعة الجبل ونادى مناديه فى العسكر بالخروج وضرب للنفقة فرضة على البلاد وقامت الجباة لجمعها فكانت كثيرة جداً ووردت الأخبار بقيام الألفى وزحفه من جهة الجسر الأسود والطرانة إلى ناحية الجيزة فخرج لقتاله طائفة من العساكر فوصل الألفى إلى دمنهور فوجدها ممتنعة فحاصرها فقاتلته قتالاً شديدًا فسار عنها قليلاً وعسكر على بُعد منها ومنع عنها الوارد وطلب حسن باشا المدد من محمد على باشا فسيره إليه فقام من بنى سويف إلى منية ابن خصيب فى جمع كثير وقاتل من كان بها من الأمراء المصريين والعربان وأبلى فيهم بلاء حسنًا وسارت طائفة أخرى إلى دمنهور لإجلاء الألفى عنها وظن

محمد على باشا الظفر بأعدائه فى هذه الحملة واستبشر الناس بذلك أيضًا وجعلوا يعللون الآمال بقرب زوال هذه المحن والخطوب المتتابعة، فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف جاء الخبر من حاكم الإسكندرية بقدوم جيش عظيم من العساكر العثمانية على نظام عسكر الفرنسيس ومع هذا الجيش والٍ جديد لمصر بدلاً من محمد على باشا اسمه موسى باشا وكان ورود هذا الخبر إلىَ الدفتردار أولاً فسير بـه إلى السيد عمر النقيب فجاءه السيد عمر وركبا معاً إلى محمد على باشا وأعلمـاه بالخبر ثم شاع بين الناس وتناقلته الألسنة فبذل الوالى والمحتسب جهد الاستطاعة فى إخفاء الخبر كى لا يصل إلى الأمراء المصريين فلم يقدرا وقد سار المبشرون إلى الألفى وهو على سواد البحيرة وأخبروه بوصول سفن الدولة وعليها العسكر المنظم ففرح وسر سروراً لا يوصف وطير الكتب بذلك إلى الآفاق فزاد فى مصر والقاهرة الهرج وكثر القال والقيل ولبث الناس على هذه الحال إلى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر فقدم إلى القاهرة رسول من قبل أمير تلك السفن فسير محمد على باشا جماعة للقائه وأنزله فى بيت الروزنامجى فأقام يومى السبت والأحد واجتمع بمحمد على باشا مرات كثيرة ثم سافر يوم الاثنين ولم يعلم أحد بما دار بينهما من الحديث وجعل محمد على باشا من هذا الحين يتأهب ويستعد ويكثر من عمل آلات الحرب ومعدات القتال وجمع الحدادين والنجارين وأرباب الصنائع بقلعة الجبل وجمع إليه مقدمى العسكر وأصحاب الوظائف العالية فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وتحققوا عصيان محمد على باشا وخروجه على السلطان وأرسل محمد على باشا إلى السيد عمر النقيب والخاصة وبعض المشايخ والعلماء فأخبرهم بصورة الحال وما ورد له من دار السلطنة بعزله وولاية موسى باشا. قال: وسبب ذلك أن الأمراء المصريين تقدموا إلى الباب العالى فى طلب العفو عنهم وعودهم إلى ديارهم بشرط خروج جميع الجند الأرنؤط وجلائهم عن البلاد وعليهم القيام بخدمة الدولة والحرمين وإرسال غلالهما ودفع الخزينة وتأمين السابلة فأجيبوا إلى سؤالهم على هذه الشروط وأن المشايخ والعلماء يتكفلون بهم ويضمنون عهدهم بذلك، فلما سمع من حضر هذا الكلام سكتوا جميعًا ولم ينطقوا ببنت شفة ثم انصرفوا واشتدت عزيمة محمد على باشا وقوى مع ذلك جأشه فبالغ فى الاستعداد والإكثار من آلات الحرب والتطواف فى الشوارع والصعود والنزول من قلعة الجبل ثم جمع العلماء والمشايخ والسيد عمر النقيب وبعض أخصائه ثانية ومعهم ديوان أفندى وتكلموا فى ذلك الأمر طويلاً فاتفقوا على أن يرفعوا إلى الباب

العالى قصة ينكرون عليه فيها مـا يراد فعله من خلع محمد على باشا وتولية موسى باشا فكتبوا يقولون : بسم الله الرحمن الرحيم، الرؤوف الحليم الحمد لله ذى الجلالة على جميع الشئون والأحوال نرفع إليك أكفا من بحـر جودك مغترفـه ونتوجه إلى كعبة فـضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفـه أن يديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن والأمـان بدوام وزير تخضع لـمهابتـه الرقاب وتدنو لهـيبـته سطوة المهـمات الصعاب منتهـى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالـب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الأمور الصدر الأعظم أدام الله دعائم العز ببقائه وفسح للأنام فى أيامه محفوفا بعناية الرب الكريم مـحفوظًا بآيات القرآن العظيم آمين، أما بعد رفع المقصد والرجـاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فـإننا ننهى لمسامعكم العلية وشيم أخـلاقكم المرضية بأنه قد قـدم حضرة الدستـور الأكرم والمشير الأفـخم مدير مهمات الأسكلات البحرية خادم الدولة العلية الوزير قبطان باشا إلى ثغر الإسكندرية فأرسل كتـخدا البوابين سعـيد أغا ومعـه الأمر الشريف الواجب القبـول والتشريف المعنون بالرسم الهـمايونى الـعالى دامت مـسراته على مر الدهور والأعـوام والأيام والليالى فأوضح مكنونه وأفصح مضمـونه أنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد على باشـا وبين الأمراء المصريـين فتعطلـت مهمـات الحرمـين الشريفـين من غلال ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سـوابق العادات والحال أنه ينبغى تقديم ذلك على سائر المطلوبات وأن هذا التـأخير سببـه كثرة العساكـر والعلوفات وترتب على ذلك لكامل الرعية بالأقاليم المصرية الدّمار والاضمحلال وأنهت الأمراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وأنهم يتعهـدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعـوائد ومهـمات وإخراج أمـير الحـاج على حكم أسلوب المتقـدمين مع الامتثـال لكامل ما يرد من الأوامر الشريفة إلى ولاة الأمـور بالديار المصرية، وأنهم يقومـون فى كل سنة بدفع الأموال الأميـرية إلى خزينة الدولة العليـة إن حصل لهم العفـو عن جرائمهم الماضيـة والرضا بدخولهم مـصر المحميـة والتمسوا من حـضرة الدولة قبـول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فـأصدرتم لهم الأمر الهمـايونى للشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشـار إليه المقرر العـداوة معه ووجهـتم له ولاية سلانيك ووجهتم ولاية مصـر إلى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وأن العلمـاء والوجاقلية والرؤساء والوجهـاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مـولانا الخانكار ببلوغ المأمولات المرضيـة إن تعهدوا بهم وكـفلوهم تحصل لهم المساعـدة الكلية حكم التمـاسهم من أعتاب حضرة الدولة العلية فأمركم مطاع وواجب القبول والاتباع غير أننا نلتمس من

شيم الأخلاق المرضية والمراحم العلية العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فإن شرط الكفيل قدرتـه على المكفول ونحن لا قـدرة لنا على ذلك لما تقـدم من الأفعـال الشهـيرة، والأحوال والمنظورات الكثـيرة التى منها خيـانة المرحوم السيد على باشـا والى مصر سابقـاً بعد واقعة مـيرميران طاهر باشـا وقتل الحجـاج القادمين من البلاد الرومـية، وسلب الأموال بغير أوجه شرعية والصغـير لا يسمع كلام الكبير والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصـغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدنا خـصوصاً ما وقع فى العام الماضى من إقـدامهم على مـصر المحمية وهجومهـم عليها فى وقت الفـجرية فجلاهم عنها حضرة المشـار إليه وقتل منهم جماعة كثيرة فكانت وقعـة شهيرة فهذا شىء لا ينكر فحينئذ لا يمكننا التكفل والتعهد لأننا لا نطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ونرجو عـدم المؤاخذة فى الأمور التى لا قدرة لنا عليها لأننا لا نقدر على دفع المفسـدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعـايا ودمروهم فأنتم خلفاء الله على خليفته وأمناؤه على بريتـه ونحن ممتثلون لولاة أموركم فى جميع ما هو مـوافق للشريعـة المحمـدية على حكم الأمر من رب البـرية فى قولـه سبحـانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيـعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾ فـلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله فإن حصل منهم خلاف ذلك نكل الأمر فيهم إلى مالك الممـالك لأن أهل مصر قوم ضـعاف. وقال عليه الصـلاة والسلام: «أهل مصر الجند الضعيف فما كادهـم أحد إلا كفاهم الله مؤنته». وقال أيضاً: «وكل راع مسئول عن رعيتـه يوم القيامة»، ونفـيد أيضاً حـضرة المسامع العلية من خـصوص القرض والسلف التى حصل منها الثقلة للأهالى من حضرة محسوبكم الوزير محمد على باشـا فإنه اضطر إليـها لأجل إغـراء العسـاكر وتقـويتهم علـى دفع الأشقـياء والمفسـدين والطغاة المتمـردين امتثالاً لأوامـر الدولة العلية فى دفعـهم والخروج من حقـهم واجتهد فى ذلك غـاية الاجتهاد رغـبة فى حلول أنظار الدولة العلية فـالأمر مفوض إليكم والملك أمانة تحت أيديكم نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسدّة السلطان مع رفعة تترشح بها فى النفوس عظمته وسطوة تسرى بها فى القلوب مهابته، وأن يبقى دولته على الأنام وأن يحسن المبدأ والختـام بجاه سيدنا محمد خير البرية وآله وصحبه ذوى المناقب الوفية، انتهى بنصه.

وكتـبوا هذا المحضر نـسختين إحـداهما برسم أميـر سفن الحرب الراسـية بمينا الإسكندرية والأخـرى برسم السلطان ووقع المشـايخ والعلمـاء عليهـما وأرسـلا مع مـخصـوص فلم يصل رسـولهم إلى مـدينة الإسكندرية إلا وقـد وصل إلى بولاق

سلحدار الوزير فنزل بها فى ليلة الاثنين ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة ثم حضر إلى بيت محمد على باشا وأصبح وقد بعث إلى جميع المشايخ خطابا ومثله إلى الشيخ السادات. وثالثًا إلى السيد عمر النقيب من أمير سفن الحرب وكلها تتضمن الأخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته على سالونيك وإقامة السيد موسى باشا المنفصل عنها بدلاً منه وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للأوامر والاجتهاد فى المعاونة ووجوب سفر محمد على باشا عن طريق دمياط ومعه حسن باشا حاكم جرجا وجميع من كان معهما من الجند بلا مهل فلما علموا بالأمر قاموا جميعًا وركبوا فى عصر اليوم واجتمعوا بمحمد على باشا وتناجوا فى الأمر طويلاً ثم انصرفوا وفى الغد سير إليهم بصورة عريضة يكتبونها ردًا على خطاب أمير تلك السفن فكتبوها وسيروا بها إليه وهى تتضمن الاسترحام وعدم القدرة على كفالة الأمراء وطلب منع الضرر الذى لابد وأن يترتب على إرغام العسكر على الخروج بعد الاستيطان وبالغوا فى الشكوى وعظموا فى البلوى وأخذ محمد على باشا فى الأهبة والاستعداد لقتال الألفى وأمر فخرج العساكر إلى بولاق وعبروا النيل إلى الجيزة ونادى فى الجند والوجاقلية بسرعة الخروج وعدم التخلف وأنزل كثيرًا من المدافع وآلات الحرب ثم عبر هو أيضا النيل إلى انبابة واستقدم إليه مشايخ العربان ورتب منهم طائفة لخدمة الجند، فلما وصل إلى أمير سفن الحرب خطاب المشايخ والعلماء غضب وكتب إلى محمد على باشا يستحثه على ترك مصر والجلاء عنها إلى دمياط قيل فلم يبال محمد على باشا بذلك ولم يكف عن حشد الجيوش وجمع معدات الحرب حتى تحقق الناس عصيانه فلما كان ثانى عشر جمادى الأولى من السنة وردت الأخبار بوصول موسى باشا الوالى الجديد إلى مدينة الإسكندرية وحضر إلى القاهرة أحد أعوانه بكتاب إلى الدفتردار بأن يكون قائمًا مقامه مسئولاً عن الأموال وحقوق الخزينة السلطانية فلم يقبل الدفتردار ذلك وكان الألفى لم يزل بالجيزة يبعث إلى أمير السفن الحربية بالأخبار والهدايا العظيمة وقد أرسل إليه ثلاثين حصانا منها عشرة برخوتها ومن الغنم أربعة آلاف رأس وجملة أبقار وجواميس ومائة جمل محملة بالذخيرة وغير ذلك من المال والثياب والأقمشة برسم كبار أتباعه فغضب محمد على من فعله هذا وخاف عاقبته وعجل فى تسيير الجند لقتاله فنزلوا تجاه الرحمانية فلما أحس الألفى بحضورهم سار إليهم بقومه وقاتلهم قتالاً عنيفًا انجلى عن هزيمة عسكر محمد على باشا ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى البحر فألقوا بأنفسهم وهرب كتخدا محمد على باشا وطاهر باشا إلى ناحية المنوفية وعبروا النيل

واستولى الألفى علـى ما تركوه من سلاح وكراع وكـان شيئًا كثـيرًا وأرسل بمن أسر منهم إلى أمير سفن الحرب وجاءت الأخبـار بذلك إلى محمد على باشا فخرج إلى انبابة وطاف الوالى وأصـحاب الدرك ينادون على العسـكر بالخروج ووصل من بقى من عسكر طاهر باشا إلى بولاق ومعهم الجرحى والمرضى فمنعوا من النزول وسارت بهم السفن إلى امبابة وباتوا وأصبحـوا وقد عادوا إلى بولاق ودخلوا المدينة ثم حضر بعد أيام طاهر باشا إلى امبابة وكان قد أرسل إليه محمد على باشا بعد انهزام جيشه أن لا يعود إلى القـاهرة، وأن يرحل عنه إلى رشيد فلم يصل إلى رشيـد حتى رسم إليه بالرجوع إلى الـرحمانية لإجلاء الألفى عنهـا فرجع إلى الرحمانيـة ومعه بعض الجند فلما التـقى الجمعان انهـزم عسكر طاهر باشا ورجـعوا القهقـرى وما زالوا فى هزيمتهم ومعهم طاهر باشا حتى وصلوا إلى امبابة ورجع الألفى إلى حصار دمنهور والتضييق على من كانوا بها وجاءت الأخبار من أمير السفن إلى الألفى بالتشديد فى قتال من بها حتى يستأمنوا وطال القتال واشتد فى جميع الجهات وترددت الرسل بين أميـر السفن والألفى والأمراء المقـيمين بالصعـيد وطالت المخابرة بينهم وطلب أمـير السفن حضور الأمراء من الصعيـد إلى الإسكندرية ليتشاوروا فى الأمر فلم يحضروا إذ منعهم البرديسى من ذلك لما بينه وبـين الألفى من الشحناء وكان الألفى هو الذى استقـدم أمير تلك السفن بسـفنه إلى مياه الإسكندرية وعمل على خلع مـحمد على باشا بوساطة الإنجليز بدون مشورة الأمراء المصريين فلما لم ينحدروا إلى الإسكندرية علم أميـر السفن مـا بينهم من البغضـاء والشحناء ومـا هم عليه من تفـريق الكلمة فتحقق أنهم لا يفلحون وأنه لا يصح له الاستيثاق منهم ولا الأخذ بمشورتهم فنبذهم وأرسل إلى محمـد على باشا مكتوبجيـه واستوثق منه فتـعهد له محـمد على باشا بجميع الالتزامـات والتعهدات التى عينها الألفى وكتـب بذلك عرضا ووقع عليه من المشايخ والاخـتيارية والـوجاقلية وأرسله مع ولده إبراهيـم وأرسل معه هدية فـاخرة للغاية وخيلا وأقمشة هندية وغير ذلك فلما كان العاشر من رجب وصل كتخدا أمير السفن المذكور إلى سـاحل بولاق فأطلقوا لقدومه عـدة مدافع وأرسلوا له فى صبح ثانى يوم خيولا صحبة الأمير طوسون ولد محمد على باشا فركب فى موكب حافل للغاية ثم عقد الديوان وقـرئ مرسوم أمير السفن ببقاء مـحمد على باشا على ولاية الديار المصرية وعليه القيام بجميع التعهدات التى منها خروج الحاج والاستمرار على أداء لوازم الحرمـين وإيصال العـلائف والغلال لأربابها على الـنسق القديم، وأن لا يدخل فى دائرة تصـرفه ثغـور رشـيد ودمـياط والإسكندريـة بل تبقى إيراداتهـا من

الجمارك حقا للخزينة السلطانية فلما تمت قراءة ذلك المرسوم أطلقوا عدة مدافع وطاف المبشرون على بيوت الأمراء والأعيان وأقلع الأمير بسفنه إلى دار السلطنة ومعه موسى باشا والأمير وإبراهيم ولد محمد على باشا فى يوم السبت خامس شعبان وتقوت عزيمة محمد على باشا فجعل يتأهب لقتال الألفى وإجلائه عن دمنهور والرحمانية فلم يتم خروج العسكر لقتاله حتى جاء هو وقومه إلى الجيزة وانتشرت لمومه ببلادها فكانت كثيرة جدًا فأسرع محمد على باشا فى إخراج الجند وعبر بهم النيل إلى امبابة وسير فريقًا منهم إلى الأخصاص فالتقى بأصحاب الألفى واقتتلوا قتالاً عنيفًا فتقهقرت عساكر محمد على باشا وانحازوا إلى الكفور والقرى وأصبحوا وقد نودى فى عسكر الألفى بالرحيل إلى شبرامنت فساروا فى يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة فكانوا عدة كثيرة على نظام وترتيب الفرنسيس فأعجب محمد على باشا نظامهم ورأى الألفى قرما عنيدًا فأمر ببقاء أصحابه على قدم الدفاع فلما كان يوم الخميس العشرين من القعدة حضر جماعة من العربان وأخبروا محمد على باشا بموت الألفى فى يوم وصوله إلى شبرامنت نزل به خلط دموى فتقايأ ثم مات من ساعته ناحية المحرقة على مقربة من دهشور وأن مماليكه أجمعوا على أن يؤمروا عليهم شاهين كما أوصى الألفى عند موته فانفصلت عنهم العربان من طائفة أولاد على وكذلك تركهم كثير من العسكر فلم يصدق محمد على باشا هذا الخبر وشاع فتحدث الناس به وهم بين مصدق ومكذب وسير محمد على باشا من يتحقق الخبر فلم تعد رسله حتى جاءه الخبر أيضاً بموت عثمان بيك البرديسى بمنفلوط وموت سليم بيك أبو دياب ببنى عدى وكلاهما من كبار الأمراء الفارين بالأقاليم القبلية وزعماء العصابة ثم عادت رسل محمد على باشا وأكدوا له موت الألفى فسر بذلك سرورًا لا يوصف وقال لمن كان معه من بطانته يوم وصول هذا الخبر إليه: اليوم طاب لى ملك مصر فلا خوف علىّ. وأرسل إلى كبار جيش الألفى يخابرهم فى الصلح ويمنيهم بالأمانى العظيمة فلم يقبلوا إلا بما كان يطلبه أستاذهم من المزايا والإقطاعات وأن يدخل ضمن هذا العهد أيضاً جميع الأمراء المقيمين بالصعيد وهم إبراهيم بيك وعثمان بيك حسن فخرج محمد على باشا بجنده وعبر النيل إلى الجيزة وخيم على مقربة من ساقية مكى وسير من يخابر الأمراء المصريين فى الصلح وكف القتال واستدعى ولد الشيخ الأمير وولد الشيخ العروسى والسيد محمد الدواخلى وسيرهم سفراء لتقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة وظل قوم الألفى وعسكره ببلاد الجيزة يعيثون ويفسدون ويطالبون أهلها بالكلف والمغارم وهم يستغيثون وليس

من مجيب، وكان الألفى داهية طاغية حازما حسن السياسة ساكن الجأش واسع التدبير جسوراً صبوراً على الخطوب مقدامًا فى الحروب وكان قد جلبه بعض النخاسين إلى مصر فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون فأقام عنده أياما فلم تعجبه أوصافه إذ كان ماجنا سفيها فطلب منه أن يبيعه فباعه إلى آخر اسمه سليم أغا الغزاوى المعروف بتيمورلنك فأقام عنده حينا ثم أهداه إلى مراد بيك فأعطاه بدله ألف أردب من الغلال فسمى من ذلك الحين بالألفى وكان جميلاً حسن الصورة فأحبه مراد بيك وجعله جوخداره ثم أعتقه وجعله كاشفا للشرقية فظهر أمره وعرفه الناس وكان صعب المراس قوى الشكيمة وكان له جار اسمه على أغا المتوكلى فدخل عنده يوماً وترجاه فى أمر فوعده بقضائه ثم أحجم عنه فدخل عليه يوما فى بيته وعاتبه فغضب الألفى وأمر خدامه أن يضربوه فضربوه بالنبابيت ضربًا مبرحًا وحملوه إلى بيته فمات فى ثانى يوم فشكى أهله الألفى إلى أستاذه مراد بيك فغضب مراد بيك ونفاه إلى البحيرة فعاث فى فوّة ومطوبس وبارنبال ورشيد وأكثر من الفساد وضرب على أهل البلاد الكلف والمغارم فشكوه إلى مراد بيك فأرسل إليه يتهدده إن عاد إلى مثل ذلك، واتفق فى هذه الأثناء إن وقع التشاحن بين الأمراء المصريين فأبعدوا سليمان بيك الأغا وأخاه إبراهيم بيك ومصطفى بيك فأرسل إليه مراد بيك أن يرافق سليمان بيك إلى الإسكندرية ثم يعود إلى القاهرة ففعل ورجع إلى القاهرة فقلدوه صنجقا وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية واشتهر من هذا الحين بالغلظة والخشونة فخافه الناس وتحاشوا بأسه وبنى له دارا رحبة بقيصون واشترى المماليك والجوارى وأمر من مماليكه الأمراء والكشاف فنشئوا على أخلاق أستاذهم وتطبعوا بطباعه من التعدى والعسف والفجور والتزم بإقطاع فرشوط وغيرها من بلاد الصعيد ومن الإقليم البحرى محلة دمنه ومليج وزوبر وغيرها ولما تولى إمارة الشرقية خافه العربان وقبض على كبارهم وصادرهم فى أموالهم وماشيتهم وفرض على مشايخ القبائل المغارم والجمال ولم يزل على حاله وسطوته إلى أن قدم حسن باشا الجزايرلى إلى مصر فخرج الألفى المذكور مع حاشيته وأصحابه إلى الصعيد وأقام بها ثم رجعوا فى أواخر سنة خمس ومائتين وألف بعد الطاعون وقد لبث بالصعيد نحو الأربع سنوات ولما عاد إلى الشرقية شوهد منه بعض السكون والتأنى ومالت نفسه إلى مطالعة العلوم والنظر فى الفلكيات والهندسة وتعلق بالزايرجات وأشكال الرمل وأحكام النجوم وقرب إليه أهل العلم بها واقتنى كتبا عظيمة فى أنواع العلوم والتاريخ واعتكف ثم عاد إلى القاهرة ونزل بداره القديمة وترك الإمارة وعكف على

العلوم واكتفى بما عنده من الأراضى والإقطاعات ولبث على هذه الحال حينا فصغرت منزلته عند قومه وكادوا يحتقرونه فألتزم الأوسط وانتقل إلى دار أخرى ثم عاد إلى الإكثار من شراء المماليك حتى بلغت مماليكه زهاء الألف عدا من كان منهم فى الوظائف الكبيرة وأنشأ داره العظيمة بالأزبكية فلما تم بناؤها زينها بالفرش وأنواع البسط الفاخرة والتحف العظيمة التى أهداه بها جماعة الفرنجة وجعل خلفها بستانًا عظيماً للغاية وسكن بهذه الدار فى أواخر شعبان سنة اثنتى عشرة وهنأه الشعراء ونظم الشيخ حسن العطار تاريخا لقاعة جلوسه فى بيتين على أسكفة باب القاعة وهما:

شموس التهانى قد أضات بقاعة

محاسنها للعين تزداد بالألف

على بابها قال السرور مؤرخا

سماء سعاداتى تجدد بالألفى

١٤٤ ٤٢١ ٥٤٦ ١٠١

سنة ١٢١٢

فلما كان شهر رمضان أنار الدار المذكورة بالأنوار الكثيرة وازدحمت خيول الأمراء على بابه وأتى إليه المهنئون من كل صوب وما زال على هذه الحال إلى منتصف رمضان ثم بدا له السفر إلى الشرقية فأبطلوا الوقدة وأطفئوا تلك السرج والشموع فكان ذلك فألا وكانت مدة لبثه بهذه الدار ستة عشر يوماً فإنه ما تغيب بالشرقية إلا قليلاً حتى احتل بونابارته بجيوشه ديار مصر وساق الأمراء المصريين سوق الماشية إلى الأقاليم القبلية كما مر بك بيانه فى محله، وكان للألفى مع الفرنسيس تاريخ يذكر ووقائع عدة وما زال يراوغهم ويتعقب كتائبهم إلى أن جاءت الجيوش العثمانية إلى حدود مصر من ناحية الشام فسار إلى الصدر الأعظم قائد هذه الجيوش وقدّم له هدية نفيسة فخلع عليه الصدر وأقام عنده أيامًا ثم رجع وترفع إلى الصعيد ثم انحدر منها إلى الشام والفرنسيس يرصدونه.

ولما دخل الصدر الأعظم مصر بمن معه من الجنود وانتقض الصلح بينه وبين الفرنسيس على ما تقدم بيانه وانحصر المصريون والعثمانيون بالمدينة ركب الألفى فى قومه وقاتل الفرنسيس قتال الأبطال وخالف مراد بيك فى الصلح مع الفرنسيس واستمر على قتاله معهم وما زال إلى أن تم الصلح ثانيًا وخرج مع الصدر الأعظم وجيوشه إلى الديار الشامية ثم رجع إلى شرقية بلبيس ثم جاء إلى القاهرة وأقام بها

مع بقية الأمـراء بعد دخول الإنجليز وخروج الفـرنسيس وكان فى مدة إقامتـه معهم شديد التحـرز كثير التطير وجعل يتـقرب من كاتب يد الوزير حتى مال إليـه وأجبه فكلمه فى الوساطة بينه وبين الوزير على أن يقلده الوزير إمارة الصعـيد بشرط قيامه بالغلال والأمـوال فى كل عام من غيـر تأخير ولما كان الألفـى كثير الحشم والأتباع مسموع الكلمة مهيبا عند الناس كافة وكان الوزير يرغب فى تبعيده عن القاهرة وفى تمزيق شمل عصابـة الأمراء أجابه إلى طلبه ورسم له بالإمارة فسـار من فوره بجميع أتباعه ومماليكه وعـسكره وجدّ فى السير فلما شاع الخبـر جاء إلى الوزير من قبح له هذا العمل وأشار عليه بنقـضه فندم الوزير وسير من يستحضـره فلم يلحقوا به وقد وصل إلى مدينة أسيوط وأرسل إلى الوزيـر الأموال والغلال وهدايا أخرى من أغنام وعبيـد وخصيان وغير ذلك ولم يمض على قـيامه إلى الصعيـد إلا القليل حتى قام جماعة من كبار جند الإنجليز إلى الإسكندرية وكـذلك حسين باشا أمير سفن الدولة ونصبوا للمـصريين الفخاخ وأرسل القـبطان يطلب جماعة منهم، فلمـا قدموا أوقع بهم وقبض الوزير على من بالقاهرة منهم وحبسـهم وجرى ما هو مسطور فى محله وأرسلوا طاهر باشا لقـتال الألفى فى عسكر جرار وحـصلت المفاقمة وقـتل من قتل ولجأ الكثيـرون إلى معسكر الإنجليز بامبـابة وهرب جميع الأمراء إلى الصعيـد فقاتل عنهم الألفى قـتال الأبطال فى عـدة وقائـع تذكر ثم سـافر مع الإنجليـز إلى لوندره عاصمة مملكتهم وغاب بها سنة وشـهرا وبعض أيام وجرى فى غيابه من الحوادث ما قد ذكر فى محله بالتفصيل.

ولما تولى محـمد على باشا على مـصر كان يخشى الألـفى ويهابه كثيـرًا فوقع بينهمـا من الحروب ما مر بك بيـانه فى محله وبالغ الألفى فى الشكوى من محـمد على باشا إلى دار السلطنة العثمانية وإلى دولة الإنجليـز حتى كان ما كان من حضور أمير سـفن الدولة وعزل محمد على باشـا وتولية موسى باشا مما قـد ذكر فى محله فلما سافـر أمير تلك السفن وتأيدت ولايـة محمد على باشا اشـتد بغض الألفى له وكبر عليه أمر ولايته على مصر فكتب إلى دولة الإنجليز يستنجدها على قتال محمد على باشا فلم تجب طلبـه ثم عادت فكتبت إليه توعـده بنجدة مؤلفـة من ستة آلاف مقاتل فتـربص ناحية دمنهور وبقى ينتظر ثلاثة أشهـر فلم يأته أحد ولما طال به المقام وعيل صبـر قومه وقد ضجروا من الجـدب سار بهم إلى الجيزة يريد الصعيـد فخرج عليه محمد على باشا بعسكره فـارتحل إلى شبرامنت. قال بعض الكتاب: فلما صار على مـقربة من قـناطرها نزل على ربوة هناك وجلس عليـهـا وقد زاد به الهـاجس

والقهر ونظر إلى جهة مصر وقال مخاطبًا لها: ويلك أيتها القاهرة انظرى إلى أولادك وهم حولك ممزقـون كل ممزق انظرى فقد استوطنك أجلاف الترك واليـهود وأراذل الأرنؤط وصاروا يقـبضـون خراجك ويحـاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقـاومون فرسانك ويهـدمون دورك ويسكنون قصورك ويـفسقون بولدانك وحورك ويـطمسون بهجتك ونورك، انظرى، انظرى، انظرى. قـال الراوى لهذه العبارة: ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله حتى تحرك به خلط دموى وتقيأ فى الحال دما ونادى بأعلى صوته أواه قد قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على ومـا ثم من ينازعه ويغالبه عليها وقد مد حكمـه على طوائف المماليك فلا تقـوم لهم راية بعد اليوم، قال: ثم جـمع إليه أمراءه وأمر عليهم شاهين بيك وأوصاه وأوصـاهـم بالألفة والتحابب وأن يحذروا من مخادعة عدوهم فهو قرم عنيـد وأوصاهم أنه إذا مات يحملونه إلى البهنسا ويدفنونه بجوار قبور الشـهداء فمات فى تلك الليلة وهى ليلة الأربعاء تاسع عـشر ذى القعدة فحملوه على بعـير وساروا به إلى البهنسا ودفنوه هناك وكان جليـلاً مهيباً محـتشما بعيد الفكر عظيم البأس ذا غيرة حتى على أتبـاعه وكانت جميع قبائل العربان النازلة بمصر لا يخالفون له كلمـة وكان له معهم سياسة غريبة ومـعرفة بأحوالهم فكأنما هو مربى بين ظهـرانيهم يقـومون ويقعـدون لأمره وهو مع ذلك يصـادرهم فى أموالهم وجمـالهم ويقتل منهم وقد تزوّج من بناتهم كـثيراً ولم يبق منهن فى عـصمته غـير واحدة كانت غـاية فى الجمال فمات عنها ولما شـاع خبر موته بين العربان اجـتمعت بناتهم وصرن يندبنه بكلام عجيب فكانـت تتناقله أرباب المغانى فتغنى به على آلات الطرب.

وبعد موت الألفى بنحو الأربعين يوماً وصلت نجدة الإنجليز إلى ثغر الإسكندرية ونزلوا إلى البـر فبلغـهم خبر مـوته فأرسلـوا رسلهم إلى جمـاعة الأمراء المصـريين يطلبونهم إلى الحـضور ليتكلموا مـعهم فيمـا فيه المصلحة وفى ردهم إلى منـاصبهم وإرجاع إقطاعاتهم إلى ما كـانت عليه وكان محمد على باشا يقاتلهم بالـصعيد فلما علم بذلك خـابرهم فى الصلح وأمر بتـحصين الثغور وترمـيم القلاع وقـيد بذلك جماعـة من كبار العـسكر وخشى عاقبـة حضور الإنجليز إلى الإسكندريـة وقد كان حضورهم فى عمارة عظيمة ونزل الإنجليز بالإسكندرية وأرسل مقدمهم إلى حاكمها يطلب تمكين العساكـر البحرية من دخول الأبراج للدفاع عن الثغر بحـجة أن جيوش الفرنسـيس عائدة لأخذ المدينة عنوة فلم يقبل الحـاكم منه ذلك ولم يمكن الجند من دخول الأبراج وتـرددت الرسل بين أميـرال السفن الإنجليـزية وحاكم المدينة ومـقدم

العسكر المرابطين بالحصون والقلاع وشدد الأميرال فى الطلب وضرب للحاكم أجلاً أربعا وعشرين ساعة فإن أصر على الإباء والعناد ضربت الحصون والقلاع بالقنابل من مدافع السفن فأرسل الحاكم يخبر كتخدا الباشا بجميع ما وقع بينه وبين أميرال السفن الإنجليزية فجمع إليه كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد وتشاوروا فى الأمر فاتفقوا على إبلاغ الخبر لمحمد على باشا واستنهاضه إلى سرعة الحضور إلى القاهرة بمن معه من المحاربين فسيروا له الأخبار بجميع ما جرى وشددوا عليه فى الحضور فلما انقضى الأجل المضروب بين الإنجليز وحاكم الإسكندرية وهو فى الممانعة أطلقوا على الحصون المدافع ورموا الأبراج بالقنابل الهائلة فهدموا ركنا من البرج الكبير وكذا هدموا الأبراج الصغار وجانباً عظيمًا من السور فعند ذلك طلب أهل المدينة الأمان فأمنوهم ودخلت العساكر الأبراج وانتشرت فى المدينة وكانت عدتهم خمسة آلاف مقاتل ونزل أميرال الأسطول إلى المدينة وسكن بوكالة القنصل وأمن أمين أغا حاكم المدينة على نفسه ومن معه من العساكر والأجناد وكتب له عهدا بأن لا تسكن عسكر الإنجليز فى البيوت قهرا عن أصحابها بل بالأجرة والتراضى ولا يمتهنون المساجد ولا يبطلون منها الشعائر الدينية وأن من كان له دين على الحكومة يقبض نصفه من الإنجليز حالاً ومن أراد السفر بحرًا فليسافر فى خفارتهم إلى أى جهة شاءها إلا دار السلطنة العثمانية وأن أهل البلد لا يتكلفون للأسطول بشيء من الميرة أو المال وتبقى المحكمة الشرعية على ما هى عليه من الفصل فى دعاوى الناس حسب الشريعة والسنة ولا ينظر الإنجليز فى دعاوى المسلمين بغير رضاهم وتبقى رعايا الدول الأجنبية حائزة لجميع الامتيازات الدولية المعروفة بين الممالك وبعضها وأن لا يؤخذ شيء من الرسوم الجمركية على جميع البضائع سوى اثنين ونصف فى المائة.

واشتد خوف محمد على باشا من احتلال الإنجليز للأبراج والحصون وكاد يسقط فى أمره وكتب إلى كتخداه بأن يعجل بجمع العسكر ويجهز المعدات وشدد فى ذلك، وسارت طائفة من الجنود الإنجليزية من الإسكندرية إلى رشيد لاحتلالها، وكان من بها من المرابطين والأهالى على يقظة تامة بالأزقة والعطوف وطيقان البيوت فلما صار الإنجليز بداخل البلد أطلقوا عليهم النيران من كل صوب وحدب فارتبك الإنجليز وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا إليهم وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة ذبح الشاة وأسروا الباقين وفرّ جماعة منهم إلى ناحية دمنهور، وكان بها طائفة من الجند وجماعة من العربان فخرجوا والتقوا بتلك الفئة فقتلوا بعضهم وأخذوا من بقى أسيرا وأرسلوا السعاة إلى القاهرة بالبشائر ثم

أرسلوا الأسرى مع رؤوس القتلى من الإنجليز، ونادى شيخ الجامع فى طلبة العلم والمجاورين بالأزهر بترك التدريس وحمل السلاح والتأهب للقتال والجهاد فى الإنجليز وشدد السيد عمر النقيب فى ذلك على العامة فزاد هرج الناس وكثر لغطهم واجتمع المشايخ والأمراء وتشاوروا فيما يجب فعله دفاعا عن البلاد فاتفقوا على تحصين المدينة وفتح الخندق الكبير الذى كان قد أنشأه الفرنسيس عند باب الحديد واعتنوا بإصلاحه قدر الاستطاعة وأكثروا من جمع الأسلحة والكراع وأكثر الوالى من الطواف والنداء بخروج العسكر وتأهب الأهالى للدفاع فلما علم أميرال الأسطول بما حل بعسكره في رشيد سير بعض السفن من مياه الإسكندرية إلى رشيد فأحس أهل رشيد بذلك وأرسلوا السعاة يستنجدون كتخدا الباشا ويقولون عجل فقد أصبح العدو بسفنه على الأبواب وطيروا الخبر بذلك إلى محمد على باشا فتزايد خوفه وذهب صبره وأرسل رسله إلى الأمراء المصريين يستحثهم على الصلح ويستميلهم إلى الاستعداد لطرد العدوّ الزاحف إليهم وما زالوا بهم أيامًا وهم بين إقبال وإدبار ولين وشدة ووعد ووعيد حتى مالوا إلى الصلح فاستوثق منهم وتركهم وانحدر بجيوشه إلى القاهرة ودخلها ليلاً فلما أصبح جمع إليه كبار العسكر وأرباب المناصب وخابرهم فى أمر جلاء الإنجليز وقد جاء الخبر بوصولهم إلى رشيد واستيلائهم على كوم الأفراج وأبى منضور واستمرار إطلاقهم القنابل على المدينة حتى تهدمت أكثر دورها ومات خلق كثير وأن من بها من الحكام وأرباب المناصب يطلبون المدد ويستنجدون المشايخ فطلب محمد على باشا من السيد عمر النقيب أن يفرض على الأهالى فرضة لنفقة الجند قدرها ألف كيس وأخذ فى تجييش الجيوش ونادى فى العسكر بعدم التخلف والخروج لدفع العدوّ وخرج بنفسه ومعه حسن باشا وعابدين بيك وعمر بيك وسار فى طائفة عظيمة من الجند وأرسل إلى الأمراء بالأقاليم القبلية يستنهضهم ويستقدمهم لقتال الإنجليز ويذكر لهم العهد الذى تعهد لهم به ويقول قد صارت الإنجليز على الأبواب فعجلوا بالحضور لدفعهم وإلا فعلى الإسلام السلام فلم يلبوا دعوته وقالوا لسنا على ثقة من عداوة الإنجليز لسلطاننا حتى نقاتلهم وكانوا قد حضروا لنجدتنا بناء على طلب الألفى ثم انحدروا إلى منية ابن خصيب وتربصوا بها وعاد محمد على باشا بعد تغيبه أياما بظاهر المدينة يحض العسكر على الخروج إلى الجهاد ويستنفرهم فلم تكن إلا أيام قلائل حتى جاءت الأخبار بهزيمة الإنجليز وجلائهم عن أبى منضور ومتاريس رشيد والحماد وقد أسر منهم عدة عظيمة وانحاز من بقى منهم إلى الإسكندرية وتحصنوا فيها وقطعوا سد أبى قير فانهمل ماء البحر المتوسط وأغرق ما حول الإسكندرية حتى كادت تسير فيه المراكب الصغار وحضر

الأسرى من الإنجليز إلى القاهرة فأصعدوهم إلى قلعة الجبل فكانوا زهاء الأربعمائة بينهم بعض كبار القواد ففرح الناس بهزيمتهم وتقوّت عزائم الجند المصرى وحضر أيضاً يس بيك أحد أمراء المصريين بعساكره وأقام بالجيزة على عهد الصلح الذى تقرر بينه وبين محمد على باشا ففرح محمد على باشا بقدومه وخلع عليه خلع الرضا وأعطاه ما طلب من متاع وسلاح وجهزه لقتال الإنجليز فعسكر بقومه ظاهر بولاق وطلب العساكر الخارجة عن خدمة محمد على باشا فأتوا إليه من كل صوب وحدب وكبر جيشه واتسعت كلمته فمالت نفسه إلى طلب الرياسة والخروج على محمد على باشا فبث الجباة فى بلاد القليوبية تجمع له الأموال والمغارم والكلف فأحس محمد على باشا بما وراء ذلك وأرسل إليه يطلب سرعة قيامه لقتال الإنجليز والمحافظة على العهد فتقاعس وشغل أمره محمد على باشا فأخذ فى التدبير عليه واستمال العسكر المنضمين إليه وحل عرى رباطهم ورشاهم بالمال والهدايا ونادى فى عسكر الأرناؤط بالخروج جميعًا فخرجوا إلى ناحية السبتية والخندق وحالوا بينه وبين بولاق ومصر وركب محمد على باشا فى طائفة من خواصه وخرج إلى تلك الناحية وحصن أبواب المدينة وأرسل إلى يس بيك يقول: إما أن تستمر على الطاعة وتصرف عنك هذه اللموم وتخرج لقتال الإنجليز وإما أنك ترحل إلى بلادك بلا مهل وإلا فأنا واصل إليك ومحاربك، فخاف يس بيك وانحلت عزائم قومه وتفرق عنه أكثرهم، فلما كان بعد غروب ذلك اليوم طلب الركوب ولم يعلم قومه إلى أين يريد فركبوا جميعًا وساروا قليلاً تحت جنح الليل ثم تفرقوا وتاهوا وذهب كل فريق منهم إلى ناحية لا يعلم له مقر ولم يزل يس فى سراه بمن معه حتى أصبح وقد نزل التبين فسير خلفه محمد على باشا طائفة من الجند لقتاله أما هو فإنه لم يستقر به المقام بالتبين حتى نهب عسكره التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين وخطفوا النساء ونهبوا الأجران وأخذوا ما كان فيها وفعلوا غير ذلك من فعال الشدة ولما أحس بقدوم العسكر ارتحل إلى صول والبرنيل ونزل إبراهيم بيك الكبير وعساكره أيضًا على بنى سويف وأرسل يعلم محمد على باشا بقدومه فلم يلتفت محمد على باشا إلى ذلك ولم يهمه ورسم بترميم القلاع والحصون التى كانت للفرنسيس أيام حلولهم بمصر وبالغ فى التشديد بذلك وقيد بعض مقدمى العسكر بالعمل وحضر من الديار الشامية كثير من العساكر الدلاتلية وبعض المرتزقة من الترك فجهزهم محمد على باشا بالسلاح ومعدات القتال ونادى فيمن كان بمصر والقاهرة من العساكر والأجناد بالخروج إلى انبابة وخرج هو فاجتمع حول وطاقه طوائف العسكر

فلما كان يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف أمر بالارتحال فساروا فى أبهة وكبكبة عظيمة إلى ناحية البحيرة وتربص محمد على باشا بطائفة من أصحابه على مقربة من مدينة الإسكندرية وبعث سفراء إلى مقدم الانجليز يخابرونه فى أمر الصلح فجعل السفراء يترددون بين الفريقين أياما ثم حضر إلى معسكر محمد على باشا نفر من الإنجليز واختلوا به إلى نصف النهار، فلما كان يوم الجمعة غرة رجب الفرد من السنة تقررت بينهم قاعدة الصلح على أصول لم يذكرها أحد من أهل التاريخ ثم استحضر إلى الإسكندرية من كان بمصر من أسراء الإنجليز وردّوا إلى معسكرهم وحضر لزيارة محمد على باشا بمعسكره أمير سفن الإنجليز فى نفر من قواده فأكرم محمد على باشا وفادته وأطلق لقدومهم عدة مدافع وقدّم لهم خيولاً وهدايا نفيسة وأقمشة هندية وشيلانا كشميرية ثم ركب معهم فى قلة من قومه وساروا إلى بيت أمير الجيوش الإنجليزية فأكرموا محمد على باشا وقدموا له الهدايا والطرف من أفخر الصنائع ثم أتموا التوقيع على عقد الصلح وسلموا المدينة وفكوا من كان عندهم من أسرى رشيد وانسحبوا من الأبراج والحصون إلى مراكب البحر، ولبث محمد على باشا بالإسكندرية وقد باتت داخلة فى حكمه بعد أن كانت مع سائر الثغور فى حوزة وتصرف أمير سفن حرب الدولة العثمانية من عهد السلطان سليم إلى ذلك الحين وما زال بها حتى قدم إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث شعبان من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية فخرج العلماء والأمراء للقائه وأطلقت لقدومه المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت المدينة ثلاث ليال ورجع معه حسن باشا طاهر وسليمان أغا وكثير من العساكر والأجناد.

وما استقر به المقام حتى جعل ينظر فى ترتيب أمور البلاد ويعمل على إزالة الوحشة التى بينه وبين من بقى من الأمراء المصريين فسير إليهم من يستميلهم ويحبب لهم ترك القتال والانضمام إلى حاشية محمد على فمنهم من مال إلى المصالحة ومنهم من تجافى وشط فى الطلب وكانت لم تزل الدسائس والفتن قائمة بين الجند وأصحاب الكلمة فيهم، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرى شعبان من السنة اجتمعت طائفة كبيرة من الأرنؤط والعساكر الرومية على بيت محمد على باشا وطلبوا علائفهم فوعدهم فقالوا لا نصبر فلاطفهم فتجافوا وأطلقوا بنادقهم مراراً وأصروا على طلب العلائف ثم انصرفوا وتفرقوا فى القاهرة ومصر فخاف الناس وتطيروا وأرسل السيد عمر إلى أهل الغورية والعقادين والأسواق يأمرهم برفع

بضائعـهم من الحوانيت فـفعلوا وأغلقـوها فلما كـان قبيل الغـروب وصل إلى بيت محـمد على باشا فـريق آخر من الدلاتلية وطالبـوا أيضاً بالعلائف وأطلقـوا كذلك بنادقهم على من بباب مـحمد على باشا فردهم الجند وأطلقوا عليـهم النار فجرحوا منهم عدد فـانكفوا ورجعـوا وبات الناس متخـوفين وأصبح يوم الثـلاثاء والحال فى اضطراب وقد نقلت أمتعة محمد على باشا فى تلك الليلة إلى قلعة الجبل وصعد هو كذلك إلى القلعة وأرسل إلى رجب أغا أحد مقدمى الأرنؤط من يلزمه بالخروج إلى الديار الرومية بلا مهل فأظهر العـصيان وتترس هو وفريق من جنده فى بعض الدور ووقع بينهم وبين عساكـر محمد على باشا قتـال ثلاثة أيام ثم انجلى عن سفر رجب أغا قهراً إلى الديار الرومية. قال بعض كتاب الأخبار: ونزل محمد على باشا وطاف بالمدينة ومـر بناحية سـويقة المعـزى سائرا إلى بيت يلبـغا وهناك المكتـب الذى فوق السبيل بين الطريقين تجاه من يأتى من تلك الناحـية فصعد إلى ذلك المكتب اثنان من الجند يرصدان محمد على باشا فى مـروره فلما أتى مقابلاً لذلك المكتب أطلقا عليه بارودتين فأخطأتاه وأصـابت إحدى الرصاصـتين فرس أحـد الملازمين حوله فـسقط فترجل محـمد على باشا عن فرسه وهو ساكن الجأش ووقـف على مصطبة حانوت هناك وأمر بالقبض على الجنديين فقبضوا عليهمـا فأمر بإخراجهما إلى الديار الرومية فأخـرجوهما فى الحـال، وعاد إلى مخـابرة الأمراء المصريـيـن فأول من أذعن منهم للصلح شاهين بيك الألفى فحضر ونزل بدهشور ومعه هدايا عظيمة من إبراهيم بيك الكبيـر ومحـمد بيك المرادى المعروف بالمنـفوخ برسم محـمد على باشـا وهى نحو الثلاثين حصانا من جياد الخيل ومائة قنطار بن قهوة ومائة قنطار سكر وأربعة خصيان وعشرين جارية سـوداء فلما وصل شاهين بيك إلى دهشور وحضـر من أعلم محمد على باشا بحـضوره أرسل معهم هدية عظيـمة ورافقهم ولده وكاتب سـره ثم انتقل شاهين بيك إلى شـبرامنت واستلم الجـيزة بعد ذلك والقـصر وما حـوله وما به من المدافع وآلات الحرب ودخل القصر وأعطاه محمد على باشا إقليم البهنسا وعشر بلاد من بلاد الجـيزة وكـتب له بذلك تقاسـيط ديوانية وضم له كـشوفـية البـحيـرة إلى الإسكندرية وأطلق له التصرف فى جميع ذلك بلا مـعارض وأكثر من مكاتبة الأمراء بالصعيد وسـلم لهم أمر مقاتلة يس بيك الذى هرب إلى الصعيـد فقاتلوه ونالوا منه وفرقوا جيوشه فانحاز إلى منيـة ابن خصيب وقد نهبت أحماله ودوابه وانصرف عنه أكثر جنده ولمومه وكاد يسقط فى يده.

ولما كان الـثالث والعشـرون من شوال من السنة أى سـنة اثنتين وعـشرين ورد

فرمان السلطان بتأييد ولاية محمد على باشا ووجوب التأهب وإعداد الجند والسلاح لقتال الوهابيين الخارجين بالحجاز ففرضوا لذلك فرضة عظيمة على أهل البلاد وعين من كبار الجند من يقبضها ورسم محمد على باشا بعمارة أسوار وقلاع الإسكندرية وأبى قير والسويس ورشيد ودمياط وبالغ فى العمل وقيد به جماعة وأرسل إلى من كانوا يقاتلون يس بيك أن يشددوا فى حصاره ويمنعوا الواصل إلى مقره ففعلوا وبالغوا فى التشديد فخابرهم يس بيك فى الصلح على شروط اقترحها فقبلوا منه ذلك فاستأمن وصرف من كان عنده من طوائف العربان ثم حضر إلى بولاق وصعد إلى قلعة الجبل فعوّقه محمد على باشا وأراد الفتك به فقام من الأمراء من ترامى على أقدام محمد على باشا فرسم بإخراجه إلى الديار الرومية ثم خلع عليه بعد ذلك وسير معه من يوصله إلى ثغر دمياط ومنها إلى جزيرة قبرص.

واشتغل السلطان عن مصر فى هذا الحين بقيام الفتنة فى القسطنطينية وخروج طوائف الانكشارية عن طاعته وذلك أنه لما أعياه أمرهم وصاروا أشد عداوة للدولة وأعظم ضررا عليها من الأعداء عمد إلى تنظيم عسكر مخصوص على هيئة وترتيب عسكر الفرنسيس واستقدم لذلك قائداً من كبار قوّاد الفرنسيس ففاز ونجح وتم له الأمر أو كاد فلما أحست طوائف الانكشارية بما وراء ذلك تجرّدوا للعداوة وشق عصا الطاعة وأعانهم جماعة من العلماء والمشايخ وأضرموا نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وطلبوا صرف أولئك الجنود المنظمة وشدّدوا فى الطلب فأجابهم السلطان إلى ذلك كارهاً فلم يقفوا عند هذا الحد وطلبوا أشياء أخرى فطاولهم فألحوا فى الطلب فأجابهم إطفاء لنار الفتنة ولكى يتمكن من دفع العدوّ المحدق بالدولة من كل جانب فلما سكنت الفتنة وأخلد المشاغبون إلى السكون سير الصدر الأعظم إلى مدينة شوملة لقتال الروس وكانوا قد تجردوا لقتال السلطان ورسم له أيضاً بإرجاع بعض الولايات التى شقت عصا الطاعة وولى مصطفى باشا قائمقامية الصدارة وكان مصطفى باشا هذا من أعداء النظام الجديد وكان قد مات فى هذه الأثناء مفتى دار السلطنة وكان من أكبر أنصار السلطان سليم على إدخال النظام الجديد فى عسكره فتولى مكانه آخر شديد التعصب لعادات الانكشارية ومذهبهم يكره ذلك النظام ويعدّه بدعة مخالفة للدين فاتفق مع مصطفى باشا وبعض المشايخ وكبار العلماء على إبطاله وتحالفوا على ذلك فدسوا الدسائس وأيقظوا الفتنة النائمة وأضرموا نارها فالتهبت وقام العسكر بعضهم على بعض واقتتلوا قتال الأعداء فمات منهم خلق كثير

واجتمع كثير من العساكر المرتزقة وقدّموا عليهم مقدما منهم فسار بهم حتى أتوا إلى المكان المعروف (بايت ميدان) وقد انضم إليهم جماعة من الانكشارية وغير الانكشارية فأتوا بقدور طعامهم فصفوها أمام صفوفهم وهى عادتهم عند عدم الطاعة وقيام الفتنة وصاحوا بالويل والثبور على أصحاب النظام الجديد ثم أتوا بجميع أرباب الوظائف العالية الذين ساعدوا السلطان على إدخال ذلك النظام فى عسكره إلى ذلك الميدان فقطعوا أعناقهم وقطعوا بعضهم فى الطريق قبل أن يصلوا بهم إلى الميدان ولم ينكفوا عن الضجيج والصياح والفتنة قائمة بمدة يومين حتى أفتى المفتى بخلع السلطان سليم فى الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية. وقال: (لا يصلح للملك من يدخل عادات الفرنجة فى بلاد المسلمين والله أعلم) ففرح العسكر بذلك ونادوا بخلعه وولاية السلطان مصطفى خان الرابع ثم قبضوا عليه ووضعوه فى إحدى السرايات محجورا عليه فكانت سلطنته زهاء العشرين سنة.

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام فى الرياسة نحو أربع وعشرين سنة كلها شدائد ومحن وقد كثرت فيها المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم على ما تقدم بيانه جميعه فى محله فأقيم بعده يوحنا وهو السابع بعد المائة وكان راهباً بدير أنطونيوس واسمه يوسف ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ابن أخيه السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد بويع له بالملك يوم خلع عمه فى حادى عشرى ربيع الأوّل سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط والكلمة للمفتى ومن معه من مبغضى النظام الجديد فتصرفوا فى جميع الأمور وأطاعوا هواهم وولوا الوظائف لغير مستحقيها وسلموا مقاليد القلاع والحصون إلى مقدم الجند الذين ثاروا على السلطان فسكنت الفتنة

وعادت الأمور إلى ما كانت عليه، ووصل الخبر بما جرى إلى العسكر الذين كانوا يقاتلون الروس ففرح جماعة الانكشارية وسروا بقهرهم وقاموا على الصدر الأعظم فقتلوه وولوا بدله چلبى مصطفى باشا فسرى الفساد إلى جميع مصالح الدولة واستولى الخلل على أمورها وعبث بها الأغرار وعاثوا وأفسدوا وقام مقدم أصحاب الثورة بعد قليل على قائمقام الصدارة فخلعه وولى بدله آخر اسمه طاهر باشا فلما استقر بطاهر باشا هذا المنصب وأراد التصرف رأى أنه مغلوب على أمره ليس له من المنصب سوى الاسم والكلمة للمفتى ومقدم الجند أصحاب الفتنة فخلع نفسه ورحل عن القسطنطينية إلى مدينة روستجق ونزل فى جوار حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان مصطفى باشا هذا راغباً فى النظام الجديد وقد جيش منه جيشاً عظيمًا وكان من أنصار السلطان سليم ميالا إلى إعادته إلى عرش الملك فلما استجار به طاهر باشا قويت آماله بإرجاع السلطان إلى عرشه فسير إلى الصدر الأعظم وأصحاب الحل والعقد من يكلمهم فى الأمر ويستميلهم إلى الغدر بالمفتى ومقدم أصحاب الثورة وما زال بهم حتى مالوا إلى ذلك ووافقوه وبرز الحكم من الصدر الأعظم بقتل مقدم الثورة المذكور فركب عليه أحد مقدمى الفرسان وقتله فهاج أصحابه وماجوا وتجردوا للقتال وكان مصطفى باشا البيرقدار قد وصل فى هذه الأثناء إلى ضواحى القسطنطينية فى جيشه المنظم وصار عسكره على مقربة من الأبواب فلما علم السلطان مصطفى بحضوره خشى العاقبة ورسم بخلع المفتى وأمر فنادى فى الجند أصحاب الثورة بالانصراف إلى أوطانهم فلم يلتفت البيرقدار إلى شىء من ذلك وسار بجيوشه حتى وقف أمام باب السراى السلطانية وقد أغلقوه فهم بكسره أو حرقه ثم فتحوه عنوة وعبروا إلى داخل السراى وطلب السلطان سليم وكان محجورا عليه فأخفوه عنه وسير السلطان مصطفى فى الحال جماعة من خواصه فدخلوا على السلطان سليم وضربوه بالخناجر وأحضروه ميتا إلى حيث السلطان مصطفى فقال: سلموه إلى هذا وأشار إلى البيرقدار وقال: (ها هو سلطانك الذى تطلبه منا اليوم) فلما رآه البيرقدار بكى بكاء مرا وشاع قتل السلطان سليم بين الجند فهاجوا وماجوا وكثر ضجيجهم واشتدت الفتنة ونادوا بخلع السلطان مصطفى ثم قبضوا عليه وسجنوه فى المكان الذى قتل به السلطان سليم وذلك فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته بضعة أشهر وولوا الملك بعده لأخيه السلطان محمود الثانى وهو فى عنفوان الشباب وغضاضة السن.

(الفصل الحادي والعشرون)

(فـــي سلطنة السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان مصطفى أخـوه السلطان محمود الثانى بويع له بالملك يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمـانمائة وألف ميلادية ووردت الأخبار بذلك إلـى مصر فقام مـحمد على باشـا بمظاهر الاحتـفال وزينت المدينة ثلاث ليـال وخطبوا له على المنابـر بمصر والقاهرة وسائر المدن القبلية والبحرية واسـتوزر السلطان محمود الوزير مصطفى باشا البيرقـدار وسلمه ختم الصـدارة وصرّفه فى جميـع الأمور فأحكم السيـاسة وأحسن التدبير وجـعل يعمل على إخضاع طوائف الانـكشارية وإيقافهم عند حـدهم فجمع يوماً جمـيع كبار الدولة وأصحاب المناصب العـالية والعلماء والمشايخ وعقـد مجلسا حافلاً وكلمهم فـيما تلاقيه الدولة بسبب خروج الانكشارية وعـدم وقوفهم عند حد رسومـهم وعاداتهم القـديمة وبالغ فى الشكوى وعظم فى البلوى وسـألهم اجتـماع الكلمـة على دفع هذا الفـساد ومنع تـطاول أيدى أولئك القوم إلـى العبث بمصـالح الدولة التى استحوز عليها الفشل وتولاها الخلل فأجابوه إلى ذلك ووافقوه على أخذ فتـوى من مفتى دار السلطنة بوجوب رجـوع طوائف الانكشارية فى جمـيع أمورهم إلى رسـومهم وعاداتـهم القديمـة فقـويت بذلك عزيمـته واشـتد أزره وعمـد إلى إخضاعهم فأخضعهم وألبسهم ثيـاب الذل وتصرف فيهم فخاف عليه بعض أصحابه وحـذره من مكرهم وغدرهم فلـم يلتفت إلى ذلك وبالغ فـى التشـديد وأكثـر من الوعيـد، فلما ضـاق بهم الخناق وأيسوا من الخـلاص أثاروا الفتنة فى مدينـة فليبى وأظهروا العصـيان فسير لقتـالهم جيشه المنظم ولم يبق معـه سوى زهاء أربعة آلاف وبعض العساكر الأخرى وبالغ فى الشدة عـلى من بالقسطنطينية من الانكشارية فلما كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وعـشرين أجمعوا أمرهم وتحزبوا وساروا إلى مقر السلطان مصطفى المعزول وانبثوا حوله وهموا بإخراجه وإرجاعه إلى عرش السلطنة فركب عليهم مـصطفى باشا البيرقدار فيمن بقى من عـساكره وقاتلهم قتـالاً عنيفاً فـلم يقو على ردهم وأحس بالهـزيمة لكثرة العـدو فسيـر إلى السلطان مصطفى المعزول من قتلـه وأمر بجثته فألقوها من أعلى السـراى إلى أصحاب الثورة كى لا يتـمكنوا من إرجاعـه إلى عرش السلطـنة فلما رأوا السلطان على هـذا الحال

اشتد هياجهم وعلا ضجيجهم وأضرموا النار فى سراى السلطان مصطفى ليهلك فيها البيرقدار بالحريق وقيل بل أضرموها فى سراى البيرقدار وأفحشوا فى الحرق والهدم والنهب واختفى البيرقدار فى سرداب فلم يعثروا عليه وكان لما اشتبك القتال بين عسكر البيرقدار والانكشارية أدخل أمير سفن الحرب ثلاثاً من السفن إلى بوغاز القسطنطينية ووجه أفواه مدافعها نحو منازل الانكشارية ورمى عليها بالقنابل رميا متتابعا ثم نزل بطائفة من عسكره أيضاً وسار لنجدة البيرقدار وكذلك سار لنجدته أحد مقدمى العساكر المنظمة فلم يفلحوا إذ كان الأنكشارية قد تمكنوا من حرق السراى فأعملوا السيف فى الانكشارية وأخذوهم من كل صوب وحدب حتى انهزموا وولوا الأدبار فانحدر جماعة منهم إلى بيوت الناس فأضرموا فيها النار فعلا اللهيب واشتد وخاف السلطان وهاله الأمر وتحقق دمار جميع المدينة وطمس معالمها فنزل من مقره إلى الباب الموصل إلى البحر ونادى بقتال الأنكشارية فقاتلوهم قتالاً عنيفًا وأكثر الانكشارية من حرق الدور والأبنية العظيمة فانهال اللهب إنهيال السيل والتهبت أكثر دور المدينة فدمرتها وعلا صياح النساء والأطفال من كل ناحية وهب الناس من مضاجعهم مذعورين فصاح السلطان وشدّد على الجند بالقتال وذبح كل من وجدوه يعاون على الحريق وهو مع ذلك محصور فى سرايته يوما وليلة فلما أشتد الحال وضعفت من خلاص المدينة الآمال سير السلطان إلى كبار الانكشارية من يخابرهم فى أمر الصلح وترددت الرسل بينهم فانكفوا عن الحريق وأخذوا فى إطفائه ودخل جماعة من الانكشارية إلى حيث مصطفى باشا البيرقدار فأخرجوه من تحت الردم ميتا وعلقوه فى شجرة ومثلوا به تمثيلاً وسكنت بعد ذلك الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه فاستوزر السلطان الوزير ضيا يوسف باشا الذى كان حضر إلى مصر لقتال عساكر بونابارته وكظم غيظه وجعل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها.

وكانت هذه الفتنة وما نجم عنها من اختلال نظام الدولة وسقوط هيبتها وغل أيدى السلطان عن أن يأتى بأى أمر أراده وتفاقم شر طوائف الانكشارية كل هذا جعل محمد على باشا فى مأمن من جانب السلطنة ومكنه ذلك من منصب الولاية فتجرد للعمل وسار عن القاهرة إلى الأقاليم البحرية وقد طلب الكلف اللازمة لذلك وفرضها على البلاد فكتب إليه الرزنامجى يقول إن الخراب ضارب أطنابه على أكثر البلاد بأسباب المحن المتوالية فلا قدرة لأهلها على دفع شيء الآن فلم يرض محمد على باشا من الرزنامجى بذلك وجاب البلاد شرقاً وغرباً ومعه الكتاب وبعض

المباشرين ثم رسم بتحرير سجل مخصوص يشمل عدد ما يوجد من البلاد التى لا قدرة لأهلها على الزرع فحرروا سجلاً بها فأقطعها لأولاده وذوى قرابته وجمع إليها من تشرد من أهلها وصار من هذا الحين إذا تأخرت بلده عن القيام بما يفرض عليها أقطعها إلى رجال الدولة أو أحد أولاده أو ذوى قرابته وسميت الإقطاعات من يومئذ أى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أو نحوها (بالعهد) ثم جعل ينظر فى احتياجات البلاد وفى ترتيب أمورها على ما فيه المصلحة واهتم بذلك كثيراً فكاد يتم له الأمر لسكون الأمراء المصريين واستقرارهم بالصعيد الأعلى وعدم قيام الفتنة.

فلما كان أوائل سنة أربع وعشرين ورد فرمان السلطان بالعودة إلى جمع العساكر والسلاح لقتال الوهابيين وكانوا قد خرجوا بالحجاز فعاثوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا ومنعوا الحج وأظهروا البدع والخروج عن السنن والعبث بالشريعة وهم أصحاب عبد الوهاب الدرعى، وعبد الوهاب هذا رجل من العرب ولد فى الدرعية من بلاد الحجاز وتعلم مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ثم سار إلى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ منهم حتى غرزت مادته وتضلع من علم أصول وفروع الشريعة لاسيما تفسير القرآن ثم قفل راجعاً إلى بلاده فى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية فلما استقر به المقام جعل يقرر مذهب الإمام أبى حنيفة ثم اجتهد واستقل وقرر له مذهبا مخصوصا وألقاه على تلامذته فاتبعوه وعملوا به وكثر مريدوه وشاع أمره فى نجد والقطيف والأحساء وكثير من بلاد العرب كبنى عتبة من أرض اليمن وعمان وغيرهما لمذهبه هذا قواعد وشروط مخصوصة يعلم بعضها من رسالة ذكرها صاحب الخطط التوفيقية نأتى بها هنا تتميما للفائدة.

قال: اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** فإذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة فأعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك فسدت كالحدث إذا دخل فى الطهارة كما قال الله تعالى: **﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون﴾** فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب خير أو دفع ضر فقد أشرك فى العبادة كما قال الله تعالى: **﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾** وقال تعالى: **﴿والذين تدعون من دونه**

ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو يابن عباس أو ياعبد القادر زاعماً أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه فهو المشرك الذى يهدر دمه وماله إلا أن يتوب من ذلك، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجىء إلى غير الله فهو أيضًا مشرك، وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وهو الذى قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم بإخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصبح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى فى كتابه، أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ وقوله تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ إذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الأمر فأعلم أنهم بهذا أقروا ثم توجهوا إلى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا، القاعدة الثانية، أنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وقال الله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون أن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾ وإذا عرفت هذه القاعدة فأعرف القاعدة الثالثة، وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ ورسول الله لم يفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله وإذا

عرفت هذه القاعـدة، فاعرف القاعدة الرابعة، وهـى أنهم يخلصون لله فى الشدائد وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿فإذا ركبـوا فى الفلك دعوا الله مخلصـين له الدين فلما نجـاهم إلى البر إذا هم يشـركون﴾** وأهل زمـاننا يخلصـون الدعاء فى الشـدائد لغير الله فـإذا عرفت هذا، فاعـرف القاعدة الخامـسة، وهى أن المشركين فى زمـان النبىّ أخف شركا من عقلاء مشـركى زماننا لأن أولئك يخلصون لله فى الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخـهم فى الشدائد والرخاء، والله أعلم بالصواب انتهى بنصه.

ووردت الأخبار بخروج الصـدر الأعظم يوسف باشا من دار السلطنة فى جيش عظيم لقتال الـوهابيين وخروج آخر اسمـه سليمان باشا من مدينـة بغداد فى عسكر أيضاً لقتالهم فـجعل محمد على باشا يتأهب للخروج ورسم بتـحصين قلاع القلزم وتعبيتها بالأسلحة وآلات الحرب وأكثـر فيها من المؤنة والماء وقيد بها طائفة من الجند حتى صارت على قدم الاستعداد وأنشـأ على ساحل بولاق معملا لمد السفن وصنعة النجـارة سماه التـرسخـانة وعمل السـفن والشوانى الكبـيرة وجـمع لذلك الصناع والنجارين والحداديـن فكانوا يهيئون الأخشـاب ويصلحونها ويحملونـها على ظهور الجمال إلى السويس فيضمون بعضها إلى بعض وينزلونها إلى بحر القلزم فعملوا من ذلك أربع سفـن كبيـرة وعدة سـفن صغيـرة وشحنوها بالآلات والمهـمات الحـربية فصارت على أهبة السفر إلى الأقطار الحجازية وأظهر محمد على باشا الاهتمام بهذه الحـملة، فبـينما هو علـى هذا الحال من جـمع الجند وآلات الحرب إذ جـاءه الخبـر بانحدار الأمراء المصريين إلى الجيـزة وأنهم نصبوا خيامهم خارجها ومـعهم كثير من العربان والهوارة ولموم أخر وأنهم يريدون حضور مـحمد على باشا لملاقاة من تعاهد منهم على الصلح فلم يلتفت محمـد على إلى ذلك ولم يحضر ولم يرسل أحدا من قبله فى ذلك اليـوم فساء ذلك إبراهيم بيك الكبـير وعدها إهانة له ولأصـحابه ومن حضر مـعه على العهد من الأمـراء فلما كان ثانى يوم عبـر شاهين بيك الألفى إلى شبرى واجـتمع بمحمد على باشـا وعاتبه وأغلظ عليه القول ثـم نزل من عنده وعبر النيل إلى الجيزة وأمـر فنقلوا متاعه وجـميع أثاثه ونساءه وسيرّهـنّ إلى الفيوم ونسى محاسن القصر الذى كان يسكنه بالجيزة وانضم إلى إبراهيم بيك الكبير وبقية الأمراء وخالف العهد وكفر بالنعمة وجمع إليـه مماليكه وأتباعه وعساكره ونصب خيامه على مقربة من خـيامهم ورتبوا الأمر بينهم وقـسموا مواقف الحرب والقـتال واختص كل فريق منهم بجهة وجاء الخبر بذلك إلى محمد على باشا فسير إليهم يلاطفهم ويطيب

خواطرهم فلم يقبلوا وتجافوا وأغلظوا فى القول ورموه بالخديعة وشاع الخبر بذلك بمصر والقاهرة فخرج إليهم أيضاً من كان مختفيا من العساكر والأجناد المصريين وعبروا النيل إلى الجيزة فكثرت لمومهم وكبر جيشهم فاستعظم محمد على باشا الأمر وخشى العاقبة فأخذ فى التجهيز ونادى فى عسكره بالخروج فعبروا النيل وهو فى مقدمتهم ونزل بقصر الجيزة وتحققت المفاقمة وتحصن الأمراء خلف السور ووقفت أمامهم عساكر محمد على باشا ولبثوا على هذا الحال إلى ثانى يوم ولم يقع بينهما ضرب ولا قتال ثم ترفع المصريون إلى ناحية دهشور وزنين فأمسك عليهم محمد على باشا الطرق ومنع عنهم المواصلات وشدد فى المنع وبث العيون والأرصاد واستمال من كان معهم من عربان أولاد على وغيرهم وأمنهم فتركوهم وأتوا إليه خاضعين فأحسن إليهم وردهم إلى أوطانهم وسير طائفة من العسكر لقتال شاهين بيك ومن معه فالتقوا بهم عند صول والبرنبل وقد جعلوا بها المتاريس ونصبوا عليها المدافع فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس وقد مات من الفريقين خلق كثير وأنقسم الأمراء المصريون إلى قسمين قسم عبر النيل إلى شرق أطفيح وقسم قفل راجعاً إلى الجيزة لقتال المرابطين بها وإبعادهم عنهم فلم ينالوا منهم أربا وجعل محمد على باشا يستميل من كان مع شاهين بيك من الأمراء المصريين والكشاف وما زال بهم حتى تخلوا عن شاهين وانحازوا إلى عسكر محمد على باشا فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضاء وشاع خبر رجوعهم عند أصحاب شاهين فزالت لذلك هيبته وسقطت كلمته ورجع من كان على قدم الطاعة إليه والانضمام إلى عسكره وقام عليه أهل البلاد التى كانوا يمرون بها ومنعوهم من ضرب المغارم وأخذ الكلف وطردوا المعينين لذلك من قبله وكادت تتلاشى سطوته وتتفرق كلمة من كانوا معه وأحس محمد على باشا بانصرام حزمتهم فشدد فى مطاردتهم وضيق عليهم من كل صوب وحدب وأرتحل بعساكره من الجيزة ومعه ولده الأمير طوسون إلى جزيرة الذهب ثم ساروا منها إلى الصعيد فكان كلما اقترب من منازل المحاربين انسحب من جموعهم العدد الكثير وانحازوا إليه وقدموا له الطاعة، فلما كان يوم السبت عاشر رجب سنة خمس وعشرين التقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفًا فاستظهرت عساكر محمد على باشا على الأمراء وأبلوا فيهم بلاء حسنًا فترفع الأمراء إلى الصعيد وتبعتهم الجيوش المصرية فلما رأى جماعة الألفى أنهم مأخوذون استأمن منهم طائفة كبيرة وتتابعت انتصارات محمد على باشا وضعفت عزيمة الأمراء المصريين فكانوا كلما اقترب العسكر من منازلهم تركوها وترفعوا إلى الصعيد وبينما هو على هذا

الحال إذ جاءه الخبر بقدوم رسول من جانب السلطان بفرمان وأنه نزل بقصر شبرى من ضواحى القاهرة فانحدر محمد على باشا إلى القاهرة على عجل وصعد إلى قلعة الجبل وطلب إليه الرسول فقابله برهة لطيفة شاع بعدها الخبر بأن السلطان راغب فى سرعة قتال الوهّابيين والتعجيل فى تسيير العساكر المصرية لقتالهم فأظهر محمد على باشا الاهتمام بذلك وأمر بالتأهب والاستعداد وأكثر من جمع العساكر ونادى فيهم بالخروج فأجتمعوا عند قبة العزب ونزلوا هناك أيامًا حتى يتم خروجهم وقد سلم قيادهم إلى ولده الأمير طوسون ثم نادى مناديه باجتماع الأمراء وسائر أرباب الوظائف ورجال الحكومة فى قلعة الجبل ليركبوا فى غد بتجملاتهم وزينتهم ويسيروا أمام موكب الأمير طوسون عند خروجه بعسكره إلى مدينة السويس.

(مطلب)

(قتل أمراء العسكر المعروفة بقتل الغز)

فلما أصبح يوم الجمعة سادس صفر سنة ست وعشرين ومائتين وألف ركب جميع الأمراء والكشاف وصعدوا إلى قلعة الجبل فى مماليكهم وأتباعهم وأجنادهم بتجملاتهم وزينتهم ودخل الأمراء منهم على محمد على باشا وتحادثوا ساعة وهو يظهر لهم غاية البشر والإيناس ثم أمر فسار الموكب على الوضع الذى رتبوه فكانت طائفة الدلاة فى المقدمة ومن خلفهم طوائف العسكر المشاة والفرسان وأرباب المناصب وكان محمد على باشا قد أطلع حسن باشا وصالح جوق والكتخدا على ما فى نفسه من الغدر بالأمراء المصريين وقطع شأفتهم وأسرّ بذلك أيضًا فى صبح اليوم إبراهيم أغا أغات الباب فلما سار الموكب من باب العزب وفرغ طائفة الدلاة ومن كان معهم من الوجاقلية وانفصلوا من الباب المذكور أشار صالح جوق فأغلقوا الباب وعرف أصحابه بالمراد فأطلقوا فى الحال نيرانهم على المصريين وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر من الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب ما بين الباب الأعلى الذى يتوصل منه إلى رحبة سوق القلعة إلى الباب الأسفل، وهو مشاهد إلى يومنا هذا، وقد كانوا أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على الجدران التى بذلك المضيق فلما أطلقت البنادق من الواقفين عند الباب همّ الأمراء بالرجوع إلى الوراء فلم يتمكنوا من ذلك لتكاثر الخيل من خلف وقد أخذهم ضرب البنادق من خلفهم أيضاً واشتدت عليهم النيران وتتابعت وسمع العسكر الواقفون بالأعالى فأطلقوا نيرانهم أيضًا فلما نظروا ما حل بهم سقطوا فى أيديهم وارتبكوا ووقع منهم قتلى كثيرون وترجل أكثرهم عن خيولهم واقتحم شاهين بيك الألفى وسليمان بيك

الأبواب فى عدة من مماليكهم راجعين إلى فوق ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة وساروا والسيوف فى أيديهم حتى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وهى قاعة صلاح الدين يوسف وقد قتل أكثرهم برمى البنادق وأصيب شاهين بيك وسقط على الأرض فانقضوا عليه وقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى محمد على باشا وكان محمد على باشا عندما ساروا بالموكب قد دخل إلى بيت الحريم وهرب سليمان بيك البواب وتسلق إلى حائط البرج الكبير فأصابوه برمى الرصاص فسقط فاحتزوا رأسه أيضاً وهرب كثير إلى بيت الأمير طوسون مستجيرين فلحقوهم وقتلوهم وأسرف العسكر فى القتل وتتبعوا الشاردين فى نواحى القلعة وقبضوا على من لم يكن فى الموكب أيضًا وقتلوهم فى تلك الليلة واستمر القتل يوم الجمعة بطوله وليلة السبت ويوم السبت فكان المنظر مخيفاً للغاية والأرض مغطاة بالجثث والأسلحة وثياب القتلى، وأنفذوا إلى كشاف الأقاليم بقتل جميع من يوجد عندهم من طوائف المماليك وفوض محمد على باشا أمر ذلك إلى كتخداه فبالغ فى البحث والتفتيش عليهم بالجهات القبلية والبحرية ونزلت العساكر إلى بيوت الأمراء فنهبوا ما فيها وسبوا النساء وأفحشوا فى القتل وإخراج المخدرات حاسرات الرؤوس وركب محمد على باشا ونزل من قلعة الجبل فى ضحوة يوم السبت وحوله أمراؤه الكبار مشاة وأمامه طائفة الصقاشية والجاويشية بزينتهم ولباسهم الفاخر مشاة وهو راكب على فرس وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة أخرى ونادى مناديه بمنع النهب وأمر بقتل من يضبط ومعه شيء من المنهوبات فانكف الجند وامتنعوا، وسير الكشاف برؤوس القتلى من المماليك ممن كانوا بالمدائن والقرى بالأقاليم القبلية والبحرية فكانت شيئاً كثيراً جداً. قال بعض الكتاب: فلم ينج من طوائف الألفية إلا اثنان وهما أحمد بيك زوّج أبنة إبراهيم بيك الكبير فقد كان غائبًا فى بلدة بوش. وثانيهما أمين بيك وقيل إنه ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده من السور المجاور لقاعة الأعمدة إلى ميدان الرميلة فمات جواده ونجا هو وهرب إلى الديار الشامية فكانت عدة من مات من المماليك فى هذه الوقعة زهاء الأربعمائة ومن الأتباع والكشاف وغيرهم زهاء الستمائة وبينهم مرزوق بيك بن إبراهيم بيك الكبير فوجدت عليه أمه وجدا عظيماً وطلبت جثته فأخرجوها من بين القتلى فدفنت فى مدفن أعدته له، ووصل الخبر بما وقع للأمراء المصريين إلى أحمد بيك الألفى وهو ببوش فسار من فوره إلى الصعيد الأعلى واجتمع بمن فيه من الأمراء وأعلم إبراهيم بيك الكبير بما جرى لولده مرزوق فحزن حزناً عظيما ولبسوا جميعًا السواد وجلسوا للعزاء وما زال القتل متتابعا فيمن يعثرون عليه من طوائف المماليك شرقا وغرباً وفى أصحاب البيوتات القديمة منهم

حتى كادوا يمحون أثرهم فأرسل إبراهيم بيك ومن معه يطلب من محمد على باشا الأمان وأن يرسم لهم بالجهة التى يعيشون فيها فلم يرد عليهم جواباً وأرسل لقتالهم مصطفى بيك فى طائفة كبيرة من عسكر الأرنؤط واهتم بعد ذلك بتعبية الجند والسلاح لقتال الوهّابيين، وكأنه قد تفرغ لذلك فجمع منهم طائفة عظيمة وعقد لأبنه لواء الأمير طوسون هذه الحملة فلما كان يوم الأحد سادس ربيع الأوّل سنة ست وعشرين نزل الأمير طوسون بجيشه من قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه المدافع وآلات الحرب وعسكر ببركة الحاج وأقام بها حتى تكامل جيشه وسافر محمد على باشا إلى السويس وقد سير ما كان فى ميناها من السفن ومراكب الحرب فسارت إلى الينبع وتقاتلت مع من بها من الوهّابيين ونالت منهم ثم سار الأمير طوسون بجيشه من البركة فى يوم الخميس التاسع من رمضان هذه السنة فوصلوا فى السابع من شوال إلى بندر المويلح وعيدوا العيد بمقابر شعيب يوم السبت، ثم ساروا إلى الينبع وملكوها من غير قتال وساروا إلى منزلة الصفراء والحديدة فوجدوا فيها عند سفح الجبل متاريس فقاتلوا عليها حتى أخذوها ثم تسلقوا الجبال فالتقى فريق منهم بجيوش الوهابيين فانتشب بينهم القتال وثابروا عليه يوماً وليلة ثم انجلى عن هزيمة المصريين فرجعوا القهقرى واختل نظامهم وتبدد شملهم وطلبوا السفن وكان قد حضر منها بساحل البريك عدة مددا فلحقوا بها وتزاحموا عليها وتفرقت دواب الحمل وتشردت وترك الجنود خيامهم وسلاحهم مع جميع متاعهم وكانت وقعة من أشد الوقائع ورجع الأمير طوسون إلى ينبع بعد تغيبه يوماً عن معسكره وقد ظنوا موته ولبث بينبع أربعة وعشرين يوماً حتى جمع شتات عساكره المشاة أما الفرسان فقد رجعوا إلى الوراء وما زالوا حتى وصلوا إلى المويلح وقد أجهدهم الجوع وأضناهم الوصب فنزلوا بها ووردت الأخبار بما حصل إلى محمد على باشا فلم يتزعزع ولم تفتر له همة ونادى فى العسكر المقيمين بمصر والقاهرة بالخروج وشدد فى النداء وبرز إلى ضواحى القاهرة وخرج العسكر فرتبهم وعقد لواءهم لبونابارته الخازندار فساروا إلى الينبع ليرابطوا بها وجيش جيشاً آخر وعقد لواءه لصالح بيك السلحدار وجعل معه جماعة من الكشاف واستقدم من كان مع الأمير طوسون فحضروا فأمرهم بالجلاء عن مصر والرحيل إلى بلادهم فلم تسعهم المخالفة وخرجوا فى عدة كبيرة من العساكر الأرنؤط وخرج بنفسه لقتال الوهابيين والأخذ بثأر من مات من رجاله فسار بجيش عظيم ومعه حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك فلم يسر مرحلة عن القاهرة حتى وردت إليه الأخبار فى ثانى يوم باستيلاء من بقى من

المصريين على عقبة الصفراء والحديدة بغير حرب ولا قتال وأنهم لم يجدوا فيها أحداً من الوهابيين ففرح بذلـك وسار إلى السويس ولبث فيها أياماً وقـد عدل عن المسير إلى الحجـاز فعجل بتـسيير الجيوش التى كانت مـعه برا وأنزل طائفـة منهم بالسفن والشوانى وسير كذلك مصطفى بيك والى باشا بجميع عساكر الدلاتلية ومعهم شيء كثير من المؤن وآلات الحـرب وعاد إلى مصر فلما دخل القـاهرة وردت إليه الأخبار بوصول عساكره إلـى المدينة وأنهم نزلوا بفنائها وقد أحضر المبشر بهذا الخـبر مفاتيح المدينة فزينت لذلك البـلد ثلاث ليال أولّها يوم الخمـيس ثالث عشر ذى الحـجة سنة سبع وعشـرين ومائتين وألف هجريـة فأرسل المفاتيح مع رسول مـخصوص إلى دار السلطنة.

وبينمـا كان بعض عسـاكره يقـاتل الوهابيين ويسـترد منهم مـا ملكوه من بلاد الحجـاز كان البعض الآخر يطـارد أيضًا من بقى من الأمراء المصـريين حتى أجلوهم عن الصعيد وما زالوا على أثرهم حتى ترفعوا إلى النوبة ودخلوا إبريم فقطعوا عنهم الواصل وسدوا عليهم المسالك وقبضوا على كثير من أتباعهم وقتلوهم وما زال يشدد فى تتبعهم بالقـتل والتشريد حتى أمن شرهم فأمّر ولده إبـراهيم على جميع الأقاليم القبلية وأطلق له فيـها التصرف وأخذ هو فى تدبير أمور البلاد فـأكثر من المشروعات المهمة والأعـمال المفيدة كحفـر الترع وترميم الجسور وإنشاء الحـصون والمعاقل بمدينة الإسكندرية، وبعضها باق إلى هذا اليوم، وأنشـأ المعامل العظيمة لمد السفن ومراكب الحرب وهيأ عمارة حربية عظيمة وسلحها بالمدافع وآلات القتال وسير منها عدة كبيرة مددا إلى ولده الأمـير طوسـون وكان يظن ذهاب شـوكة الوهابيـين وسقـوط كلمة زعيمهم الأمـير سعود وقد كان الأمـير سعود هذا قد انكف عن قتال عسـاكر الأمير طوسـون حينا وترفع بقـومه إلى بعـض الجبـال ولكنه عاد فى سنة ثمـان وعشـرين ومائتين وألف فـهاجمهم بعدة كثيرة من أصحابه ناحية طراباى شـرقى مكة فملكها وكانت شـدة القيظ قد فـعلت بالعسكر المصرى فـعلاً رديئًا جـدا ثم سار إلى المدينة وملك جميع أرباضها والقرى المجاورة لها وأفحش فى النهب والسلب وقاتل من بها من العساكر المصرية وضيق عليها ومنع عنها الواصل فكان كل من هرب من الحصار وقفل راجـعاً إلى الوراء قبـضوا عليه وقتلوه ووصلـت الأخبار بما جرى فـشق الأمر على محمد على باشا وأعظمه وجيش جيشا عظيمًا وخرج به من القاهرة يوم الجمعة ثالث عشر شوّال سنة ثمـان وعشرين ومائتين وألف ونزل ببركـة الحاج ثم سار منها إلى السويس فلاقـاه المبشرون فى الطريق وبشروه بسـقوط عثمان المـضايفى فى أسر

الأمير طوسون وكان المضايفى هذا قد خرج فى لموم كثيرة لقتال من بالطائف من العسكر المصرى فبرز إليه الشريف غالب بالعسكر المصرى وطوائف العربان وقاتلوه واشتد القتال بين الفريقين فأصيب جواد المضايفى فنزل عنه واختلط بالعسكر فلم يعرفوه فخرج من بينهم هاربًا فصادفه جماعة من جند الشريف غالب فعرفوه وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدى الشريف أمر فقيدوه بالحديد وسير به إلى الأمير طوسون. قال بعض كتاب الأخبار: والمضايفى هذا زوّج أخت الشريف خرج عنه وانضم إلى الوهابيين فكان أكبر عون لهم وكان هو الذى يستميل لهم طوائف العربان فنما لذلك أمره واشتهر ذكره فدوّخ المدن وفتح منها عدة كثيرة وافتتح الطائف وله وقائع وحروب مشهورة أضربنا عن ذكرها هنا.

ولما وصل محمد على باشا إلى ينبع سير طلائع عسكره إلى المدينة فناوشوا من كان حولها من أصحاب الوهابى وأجلوهم عنها فنزل عليها محمد على باشا وأدّى فريضة الحج ثم أخذ فى تدبير أمور الحملة ومال إلى الشريف غالب وأظهر له الولاء والمحبة فانخدع الشريف وبقى معه على ذلك أياماً ثم قبض عليه هو وثلاثة من أولاده وسيرهم مع نفر من الجند إلى جدة وأنزلوهم بإحدى السفن فأقلعت بهم إلى مصر عن طريق القصير، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر أنه لما وصل محمد على باشا إلى مكة جدد العهد مع الشريف غالب وحلفا الأيمان فى جوف الكعبة بأن لا يخون أحد صاحبه ولا يغدر به ولا يعمل على إيذائه فكان بعد ذلك يذهب كل منهما إلى الآخر فى قلة من أصحابه واستمرا على هذا الحال زهاء خمسة عشر يوماً من ذى القعدة فلما كان أحد الأيام دعا الأمير طوسون الشريف غالب إلى بيته فأتاه فى قلة على عادته فلما اقتحم الدار رأى فيها من العساكر والأجناد ما رابه فصعد متخوفاً فلما استقر به المجلس حضر عابدين بيك فى نفر من الجند وصعد إلى المجلس ودنا من الشريف وأخذ خنجره من منطقته وقال له قم قد بعث سيدنا ومولانا أمير المؤمنين فى طلبك إلى دار السلطنة فقال على السمع والطاعة ولكن لى أشغال أقضيها فى ثلاثة أيام فقال لا سبيل إلى ذلك وقد أعددنا لك سفينة لتحملك فلما سمع جماعة الشريف وعبيده هذا القول تحزبوا وأسرعوا إلى الأبراج التى هى مقر الشريف يريدون القتال فأرسل محمد على باشا يتهددهم بحرق المدينة إن هم فعلوا شيئاً وأرسل الشريف كذلك ينهاهم عما عزموا على فعله وكان أولاد الشريف الثلاثة فى بيت له فأرسل إليهم محمد على باشا أحد خواص الشريف وما زال يخادعهم حتى انخدع كبيرهم فنزل بهم متحفظًا إلى مكان وفى الحال استحضر

محمد على باشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه وقلده إمارة مكة ونودى بذلك وطيروا خبره إلى الآفاق وأقام الشريف غالب أربعة أيام ثم أنزل إلى سفينة فسارت به إلى القصير ومنها إلى القاهرة فاستقبله كتخدا الباشا بالاحتفال والاحتفاء وأطلقت لقدومه المدافع وأنزلوه ببيت السيد المحروقى أياماً ثم أعدوا له دارا أخرى وأسكنوه بها وجعلوا الجند على بابه تحرسه ثم قدم بعده أيضاً ولد أخيه الشريف عبد الله بن الشريف سرور مبعدًا منفياً فأنزلوه فى دار مخصوصة محجورًا عليه ولم يجتمع بعمه ولم يره قيل وكان هذا كله بأمر من دار السلطنة فكادت لذلك تنصرف عن الأمير طوسون طوائف العربان الذين أتوا بكلمة الشريف غالب وتقاعسوا عن القتال معه وفترت همتهم وأنفشلوا وهاجر الكثير منهم ومن الأشراف وانضموا إلى الوهابيين وقاتلوا جيوش الأمير طوسون قتالاً عنيفًا وأبلوا بلاء حسنًا فوقع بأسباب ذلك فى الحرمين غلاء شديد وقل الوارد من الحبوب والدقيق واشتد الجوع وهاجر الفقراء إلى الجبال فكانت شدة عظيمة جدًا، ومات فى هذه الأثناء سعود شيخ الوهابيين فولى الوهابيون ولده عبد الله مكانه وكان يظن انفشالهم بعد موته ووردت الأخبار بذلك إلى الأمير طوسون ففرح وأمر عساكره فزحفوا إلى ناحية (قنفده) وحاربوا عليها أياماً كثيرة حتى فتحوها وأستولوا عليها ووصلت الأخبار إلى دار السلطنة بوقوع الشريف غالب فى أسر المصريين فحضر منها قاصد يخبر بوجوب جمع ما أخذ من الشريف ورده إليه من متاع ومال وذخائر وكان محمد على باشا قد أرسل إلى دار السلطنة من ذخائر الشريف مسبحتين من لؤلؤ فاستحضرهما معه ذلك القاصد وردهما للشريف فلما كان يوم السبت تاسع عشرى شعبان سنة تسع وعشرين أنزلوا الشريف غالب إلى بولاق بنسائه وأولاده وغلمانه وعبيده فسافروا مع القاصد إلى دمياط ومنها إلى سلانيك وأرسل محمد على باشا فى طلب الشريف عبد الله بن سرور إلى الديار الحجازية وكانوا قد شددوا فى الحجر والتضييق عليه وكان لما حضر إلى مصر وأقام محجورا عليه أيامًا رأى كتخدا بيك عدم المانع من إخلاء سبيله يغدو ويروح فى الشوارع وعند المعارف والأحباب واستمر على هذا الحال شهرا ثم زينت له نفسه الفرار فاختفى أياما فأزعج كتخدا بيك فراره واستحضر سائر مشايخ الحارات وشدد عليهم فى إحضاره وبث العيون والأرصاد واهتم لهذا الأمر جدًا فلما كانت ليلة السبت ثامن عشرى رجب سنة تسع وعشرين حضروا به فى وقت الغروب إلى بيت السيد المحروقى فسلمه إلى كتخدا بيك وكانوا قد عثروا عليه بحلوان فضيق عليه هو وعمه من ذلك الوقت

ومنع من خروجهما حتى سافر الشريف غالب إلى سلانيك وسافر عبد الله المذكور إلى الديار الحجازية.

ورأى محمد على باشا أنه لابد من مصالحة الأشراف واسترضائهم كى تنحسم أسباب الخصام وتبطل الحرب بعد أن طالت أيامها وملت منها نفوس الجند فجعل يعمل ويدبر حتى استمال الشريف راجح وتودد إليه وأظهر له غاية الإخلاص وأمده بالمال وأجزل له العطاء فكانت مصالحته سببا فى ظفر جيوش الأمير طوسون وفوزهم وارتفاع كلمة محمد على باشا وقد دانت إليه الأمور وتم له المأمول وزيادة ووصل الخبر بذلك إلى دار السلطنة فجاءه فرمان السلطان بإضافة الديار الحجازية إلى ولاية مصر وجعلها كلها ولاية واحدة خاضعة لحكمه ففرح محمد على باشا فرحاً عظيمًا وطير الخبر بذلك إلى الآفاق ولبث بالحجاز يدبر الأمر ويحسن حال جيش الأمير طوسون حتى أصلح ما أراد وقفل راجعًا إلى مصر ودخلها فى ليلة الجمعة خامس عشرى رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدم والأتباع وبعض الجند فتسابق الناس إلى رفع التقادم والهدايا إليه وقد احتجب عن الخروج أياماً ثم خرج وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ فى إعداد ما لزم لعساكر الأمير طوسون وأكثر من جمع الجند وآلات الحرب وبالغ فى ذلك كثيرًا والناس فى ريب وطيرة لا يدرون ما سيكون من وراء هذا الاهتمام وعمد إلى تنظيم هيئة الجندية وتنسيقها على نسق عسكر الفرنسيس فشاور مقدمى الجند فى ذلك وجعل يستميلهم إلى رأيه فلم يقبلوا فأمر بعسكر ولده إسماعيل وكلهم من المرتزقة فاجتمعوا بظاهر بولاق فأوقفهم صفوفًا وأعلمهم بقصده من ترتيبهم على نسق عسكر الفرنسيس فلم تعجبهم مقالته وأكبروا الأمر جداً وأظهروا العصيان والخروج على كبارهم وباتوا ليلتهم تلك بين أخذ ورد وأصبحوا وقد اتفقوا على قتل محمد على باشا والغدر به ووافقهم على ذلك أيضًا بعض كبارهم.

(مطلب)

(العزم على قتل محمد على باشا ونهب دكاكين تجار المدينة)

فلما كانت ليلة الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة اجتمع عند عابدين بيك جماعة من أكابر الجند فى وليمة وبينهم محو بيك وعبد الله أغا سارى جله وحسن أغا الأرزنجلى فتناجوا فيما يريده محمد على باشا وفيما تقرر بين الأحزاب من الغدر به فأعجبهم رأيهم واتفقوا على الركوب عليه فى تلك الليلة واغتياله قبل أن يستشعر بالأمر وأن يهجموا عليه عند مطلع الفجر فى بيته الذى بالأزبكية وتحالفوا على ذلك

واستوثق بعضهم من بعض ثم عادوا إلى ما كانوا عليه فى مجلسهم غافلهم عابدين بيك وتركهم فى أنسهم ولهوهم وخرج متنكراً مسرعًا إلى محمد على باشا وأخبره بخبرهم ورجع إلى أصحابه فلم يعلموا من أمره شيئاً وأسرع محمد على فى الركوب فى سادس ساعة من الليل وطلب عسكر طاهر باشا فركبوا معه وقد أحاط الدار بالعسكر ثم أخلف الطريق وذهب إلى ناحية البركة الناصرية ومرمى النشاب وصعد إلى قلعة الجبل وتبعه من يثق به من الجند فلما قارب الفجر قام المتآمرون يريدون الهجوم على دار محمد على باشا فمانعهم المرابطون واشتد بينهم رمى البنادق فقتل منهم عدة ولم ينالوا غرضاً فساروا إلى ناحية قلعة الجبل وقد علموا بصعود محمد على باشا إليها واجتمعوا بالرميلة وقراميدان وتحيروا فى أمرهم واشتد غيظهم ووقفوا وهم لا يدرون ماذا يفعلون ثم أجمع رأيهم على أن يتفرقوا فى المدينة وينهبوا متاع الرعية وأموالها فنزلوا من وسط قصبة رضوان على الصليبة والسروجية وجعلوا يكسرون أبواب الحوانيت المغلقة وينهبون ما فيها وقد كان الناس لما تسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبواب دورهم وتركوا تجارتهم طلبا للسلامة وانضم إلى الثائرين من بقى طائعاً من الجند وعمت الفوضى وبادروا جميعاً إلى النهب والخطف وشاركهم العامّة وأراذل الناس ومضوا على طريقهم إلى داخل باب زويلة وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا ما فيها من أموال وبضائع ومضوا فى سيرهم إلى العقادين والغورية والأشرفية وسوق الصاغة ووصلت طائفة إلى سوق مرجوش فكسروا أبواب الحوانيت والوكايل والخانات ونهبوا ما فيها من أقمشة وغيرها ومروا بخان الخليلى وأرادوا مدّ يد النهب فثارت عليهم طائفة الأتراك الذين يتعاطون التجارة الساكنين بخان البن والنحاس وأطلقوا عليهم نارا حامية وكذلك فعل من كان منهم بباب الزهومة حتى ردوهم ومنعوهم وقام عليهم أيضًا طائفة المغاربة بالفحامين وحارة الكعكيين وأطلقوا البنادق فردوهم عن تلك الناحية وأغلقوا البوابات التى على رؤوس الحارات وجلس عند كل باب جماعة ومن فوقها آخرون من أهل الخطة وبأيديهم البنادق لمنع الواصل إليهم ووصلت طائفة إلى خان الحمزاوى فعالجوا بابه حتى كسروا الخوخة التى بالباب وعبروا الخان وكسروا حواصل التجار كافة ونهبوا ما وجدوه من الأقمشة الهندية والشامية والمقصبات وتبعهم فى ذلك الخدم والعامة وأخرجوا ما فى الدكاكين والحواصل من الأموال وأنواع البضائع وكان القوى منهم يعدو على الضعيف فيأخذ ما معه ويقتل بعضهم بعضا وكسروا أبواب الحوانيت التى خارج الخان بالخطة وأخرجوا ما فيها من التحف والأوانى الصينية والبلور وأنواع

الزجاج وكـذلك فعلوا بسوق البندقانيـين وكثر خلفهم النـهابون والغوغاء واسـتباح الناس يومئذ أموال بعضهم وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأنكاها بالرعية. قال بعض الكتاب: وقد تم هذا كله فى ظرف مدة لا تتـجاوز الخمس ساعات وذلك من قبيل صلاة الجمعة إلى قبـيل صلاة العصر ولم تصل الجمعة فى ذلك اليوم وأغلقت المسـاجد بداخل المدينة وأخـذ الناس حذرهم وتسلحـوا وأغلقوا الـبوابات وسـهروا الليالى وأقـاموا على التحذر والتـخوف، وأصبح يوم السـبت تاسع عشرى شعـبان موافقًا لآخر يوم من شهر أبيب وقد أوفى النيل أذرعه وكان فى ذلك اليوم أيضاً رؤية هلال رمضان فلم يـعمل فيه شيء من المراسم المعـتادة لقيام الفتنة فلـما سكن الحال رسم محمد على باشا بإحصاء ما نهبه العسكر وتقويمه لرده لأصحابه من ماله فطلع إليه كـبار العسكر يعتـذرون ويتنصلون من تبعة مـا فعله الجند فرسم لهم بجـمع ما يمكن جمعـه من النهابين ففعلوا وشقوا فى وسـط المدينة ونادوا بالأمان فلم تطمئن خواطر الرعـية ونزل كتـخدا بيك وجلس عند جامع الغـورية ورسم لأهل الأسواق بفتح حوانيتهم وأن يجلسوا فيها على عـادتهم ففعلوا على تخوف وأخذ محمد على باشا يتـدبر فى أمر أولئك العـسكر ويعمل على تمزيق شملـهم فاستـعمل مع بعض كبارهم المسايرة وقرّبهم من مجلسه وتزلف إليهم جهد الاستطاعة وأجزل لهم العطاء ورفعهم إلى الرتب السـامية ولم يعجل فى عمله بل لازم التأنى والصـبر، فلما كان شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وثلاثين أمر أولاده بالخـروج بمن معهم من العساكر والأجناد إلى ظاهر المدينة والإقامـة على أهبة السفر وأسـرّ إليهم ما فى ضمـيره من قتل كـبار الفتنة وزعمـاء هاته العصابة وخاطب أمـراء العسكر فى الخروج فـخرجوا وعسكروا بظاهر المدينة وأصحـب مع ولده الأمير طوسون رجلاً من خواصـه أسمه أحمد أغـا المنجورجى المدللى ووكل إلى الأمير طوسـون تدبير أمر قتل القـوم فأخذ الأمير طوسون فى التدبير وعمل الحـيلة وبدأ بمحو بيك وهو أعظمهم قدرا وأكثرهم جندًا وأخذ فى استمالة عسكره وإبعادهم عنه وما زال حتى لم يبق مع محو بيك إلا القليل فلما تمكـن من ذلك وصار قتله أمـراً مقضيـاً أرسل إليه يدعوه لمشـورة فعلم أحمد أغا المنجورجى بما وراء ذلك فذهب إليه وأسر إليه بما يراد به فعله وأشار عليه بعدم الذهاب فركب محو بيك من فوره وذهب إلى كبار الدلاة مستجيرا فشفعوا فيه عند محمـد على باشا وقد علم محمد علـى بما فعله أحمد أغا فأمـر به فقتلوه عند باب زويلة وتركوا جثـته ملقاة يوماً كاملاً وتحرز كـبار الجند وداخلهم الخوف والقلق وأخذتهم الطيرة فـأقام الأمير طوسون بعسكره أيامـاً حتى رسم له أبوه بالرجوع إلى

الحجاز فعاد إليها بعسكره وسير إلى الشريف عبد الله بن مسعود الذى تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه من يخابره فى الصلح وطالت المخابرة بينهما إلى أن تقررت القاعدة على ما يحبان فحضر جماعة من الوهابيين نحو العشرين وأقاموا عند الأمير طوسون رهائن على تنفيذ عقد الصلح وحضر منهم اثنان إلى مصر وأبلغا محمد على باشا ما تقرر بينهم وبين الأمير طوسون ثم رجعا، فلما كان اليوم الأوّل من ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلاثين وصل الأمير طوسون إلى السويس وأتى إلى القاهرة فزينوا لقدومه المدينة وعملوا له موكبا حافلا فدخل من باب النصر وعلى رأسه الطبلخان وشعار الوزارة وطلع إلى قلعة الجبل وأقام بها إلى ليلة الجمعة خامس عشره ثم سافر إلى الإسكندرية حيث كان أبوه ينتظره ثم عاد إلى مصر وقد ولاه أبوه قيادة الجند الأتراك والدلاة وأطلق له التصرف فى تدبيرهم، وكان محمد على باشا فى خلال هذه المحن والخطوب مثابرًا على مساحة الأراضى وضبط الرزق والأجباس وتعميم الفلاحة وإنشاء الترع والجسور وإحداث المعامل النافعة وغرس الأشجار الكبيرة وتنظيم الطرقات وتأسيس المدارس وإحياء العلوم على اختلافها ولاسيما الطب والهندسة والفلك وعمل السفن والمعاقل والحصون وقد بذل النفيس فى إعادة السدّ الممتد الموصل إلى الإسكندرية وهو سد أبى قير فقد كان اتسع أمره وتخرب وزحف منه الماء الملح وأتلف الكثير من الأراضى وأغرق القرى وخرب المدن والمزارع وتعطلت بسببه الطرق والمسالك وعجزت الدول فى أمره ولم يزل يتزايد فى التهوّر وزحف المياه الملحة على الأراضى حتى دخلت إلى خليج الأشرفية الذى تمتلىء منه صهاريج الإسكندرية المعروف الآن بترعة المحمودية فلما اعتنى محمد على باشا بتشييد الإسكندرية وتعمير أبراجها وحصونها ومعاقلها وأنزل بها العمارات اعتنى أيضاً بأمر السد المذكور وأرسل إليه المباشرين والقوّام والعمال والفعلة والنجارين والبنائين والأخشاب وآلات الحديد والأحجار والمؤن حتى تممه وكان له عناية لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان وقيد به بعض المهندسين والعمال وما زالوا به إلى هذا الحين.

(مطلب)

(موت الأمير طوسون وقيام الأمير إبراهيم بقتال أهل الحجاز بعده)

واتفق أن ظهر الطاعون بمصر فى هذه السنة أى سنة إحدى وثلاثين واشتد وكثر الموت فى الناس وكان الأمير طوسون قد ذهب إلى رشيد وعاد منها إلى قصره فى برنبال ففى ليلة وصوله إلى القصر أصابه الطاعون فتململ نحو العشر ساعات ومات

ليلة الأحد سابع شهر ذى القعدة من السنة فكفنوه ووضعوه داخل صندوق ووصلوا به فى سفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره وكان أبوه بالجيزة فلم يتجاسروا على إخباره فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره فى ذلك الوقت فسأله عن سبب حضوره وعن ولده الأمير طوسون فقال إنه حضر متوعكا إلى شبرا فركب فى الحال محمد على باشا طرادة وانحدر إلى شبرا وصعد إلى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول :أين هو؟ أين هو؟ فلم يقدر أحد على إخباره بالخبر وكانوا قد ذهبوا به وهو فى السفينة إلى بولاق ورسوا عند الترسخانة وأقبل كتخدا بيك على محمد على باشا فرآه يبكى فأنزعج انزعاجًا شديدًا وكاد يقع مغشياً عليه ونزل سفينة وأتى إلى بولاق آخر الليل ولازم النعش وهو يبكى بكاء مرا فلما أصبحوا ساروا بالنعش فى مشهد حافل للغاية وصلوا عليه بجامع المؤمنين ثم ذهبوا به إلى المدفن الذى أعده أبوه لموتاه وكان محمد على باشا يسير بجانب النعش وعيناه شاخصتان إليه والدموع تنحدر على خديه ولحيته ولم يخبروا والدته بموته إلا بعد دفنه فوجدت عليه وجدا عظيما ولازم أهل المدينة الحداد أربعين يوماً وجلسوا للعزاء عند قبره ومات وهو فى مقتبل الشباب لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيماً بطلاً شجاعاً جواداً كريماً يحب المصريين وله هيبة فى قلوب العسكر زائدة وكان محبوبا عند الناس فكانوا يرجون ولايته بعد أبيه ويأبى الله إلا ما يريد وطار خبر موته إلى الآفاق وشاع بين الوهابيين ففرحوا وعادوا إلى الخروج ثانية إلا القليل من كبارهم وجاء الخبر بذلك فجهز محمد على باشا لردهم ولده الأمير إبراهيم وجيش له جيشاً عظيما وعدداً من مراكب الحرب والشوانى الكبيرة فسار وقاتل الشريف عبد الله وفتح بعض المدن والبنادر وأعمل فى أهلها القتل والنهب وتغلغل فى جوف البلاد وغاب عن أبيه خبره فأنزعج وبعث بطائفة أخرى من العساكر والأجناد وبالغ فى المدد براً وبحراً ثم وردت الأنباء بوصول الأمير إبراهيم إلى ناحية اسمها (الموتان) وأنه قاتل الوهابيين فيها قتالاً شديداً كان له فيه الظفر وقد أسر منهم عدة رجال وأخذ خياماً كثيرة ومدفعين وقبض على زعيم من زعمائهم اسمه (عتيبة) ثم سار بعساكره إلى ناحية الشقراء وكان بها الشريف عبد الله بن مسعود فقاتل عليها قتالاً عظيماً فخرج منها الشريف هارباً إلى الدرعية فتبعه العسكر وفتحوا كل ما صادفهم فى طريقهم من المدن والبنادر حتى أتوا الدرعية فحاصروها وقاتلوها قتالاً عنيفًا ومنعوا عنها الواصل وأحاطوا بها أيامًا كثيرة وضيقوا عليها وشددوا، واتفق أن سار الأمير إبراهيم بجماعة من عسكره إلى بعض الجبال لاستكشاف معسكر الوهابيين وقد كان على مرحلتين

من الدرعيـة فتغـيب أيامًا فلما أحس المرابـطون فى الدرعية بغـيابه خرجـوا وقاتلوا عساكـره حتى أجلوهم وأخذوا خيـامهم وآلات حربهم وقتـلوا منهم جماعة كـثيرة واشتدوا عليهم شدة بالغة فكانت وقعة من شر الوقائع وجاء الخبر إلى الأمير إبراهيم فكرّ راجعاً ولكنه لم ينل من الوهابيـين فأخذ فى تدبير جيشـه وجمع من تشرد منه وطلب من أبيه المدد فأمده بعدة عظيمـة من المشاة والفرسان وعدة من مراكب الحرب فتقـوّى جند الأمير إبراهيم فأعاد الكـرة على الشريف عبد الله وأصحـابه واشتد فى قتالهم فـقتل الشريف حمودة أصـابته جراحة وهو فى سـاحة القتال ناحيـة الدرعية وضيق على من بقى فيـها حتى أخذها عنوة وقبض على الشريف عـبد الله وسير به أسيرًا إلى مصر. قال بعض كتاب الأخبـار: فلما مثل بين يدى محمد على باشا قام له إجـلالاً وأجلسه بجـانبه ولاطفـه وقـال له: «ما هذه المطاولة»؟ فـقال: الحـرب سجال. قال: وكيف رأيت ولدى إبراهيم؟ قال: ما قصر وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعله حتى كان ما قدره الله. فقـال: سأشفع فيك عند الخليفة إن شاء الله. فقـال: ما قدّر سوف يكون، فألبسه خلعة وانصرف من عنده إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق ولبث أيامـاً ثم سيـروه إلى دار الخلافة مع طـائفة من الجند تخـفره وأرسل الأمـير إبراهيم فريقـاً من عسكره ومقدمه خليل بـاشا لفتح يمن الحجاز فـقاتلها قتـالاً عنيفًا حتى تغلب عليـها وفتـحها عنوة فلمـا وصلت الأخبار بذلـك إلى دار السلطنة سر السلطان بذلك سرورًا عظـيماً وأرسل إلى محـمد على باشا وولده الأمـير إبراهيم الهدايا النفيسة والتحف الغالية وخلع عليهما خلع الرضا، وحضر إلى مصر من بقى من الوهابيين وسـقط فى قبضة الأمـير إبراهيم فكانوا زهاء الأربعمائة مـا بين رجال ونساء وأولاد فـأسكـنوهم بالمكان المعـروف بالقـشلة بالأزبكية وبينهم ابـن الشريف عبد الله بن مـسعود وقد كـان أبوه قتل فى دار السلطنة بعد وصوله إليـها بقليل فلم يحجر عليـهم فعلم الناس منهم أن يمن الحجاز لم تؤخـذ عنوة قالوا: لأنه لما مات حمـودة شيخهـا وولوا مكانه ولده أظهر الطاعة للدولة فلمـا سار خليل باشا لقـتاله أخلى له البلد وأعـتزل فى حـصن له ولم يخرج لدفـعه ومـحاربتـه كما فـعل أبوه وترددت بينهم الرسل وما زال به خليل باشا حتى أنزله من الحصن وأتى إليه فى قلة فقبض عليـه وسيره إلى مصر أسـيرًا، وعاد الأمير إبراهيـم من الأقطار الحجازية فى حادى عشـرى صفر سنة خمـس وثلاثين ومائتين وألف عن طريق القصـير ودخل القاهرة من باب النصـر فى موكب حافل للغاية وعلى رأسه الطبلـخان السليمى فى شعار الوزراء وصعد بالموكب إلى قلعة الجـبل ثم عاد إلى مقره بالروضة وقد تزاحم

على بابه المهنئون ومدحه الشعراء وقدّمت له الهدايا والأعلاق النفيسة وظهرت من هذا الحين كلمته واتسعت شهرته وهابه الكبراء والأمراء.

(مطلب)

(إصلاح ترعة الأشرفية)

ونظر محمد على باشا إلى ما يقاسيه التجار من صعوبة نقل أرزاقهم وقلة المواصلات فرسم بتصليح الترعة الموصلة إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بالأشرفية فقيد بها العمال والمباشرين والمهندسين فأخذوا فى حفرها وتنسيقها سنة وبضع أشهر حتى تمت أخريات ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وجرى فيها الماء وسارت بها المراكب إلى رشيد والإسكندرية بالأرزاق والبضائع والركاب وفرح الناس بها فرحًا عظيمًا وسافر بها محمد على باشا وأعجبه وصفها وسماها فى ذلك اليوم المحمودية وهى من أجل الأعمال النافعة والمآثر الباقية إلى يومنا هذا.

(مطلب)

(فتح السودان وتدويخ أمرائه وترتيب جيش على نظام عسكر الفرنسيس)

ولما زالت الفتن من جوف البلاد بزوال الأمراء المصريين وقطع شأفة المماليك والغوغاء من الجند والحرافيش وتذليل الوهابيين بالديار الحجازية والقبض على زعمائهم وأصحاب الكلمة فيهم وعجز من بقى منهم عن مقاومة المرابطين من العسكر المصرى عمد محمد على باشا إلى فتح السودان وقوى عزمه على الإغارة عليها واستخراج كنوزها ومعادنها فاهتم اهتماماً زائدًا فى تجييش الجيوش وإعداد المؤن وآلات الحرب وجعل ولده الأمير إسماعيل مقدّم هذه الغزوة وبالغ فى تجهيزه بجميع ما يلزم وضم إلى جيشه كثيرًا من العربان فصار جيشا ضخما للغاية وسارت طلائعه فى أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين ثم ارتحل الأمير إسماعيل فى ذى القعدة من السنة وارتحل معه محمد بيك الدفتردار ليتولى قيادة الحملة الذاهبة إلى الدارفور ومحو بيك وغيرهم واستقر محمد كتخدا لاظ بأنصنا التى هى إسنا لتوصيل المؤن والذخيرة ودواب الحمل وكان محمد على باشا إلى هذا الحين شديد الرغبة فى إنشاء جيش من أولاد الناس على نظام عسكر الفرنسيس وقد خلت البلاد من كثير من العسكر الذين ارتحلوا مع ولده الأمير إسماعيل إلى غزوة السودان فعمد إلى تنفيذ ما فى نفسه وخاطب أهالى البلاد بأن من يشاء أن يدخل فى خدمة الدولة بصفة جندى

يصرف له كذا من العلوفة وكذا من السلاح وكذا من الألبسة بشرط أن يكون فى سن الخامسة والعشرين أبيض اللون صحيح الجسم سليم البصر فليسجل اسمه فى الدفتر الذى أعدّ لذلك عند مشايخ البلاد، وكان الناس جميعاً ميالين إلى مساواتهم بطوائف الجند فراراً من إيذائهم فتسابقوا إلى الدخول طوعاً وافتخر بعضهم على بعض بحسن القد وانتظام الهيئة وتسارعوا إلى تسجيل أسمائهم فكان إذا اجتمع فى البلدة أو القرية اثنان أو ثلاثة سيروا بهم إلى بنى عدى من مديرية أسيوط حيث كان محمد كتخدا لاظ أوغلى فيسلمهم إلى الموكلين بتعليمهم وكان محمد على باشا قد رسم بأخذ جماعة من مماليك رجال الدولة وأرباب الوظائف فاختاروا منهم من توسموا فيه النجابة واستقدم إليهم ضابطا من عظماء الفرنسيس اسمه (الكولونيل ساف) فأخذ ساف المذكور فى تعليمهم العلوم العسكرية حتى تخرّجوا ونبغوا وثولوا هم تدريب الجند وتعليمهم بحيث لم يعلم بخبرهم من أهل البلاد إلا النزر اليسير وما زالوا حتى تم لهم تمرين خمسة آلاف مقاتل وكمل نظامهم على نحو ما أرادوا وفرح محمد على باشا بهم فرحا عظيما وأمر فسيروهم مع من خرج من الجند إلى السودان فى شعبان سنة خمس وثلاثين فقطعوا الشلالات ومروا بشندى والمتمة وأخضعوا كل ما صادفهم فى طريقهم من القرى والبلدان وهم لا يدافعون إلا بالأمر الخفيف ثم ساروا إلى سنار على البحر الأزرق وراء الخرطوم فخرجت عليهم قبيلة الشايقية وقاتلتهم قتالاً غير طويل حتى استأمنت فدخل العساكر سنار التى هى عاصمة الكردفان وعسكروا بها ورتبوا أمورهم ثم سار الأمير إسماعيل عن سنار إلى فيزوغلى فى طائفة من عسكره ليكشف حقائق تلك البقاع ويعرف ما فيها من الكنوز والمعادن فاستولى على عسكره المرض وفشا فيهم الوباء وكثر الموت فمات منهم خلق كثير فأرسل يطلب المدد فأتت إليه نجدة من ثلاثة آلاف مقاتل ومقدمهم أحمد بيك الدفتردار فقويت عزيمة الأمير إسماعيل وترك الدفتردار يدبرالأمور فى كردفان وسار هو إلى المتمة فى عسكر ثم عبر النيل إلى شندى ونزل بها وكان بها سلطان اسمه (نمر) وكان عاتيا شديد البأس جبارا فاستحضره الأمير إسماعيل وضرب عليه الكلف وقرر عليه شيئاً كثيراً من الذهب والرجال قيل طلب منه ملء سفينة صغيرة من الذهب وألفى مقاتل فى أجل لا يتجاوز الخمسة أيام فاستعظم نمر هذا الأمر وبالغ فى الشكوى والاستعطاف وما زال بالأمير إسماعيل حتى رضى أن يأخذ عشرين ألف ريال عوض الذهب ثم سأله أن يمد له الأجل فغضب عند ذلك الأمير إسماعيل وكان بيده شبق الدخان فضرب نمرا به على رأسه وقيل بل ضربه بمنشة على وجهه وصاح عليه ونهره فخرج نمر من عنده وهو مضمر له السوء فلما كان

المساء من تلك الليلة أكثر نمر من استحضار التبن علفا للجمال ودواب الحمل والحطب لوقود العسكر وجعل يصفه صفوفاً حول العسكر بعضه يتصل ببعض فكان شيئاً كثيراً جدا ثم أتى إلى مقر الأمير إسماعيل فى سرب من العبيد يضربون الطبول وينفخون فى قرون الحيوانات كالمزامير ويرقصون فأعجب الأمير إسماعيل منظرهم وطرب أصحابه منهم وما زالوا على هذا الحال إلى متصف الليل وقد اجتمعت الغوغاء وعلت الضوضاء واشتدت الطبول وعلت أصوات القرون فأمر نمر طائفة منهم فأشعلوا النار فى التبن وذلك الوقود ووقفت طائفة منهم بالسيوف والحراب تمنع الخارج فاندلع لسان اللهيب وعلا وأظلم الجوّ فأعملوا السيوف فى أعناق الجند فهموا بالفرّار فلم يتمكنوا فاحترق من أحترق ومات الأمير إسماعيل بالحريق وهو بين طائفة من مماليكه وأصبحوا ولم يبق من العسكر ديار ولا نفاخ نار وساق أصحاب نمر سلبهم إلى شندى وأتصل الخبر بالدفتردار وهو بدارفور فقام من فوره وسار إلى شندى وأقسم أنه ليهلك عشرين ألفا فداء لإسماعيل فلما نزل عليها لاقاه نمر بأصحابه فقاتلهم بمن معه من العسكر وظفر بنمر وقتله وأعمل السيف فى أصحابه وأفحش فى القتل وأسرف فى الانتقام ولم يحنث فى يمينه فهابه الناس واتسعت شهرته إلى أقاصى السودان فانكمش أصحاب الفتن وظل يدبر الأمور ويأمر وينهى ويخضع الكبار من السود إلى سنة أربعين ومائتين وألف هجرية حتى جاءه الأمر من محمد على باشا بالتخلى عنها والانحدار إلى القاهرة فانحدر وتولى مكانه رستم بيك فحذا حذوه وأكثر من الوعيد والتهديد حتى خضعت له جميع الأهالى ودانت له سائر الأمور.

(مطلب)

(إنشاء المدارس الحربية ومعامل الأسلحة والبارود)

واشتدت رغبة محمد على باشا بعد فتح السودان فى إتقان نظام عسكره على نسق عسكر الفرنسيس فأنشأ مدرسة للمشاة فى الخانقاه وأخرى للفرسان بالجيزة فى بيت مراد بيك الكبير واستحضر لهما أشهر أساتذة الفرنجة وأنشأ أيضًا مدرسة لأصحاب المدافع وأسس معامل للبارود وصب المدافع وعمل البنادق وجميع آلات الحرب واحتياجات الجند على اختلافها وسلم إلى الكولونيل سيف الذى هو سليمان باشا الفرنسوى زمام تدبيرها ووكل لعهدته جميع أمور الجندية وجعله رأس جميع مقدميها فبالغ سليمان باشا فى تعزيزها وإتقان نظامها فلم يمض عليها إلا القليل حتى صارت جندا عظيماً مدبراً مغازيا واسع الإصابة موفقا مظفرا أينما سار، ونقل

الناقلون إلى السلطان خبر ما وصل إليه محمد على باشا من الشهرة والجاه بعد فتحه للأقطار السودانية فخشى السلطان عاقبة أفعال محمد على باشا وظن به السوء وجعل يراقب أحواله ولكنه كان لا يقدر على أن يأتى معه أمرا لقيام الفتنة فى جميع الإيالات التابعة لمملكته واشتغال عساكره بالحروب القائمة مع الأحزاب لا سيما الحرب القائمة منها مع اليونان فقد كانت من أشدها ويلا وأعظمها خرابا وأنكاها بالغالب من الفريقين والمغلوب وطالت أيامها وأريق فيها من الدماء شىء كثير للغاية فكانت كلما طالت استعرت نارها وأشتد أوارها وقويت ظهور الثائرين وجاءهم المدد من أرض الله الواسعة برا وبحرا فقاتلوا قتال المستقتلين حتى أعيا السلطان أمرهم وداخل عساكره الملل وخشى عاقبة ذلك.

(مطلب)

(خلود اليونان إلى الثورة وطلب الاستقلال)

قال أصحاب التاريخ: لما نهض اليونان إلى طلب الاستقلال والخروج عن تابعية السلطنة العثمانية رأوا أن هذا الأمر لا يتم لهم إلا ببث الحرية والمساواة بين طبقات الرعية وهذا لا يتم أيضاً إلا بتثقيف أذهان أبنائهم بالعلوم والمعارف الصحيحة فتألب كبراؤهم وأصحاب الميسرة فيهم وسيروا أولادهم إلى بلاد الفرنجة لتلقى العلوم والآداب ومعرفة عاداتهم حتى إذا عادوا إلى أوطانهم بما عرفوه من معارف أولئك القوم وعاداتهم كانوا هم مقدمى الأمة ورعاة حريتها ومخرجيها من مضايق الأسر والاسترقاق إلى بحبوحة الحرية والمساواة فنجعوا فى ذلك وأنشأوا جمعيات سرية للذب عن حقوقهم السياسية وجعلوا مقرها بلاد الروس وبلاد النمسا فعملت تلك الجمعيات وبالغت جداً وكان أهمها عملا وأشدها خطرا الجمعية المسماة هيتيرى ومعناها الجمعية الأخوية وكان مقر هذه الجمعية أولًا بمدينة أودسا ثم انتقلت إلى مدينة كيف وكلتاهما من أملاك الروس وبقيت تحافظ على كتمان أمرها إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ثم ظهرت نتائج أعمالها بظهور الفتنة وخروج اليونان عن طاعة السلطنة العثمانية، وكان للقيصر إسكندر الأول ابن القيصر بولس قيصر الروس يد قوية فى تعضيد تلك الجمعيات وتقوية عزائم الجنس اليونانى وتعزيز مطالبه تنكيلا بالدولة العثمانية ولكى لا تخمد نار الفتنة من جميع بلادها ولا يبطل لها اضطراب فيتمكن من تنفيذ وصية بطرس الأكبر التى أوصى بها كل من يتولى ملك الروس أن يجعل القسطنطينية باب الممالك الروسية ومفتاح مغالق الديار الأوروباوية (قلت) ولما كانت هذه الوصية عند كبار السياسة الشرقية والغربية لاسيما

عند كبار رجال السلطنة العثمانية بمكان وكان بقاء السلطنة المشار إليها وزوالها معقودين بأطراف تلك الوصية رأيت أنه لا بأس بإيرادها هنا كما جاءت فى ترجمة تاريخ العلامة جودت باشا ولا أعلم من أين وصلت إليه معرفتها وعهدنا بوصايا الملوك التى من هذا القبيل أن يقفل دونها جميع أبواب الوصول قال:

(وصية بطرس قيصر الروسية)

(**البند الأول**) من اللزوم أن تقاد العساكر دائمًا إلى الحرب وينبغى للأمة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغا وترك وقت لراحة العساكر أو لأجل إصلاح المالية وتوفيرها وإن كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقبا وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آنا بآن وعلى هذه الصورة ينبغى لروسيه أن تتخذ من الصلح والأمان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها.

(**البند الثانى**) فى وقت الحرب ينبغى اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والأقوام الذين هم أكثر معلومات فى أوروبا وكذلك فى زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضاً ويلزم الاعتناء بما يجعل الأمة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث إنها لا تضيع سعيا فى تحصيل المحسنات المخصوصة بمملكتها.

(**البند الثالث**) عند سنوح الفرصة ينبغى وضع اليد والمداخلة فى جميع الأمور والمصالح الجارية فى أوروبا وفى اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص فى وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها.

(**البند الرابع**) ينبغى استعمال أصول الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً فى داخلية ممالك «له» وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ فى مجلس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة فى انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيه من تلك الأمة ينبغى حينئذ دخول عساكر روسيه إلى داخل البلاد لحمايتهم والتعصب لهم بإقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك إلى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الإقامة وعندما تظهر مخالفة فى ذلك من طرف الدولة المجاورة فلأجل إخماد نار الفتنة موقتا ينبغى أن نقاسم المخالفين فى ممالك «له» ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التى تكون أعطيت لهم.

(البند الخامس) ينبغى الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الإمكان ثم نسعى فى اغتنام وسيلة لاستكمال الباقى منها ولا نتوصل إلى ذلك إلا بوجه تضطر فيه تلك الدولة إلى أن تعلن الحرب على دولة الروسية وتهاجمها والذى يلزم أولاً هو أن تصرف المساعى والهمة لإلقاء الفساد والنفرة دائماً بين أسوج والدانمرقة بحيث إن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين.

(البند السادس) يجب على الأسرة الأمبراطورية الروسية أن يتزوّجوا دائماً من بنات العائلة الملوكية الألمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم فى المنافع إذ بهذه الصورة يمكن إجراء نفوذهم فى داخل ألمانيا ويربطون أيضاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا.

(البند السابع) أن دولة إنجلترا هى الدولة الأكثر احتياجا إلينا فى أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جدا أيضاً فى أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها فى أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالأخشاب وسائر الأشياء إلى إنجلترا وجلب الذهب من عندهم إلى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متماديا بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن فى ممالكنا.

(البند الثامن) على الروسيين أن ينتشروا يوما فيوما شمالا فى سواحل بحر البلطيق وجنوباً فى سواحل البحر الأحمر.

(البند التاسع) ينبغى التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الإيرانية وينبغى ضبط البحر الأسود شيئًا فشيئًا وذلك لأجل إنشاء دار صناعات بحرية والاستيلاء على بحر البلطيق أيضًا لأنه ألزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة إيران لنتمكن من الوصول إلى خليج البصرة وربما نتمكن من إعادة تجار الممالك الشرقية القديمة إلى بلاد الشام والوصول منها إلى بلاد الهند التى هى بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب إنجلترا.

(البند العاشر) ينبغى الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار إليها من جهة ما

تبتغى إجراءه من النفـوذ فى المستقبل فى بلاد ألمانيا وأما باطنهـا فينبغى لنا أن نسعى فى تحـريك عروق حـسد وعداوة سـائر حكام ألمانيـا لها وتحـريك كل منهم لطلب الاستـعانة والاسـتعـداد من دولة روسية ومن الـلازم إجراء نوع من حمـاية الدولة المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول فى المستقبل.

(البند الحادى عشر) ينبغى تحريض العائلة المالكة فى أستوريا على طرد الأتراك وتبعـيدهم من خطة الروم إيلى وحينما نسـتولى على استـانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة لستوريا حربا أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا بإعطائها حصة صغيرة من الأماكن التى نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها.

(البند الثـانى عـشـر) ينبغى أن نستـميل لجهتنا جميع المسيـحيين الذين هم من مـذهب الروم المنكرين رياسـة الباب الروحـية والمتـشـرين فى بلاد المجر والممـالك العثمانية وفى جنوبى ممالك «له» ونجعلهم أن يتخـذوا دولة روسيا مرجعا ومعينا لهم ومن اللازم قبل كل شىء إحـداث رياسة مذهبيـة حتى نتمكن من إجـراء نوع نفوذ وحكومة رهبانيـة عليهم فنسعى بهذه الواسطة لاكتـساب أصدقاء كثيـرين ذوى غيرة نستعين بهم فى ولاية كل أعدائنا.

(البند الثـالث عشـر) حين ما يصبح الأسوجيون مـتشتتين والإيرانيون مغلوبين واللاهيون محكومـين والممالك العثمانية مـضبوطة أيضًا حينئذ نجـمع معسكراتنا فى محل واحد مع المحافظة على البحر الأسـود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولاً لدولـة فرنسا كـيفيـة مقـاسمات حكومـات الدنيا بأسـرها بيننا ثم لدولة أستوريا ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار إليهما كل منهما على حدة بصورة خفيةً جداً لقبول ذلك وحيـث إنه لابد من أن إحداهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغى مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلاً بما عرضناه عليهما واسطة لتنكيل الأخرى وبذا تكون دولـة روسية حينئـذ قد ضبطت جـميع الممالك الشرقـية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا حديثة الدخول فى يد تصرفها فعنده يسهل علينا أن نقهر وننكل فيما بعد أىّ دولة بقيت فى الميدان من الدولتين المذكورتين.

(البند الرابع عشر) على فرض المحال أن كلاً من الدولتين المشار إليهما لم يقبل بما عرضته عليهـما روسيه فينبغى حينئذ لروسية أن تصـرف الأفكار لمراقبة ما يحدث

من النزاع والخلاف بينهما فإذا وقع ذلك فلابد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا الأمر مع الآخر وفى ذلك الوقت يجب على روسية أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالاً معسكراتها المجتمعة أولاً بأول على ألمانيا فتهجم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن أحدهما من بحر أزاق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الأناضول المتنوعة. والثانى من ليمان أرخانكل الكائنة فى البحر المتجمد الشمالى فتسير هذه السفن وتمر فى البحر الأبيض والبحر المحيط الشمالى مع الأسطول المرتب فى البحر الأسود وبحرالبلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرنسا وأما ألمانيا فإنها تكون إذ ذاك مشغولة بحالها وبما ذكرنا تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التى تبقى من أوروبا قابلة للفتح والتسخير، انتهت بنصها. **قلت**: ولا يقع فى ملكه إلا ما يشاء.

(مطلب)

(ولاية محمد على باشا على المورة وكريد ومقالة من بهما من الخوارج)

وانتشر سر جمعية الهيتيرى المذكورة بين جميع الجنس اليونانى المقيم ببلاد المورة وغيرهما من بقية بلاد المملكة العثمانية وفشا بينهم فلم تأت سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية حتى بلغ عدد أعضائها العاملين فيها نيفا وعشرين ألفا ممن يقدرون على حمل السلاح ولا يرهبون الموت عند الكفاح فلما ظهرت الفتنة فى يانيا وخرج واليها المسمى على باشا عن طاعة السلطان واشتغلت العساكر السلطانية بقتاله نهض أعضاء تلك الجمعية نهضة الأسد الرابض وركبوا على الجنود العثمانية المرابطة فى حصونهم وقلاعهم وأعملوا فيهم القتل واشتدت الفتنة وعمت وتمكن زعماء العصابة من الاستيلاء على كثير من الحصون والقلاع وأشغل السلطان أمر هذه الفتنة وأهتم لها أهتمامًا عظيمًا فلما سكنت فتنة يانيا وقتل واليها سير السلطان خورشيد باشا فى عسكر عظيم لإخضاع اليونان وإرجاعهم إلى الطاعة فقاتلوه قتالاً عنيفاً وانتصروا عليه نصرة مؤزرة فى مضيق الترمونبيل ومزقوا شمل عساكره كل ممزق وتمكنوا من إضرام النار فى جميع سفن حرب الدولة العثمانية التى كانت يومئذ راسية أمام جزيرة صاقز فمات فى الحريق زهاء ثلاثة آلاف من جند تلك السفن وكانت هذه السفن قد قاتلت على جزيرة صاقز وساموس وغيرهما واستخلصتها من أيدى أصحاب الفتنة فأفحش عسكرها فى القتل والنهب وسبى النساء والأطفال

وارتكاب أنواع الفظائع والفجور فقام أصحاب الفتنة عليها ودمروها تدميراً فلما جاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة اضطرب السلطان وكاد يأمر بالكف عن القتال وترك الأعداء وشأنهم ولكنه خشى العار خصوصًا بعد أن قام سفراء الدول فى دار السلطنة على ساق وقبحوا على الصدر الأعظم ما فعله عساكر السفن الحربية من القتل والنهب والسلب وسبى النساء والأطفال فى صاقز وغيرها فعمد إلى استعمال الحيلة وأخذ فى التدبير وسير إلى محمد على باشا فرمان الولاية على المورة وكريد ورسم له بقتال أصحاب الفتنة وإرجاعهم إلى الطاعة ليشغله بهذه الحرب المستعصية عن الخروج وطلب الاستقلال بملك الديار المصرية والأقطار الحجازية وأرسل إليه خلع الرضا فأجابه محمد باشا إلى ذلك وأعد للقتال زهاء السبعة عشر ألفا من المشاة المصريين وعددا من الفرسان وأصحاب المدافع وجعل مقدمهم ولده الأمير إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى فساروا إلى مدينة الإسكندرية ثم ركبوا السفن وأقلعوا فى ذى القعدة سنة أربعين ومائتين وألف هجرية إلى رودس فلبثوا بها أياماً ثم رحل عنها الأمير إبراهيم إلى كريد وترك سليمان باشا فى طائفة من العسكر فلما وصل إلى كريد قاتل من بها من الثائرين ثم احتلها عنوة وسار إلى سواحل المورة يريد إنزال جنوده بها فلم يتمكن وقاتله أصحاب الفتنة قتالاً عنيفًا للغاية وكان إلى ذلك الحين لم يبق للدّولة العثمانية من بلاد تلك السواحل سوى مدينتين مودون وكورون فسار إبراهيم باشا بعسكره إلى مينا مودون وأنزلهم إلى البر بعد عناء شديد وكان أصحاب الفتنة على قدم الأهبة والاستعداد للقاء العسكر المصرى بما عندهم من الرجال والذخائر والأموال وآلات الحرب التى كانت ترد إليهم من أهل البر ومحبى تحرير الأمم وفك قيود أسرهم فقد كانت تألفت فى ديار أوروبا عدة جمعيات باسم جمعيات محبى اليونان وانتظم فى عداد أعضائها كثير من الأمراء والكبراء فكانوا يرسلون إلى أصحاب الفتنة بالأموال وآلات الحرب والذخيرة وكان ممن انتظم فى سلكها الشاعر الفرنسوى المسمى فيكتور هوجو والناظم كازيمير دلافين فجعلا يقولان الأشعار والقصائد الحماسية فى تلك الحروب ويبالغان فى وصف ما يقاسيه أهل المورة وكريد من العسف والجور فكان لقولهما وقع فى قلوب أهل النخوة والمروءة فتجرد الكثير منهم إلى التطوع وبذل النفس فى عتق تلك الأمة وجاءهم أيضًا واشنطون ابن واشنطون محرر بلاد أمريكا واللورد بيرون الشاعر الإنجليزى متطوعين حبا فى تعميم الحرية وانتصاراً للضعيف على القوى ففاز اليونان وتقوت عزائمهم وانتصروا على العساكر السلطانية فى عدة وقائع واستخلصوا كثيرًا من

القلاع والحصون التى كانت تسكنها عساكر الدولة العثمانية ولم يستقر بالأمير إبراهيم فى مودون المقام حتى جاء الخبر بمحاصرة العدو لمدينة كورون وكان بها بعض العساكر السلطانية فسير لنجدتها طائفة من عسكره وسار هو فى طائفة لحصار مدينة ناورين فنزل عليها وشدد فى حصارها وضيق وما زال بها حتى فتحها ودخلها عنوة فى سلخ شوال سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف هجرية ثم سار إلى مدينة كلاماتا ففتحها أيضاً ودخل مدينة تريبولنا بعد قتال وكان رشيد باشا مقدم العسكر السلطانى نازلاً فى هذا الحين على مدينة يسولونجى محاصراً فاستعصى عليه الفتح وأعيته الحيل فسير إلى الأمير إبراهيم يستقدمه لنجدته فسار إليه فيمن معه من العسكر المصرى ونزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً وبالغ سليمان باشا الفرنسوى فى حصارها وضيق وطالت أيام الحصار لوصول المدد إليها من البحر وعدم التمكن من قطعه عنها وما زالوا بها حتى فتحوها ودخلها العسكران المصرى والعثمانى ظافرين فأعملوا فيمن وجدوه بها القتل وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخيرة وآلات الحرب، ثم لم تستهل سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف هجرية حتى زحفت العساكر السلطانية على مدينة أتينا وقاتلت عليها حتى فتحتها واحتلت قلعتها الشهيرة وكان بها الأمير كوشران القائد البحرى الإنكليزى مقدم الجيوش اليونانية فى تلك الثورة فأعمل العسكر السلطانى السيف فيمن وجدوه بها من العسكر والمتطوعة وأفحشوا فى القتل والتخريب وبينما هم على هذا الحال والأمير إبراهيم يتأهب لرد ما بقى فى أيدى أصحاب الفتنة إذ مات إسكندر الأول قيصر الروس وتولى الملك بعده نيقولا الأول ثالث أولاد القيصر بولس فتجرد إلى معاكسة الدولة العثمانية وطالبها بالمطالب الطويلة العريضة وهم بفتح أبواب الحرب عليها وتسيير عسكره إلى بعض الإيالات التابعة لها فأجابته إلى ما طلب وعقدت معه معاهدة سميت بمعاهدة «آق قرمان» فكان مما جاء فيها منح الروس حق الملاحة فى البحر الأسود والعبور من البوغازين بلا معارضة ولا تفتيش على ما فى سفنها وأن لا تحتل العساكر السلطانية إلا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى مما هو فى حوزة الدولة العثمانية ومنح الصرب كثير من الامتيازات تجعلها أشبه بالمستقلة بإدارة نفسها وأن يكون للدولة الروسية حق انتخاب حكام كل من القلاخ والبغدان لمدة سبع سنين ولا يصح للدولة العثمانية عزلهما إلا بإقرار من قيصر الروس، ومع ما كان فى هذه المعاهدة من الحيف والجور بالدولة العثمانية لم تر بدا من قبولها تفاديا من فتح أبواب الحرب فى ذلك الوقت ولم يقف القيصر نقولا عند هذا الحد بل دس إلى جميع الدول الكبرى بأن يتوسطوا ما بين

السلطان وأصحاب الفتنة من اليونان فكلم سفير الإنجليز الصدر الأعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى مما تلاقيه أهل مورة من العسكرين العثمانى والمصرى وألح فى الطلب فلم يلتفت السلطان إلى ذلك وصمم على قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة فاتفق قيصر الروس وملكا الإنجليز والفرنسيس وتعاهدوا على إكراه السلطان على منح اليونان استقلالهم الإدارى وعليهم الجزية فى كل عام حسبما يقع عليه الاتفاق وتحديد تخوم الفريقين وضربوا للسلطان أجلاً لا يتجاوز ثلاثين يوماً لا يقع فيها حرب ولا جلاد فلما علم السلطان بما فى هذا العهد غضب وأبى إلا القتال حتى يرجعوا إلى الطاعة وسير إلى خورشيد باشا بالإلحاح فى قتال الثائرين واستخلاص ما بأيديهم من القلاع والحصون ولبثت الدول الثلاثة تراقب فوات الأجل المضروب فلما انقضت أيامه سيروا مراكب حربهم إلى سواحل اليونان وكتبوا إلى الأمير إبراهيم بالكف عن القتال فلم يلتفت إلى قولهم وقال حتى يأتى فرمان السلطان وسير الخبر بذلك إلى دار السلطنة فاجتمعت سفن الأحزاب فى مينا تاورين ومنعت من خروج السفن العثمانية والمصرية وشددت في المنع ثم لم تلبث أن أطلقت مدافعها على السفن العثمانية والمصرية وراسلت الرمى بالقنابل فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وارتفع الدخان وتكاثف وأظلم الجوّ وانكشف عن تدمير جميع السفن العثمانية والمصرية بنيران المدافع ووصلت الأخبار بما وقع إلى دار السلطنة فاضطرب السلطان وهاله هذا الأمر وكتب إلى جميع الإيالات التابعة إلى مملكته يحذرهم من مقاصد الدول عموماً ودولة الروس خصوصاً ويحضهم على الغزو والجهاد دفاعاً عن الإسلام وأهله وأن يقوموا يداً واحدة لنصرة الدين ودفع العدو الطامع فاهتم قيصر الروس لذلك وخشى العاقبة وعجل بفتح باب الحرب على الدولة وزحف بعسكره فى صفر سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ورأى الأمير إبراهيم أنه لا قبل له على قتال الأحزاب بعد حرق أعظم السفن التى كانت معه فكتب إلى أبيه بما جرى فجاءه الأمر بالانسحاب بجميع عسكره والعود إلى مصر فخرج بمن معه وعاد على ما بقى من السفن المصرية إلى مدينة الإسكندرية ثم وقع بعيد ذلك ما وقع بين الدولة العثمانية والأحزاب فعقدوا محفلا فى لندن عاصمة الإنجليز ليقرروا فيه قاعدة لاستقلال اليونان وطلبوا من السلطان أن يبعث سفيرا من قبله فلم يقبل وأصر على ما فى نفسه فلم يهمهم ذلك وقرروا ما شاءوا من سلخ بلاد اليونان من تابعية الدولة فانسلخت من ذلك الحين واستقلت بحكم نفسها وتعهدت بدفع الجزية خمسمائة ألف قرش تحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل

عام وأشتغل السلطان بحرب الروس عن إخضاع اليونان وإرجاعهم إلى الطاعة وطالت أيام الحرب بين الفريقين ثم انكشفت عن هزيمة العساكر السلطانية فترددت رسل السلطان فى طلب الصلح وبعد أخذ وردّت تقررت القاعدة بينهما على حصول دولة الروس على كثير من الامتيازات والحقوق وأعتراف السلطان بسلخ البلاد اليونانية من مملكته ومنحها جميع الامتيازات التى تقررت فى محفل لندن عاصمة الإنجليز.

(مطلب)

(تنظيم العساكر السلطانية على نظام عساكر دولة الفرنسيس)

وكان إلى هذا الحين قد تمكن السلطان من إبادة جميع طوائف الانكشارية وطوائف السلامدارية والعلوفة جيه وأراح الدولة من شرهم. قال أصحاب التاريخ: لما رأى السلطان أن لا قبل لهؤلاء الأخلاط من العسكر على قتال جيوش الدول المتمدنة المنظمة لا سيما فى الحروب الأخيرة عمد إلى تنظيم عسكر على نسق العسكر الأوروبى وتجرد لمعاداة كل من يخالفه فى ذلك وجمع كبار الدولة وأعيان المملكة ومقدمى جميع طوائف الانكشارية ومفتى دار السلطنة وكان ممن لا يبغضون النظام الجديد فقام الصدر الأعظم بينهم خطيبا وتكلم فى أمر الانكشارية كثيراً وحض القوم على نصرة الدين بتقوية المجاهدين وترتيبهم على النظام الكافل بصد الأعداء والذب عن بيضة الإسلام فوافقوا جميعاً على عمل ما فيه المصلحة للأمة والبلاد وحرروا محضرا بذلك وأفتى مفتى دار السلطنة بجواز العمل بما تقرر شرعا وتعزير المخالفين له ووقع على ذلك جميع مقدمى الانكشارية فلما شرعوا فى العمل وأحس طوائف الانكشارية بما وراء ذلك ندموا على ما فعله كبارهم وأكثروا من التألب والاجتماع وتأهبوا للثورة والخروج كما فعلوا على عهد السلطان سليم وأخذت الوحشة بينهم وبين العسكر المنظم تكبر فلما كان شهر رمضان سنة أربعين ومائتين وألف قام جماعة منهم وجعلوا يزاحمون العسكر المنظم فى أوقات تمرينهم ويعاكسونهم فرفع كبار الجند أمر ذلك إلى السلطان فأغضبه جدا ورسم بقتل كل من يبدو منه أدنى معارضة بلا معاودة فلما شاع خبر ذلك بين طوائف الانكشارية هاجوا واجتمعوا وتحالفوا على العصيان وتأهبوا للخروج فجمع السلطان العلماء والمشايخ

وأخبرهم بما فعله طوائف الانكشارية فأكبروه وقبحوه وتقدموا إلى السلطان فى طلب قتالهم والجهاد فيهم وأصبحوا وقد أخرج السلطان علم صاحب الشريعة المحمدية وأمر أصحاب المدافع بالخروج إلى (آت ميدان) فخرجوا وأمامهم العلم المشار إليه وخرج معهم أيضًا كثير من العلماء والمشايخ وطلبة العلم وكان بالميدان المذكور أصحاب الفتنة والعدد العديد من طوائف الانكشارية وهم فى ضجيج وجلبة فأحاط بهم أصحاب المدافع إحاطة السوار بالمعصم وأطلقوا عليهم القنابل وراسلوا الرمى واشتدوا وأصلوهم نارا حامية فهربوا إلى منازلهم يريدون النجاة فتبعهم أصحاب المدافع وصوّبوا أفواه المدافع نحو المنازل واشتدوا فى الرمى عليها بالقنابل فهدمتها جميعها وأشعلت فيها النيران وارتفع لهيبها وتطاير شررها وما زالت النيران فى اشتعال حتى أبادتها وصيرتها رمادا ومات فيها جميع من كان بها من طوائف الانكشارية وبات الحال هكذا وأصبحوا وقد رسم السلطان بإبطال زيهم واصطلاحاتهم وجميع ما يتعلق بهم من جميع الأيالات التابعة لمملكته ونودى بذلك فى الشوارع وطيروا الخبر بما جرى إلى الآفاق وكتب إلى جميع العمال بالقبض على كل من يجدوه منهم فيقتلونه بغير معاودة فوقع فيهم القتل فى كل فج وتتبعوهم حتى أبادوهم ولم يبق منهم إلا من طال عمره فاختفى عن العيون والأرصاد، وجاءت الأخبار بما وقع بطوائف الانكشارية إلى محمد على باشا فعادت همته إلى ما كانت عليه قبل حرب مورة من تجنيد الجنود وإتقان نظام العسكر والإكثار من الآلات والكراع وإنشاء عمارة عظيمة من سفن الحرب وشوانى النقل بدل التى أحرقتها سفن الأحزاب وأقام البنايات العظيمة منازل للجند وجلب الخيل والبغال والجمال لحمل المؤن والذخيرة وغير ذلك فاتصلت أخبار هذا كله بالسلطان فحقد على محمد على باشا لما يعلمه من ميله إلى الخروج ورغبته فى الاستبداد بملك الديار المصرية مع عجز السلطان عن رده وإرجاعه إلى الطاعة إن هو عمد إلى ذلك وجعل يراقب الأمور ويتودد إلى محمد على باشا بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة.

مطلب)

(ما انتحله محمد على باشا من العلل لفتح باب الحرب على الشامات والتغلغل فى قلب آسيه)

قال بعض الكتاب: وكان تأهب محمد على باشا واستعداده فى هذه المرة إنما هو للزحف على الديار الشامية وضمها إلى بلاده كما كانت على عهد من سبقه من

الخلفاء والسلاطين وكان شديد الرغبة فى ذلك جداً فأتفق أن بعض الملتزمين من أهل مصر هربوا إلى عكا ونزلوا فى جوار عبد الله باشا الجزار واليها فرارا من محمد على باشا لدين عليهم وقيل فرارا من الفرض والطلبات المتتابعة وقيل غير ذلك فأرسل محمد على باشا إلى الجزار يقول له: اقبض على من أتاك من أهل بلادى وردهم إلىّ فإنه لا يصح أن تمنعهم عنى فاستعظم الجزار هذا الأمر من محمد على باشا وأرسل إليه يوبخه ويشنع عليه ويقول: لست خادماً على بابك حتى تتصرف فى أمرى وإياك أن تخاطبنى فى هذا الأمر ثانياً فشق هذا الكلام على محمد على باشا وأقسم الأيمان الغلاظ أن يسير عسكره إلى عكا لقتال الجزار ويضم جميع البلاد الشامية إلى مصر وجعل يتأهب لذلك من هذا الحين، فلما كان سادس عشرى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف خرجت الجيوش المصرية من القاهرة تريد عكا ومقدمها الأمير إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى وكان عددها زهاء أربعة وعشرين ألفا فساروا إلى الصالحية فالعريش فغزة وركب الأمير إبراهيم وحاشيته السفن إلى يافا فلم يدرك يافا حتى استولت عساكره على غزة ويافا بعد دفاع خفيف فسار بهم إلى عكا فنزل عليها حادى عشرى جمادى الثانية وحاصرها برا وبحرا ونصب خيامه أمامها ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمى وشدد فخرج الجزار فى عسكر عظيم وقاتلوا قتالاً عنيفاً فمات منهم خلق كثير وعادوا إلى المدينة وجعلوا يقاتلون من وراء الأسوار وطالت الحرب واشتد الحصار ومنع الأمير إبراهيم الوارد عن المدينة من البر والبحر إلى سادس عشرى ذى القعدة وقيل سادس شوال ثم نادى فى عسكره بالهجوم فهجموا عليها واقتحموا أسوارها وحصونها فاستأمن من كان بها من العسكر الشامى والعثمانى فأمنهم ودخل بعسكره البلد فكاد العسكر يستبيحونها فلم يمكنهم الأمير إبراهيم من ذلك وقيل أباحها ثلاثة أيام فأعمل عسكره فيمن بها السيف، فلما كان اليوم الثانى وصل الأمير عباس حلمى ابن الأمير طوسون فى عسكر عظيم ومعه كثير من العربان والهوارة إعانة للعسكر المصرى فسيرهم الأمير إبراهيم إلى حصار بعض المدن والبنادر كصور وصيدا وبيروت واشتدت عزيمة العساكر المصرية بما نالوه من النصر المتتابع وسير الأمير إبراهيم الكتب إلى البلاد كافة يدعوهم إلى الطاعة والخروج على من عندهم من العساكر السلطانية كتب كذلك إلى متولى بيت القدس والمفتى وقاضى القضاة به يقول:

تعلمون أن فى بيت المقدس كثيراً من الديارات والكنائس والآثار الدينية التى تحج إليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكى إلينا هؤلاء مما يلاقونه

منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم فضلاً عما أنتم فارضوه عليهم من الكلف والمغارم الفادحة غير ناظرين إلا إلى ما فيه إرضاء أنفسكم والعمل بهواكم على أن هذه الغايات الدنيئة والفعال الرديئة لا ترضاها النفوس الأبية ولا يصح السكوت عليها ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روما أو أرمنا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوهم من إقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين بحر الشريعة شيئاً من الكلف والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموهم الصغار بدفع المال فإن أطعتم أحسنتم لأنفسكم وإن خالفتم أسأتم عليها والسلام عليكم ورحمة الله.

وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان فاغتم وكاد يسقط فى أمره وكانت قد جرت عادة الباب العالى أن ينشر جدول التوجيهات والتغيرات التى تحصل فى هيئة الحكومة فى كل سنة فى اليوم الأول من العيد الأكبر فجاء فى صدر الجدول الذى نشر فى تلك السنة ما معناه قد رأينا أن لا نقطع بتوجيه ولايات مصر وجدّة وكريد حتى يأتى إلى بابنا العالى جواب محمد على باشا على ما أرسلناه إليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبه من الخروج والعصيان على خليفته وسلطانه ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءة التى سار فيها هو وإبراهيم ولده ورجوعه إلى حد التأدب وقهره بقدر ما تصل إليه القدرة إن شاء الله، ثم رسم للوزير عثمان باشا بالخروج فى جيش عظيم لقتال الأمير إبراهيم واستخلاص ما بيده من بلاد الدولة لا سيما منها مدينة عكا وقهره جهد الاستطاعة فسار الوزير وسير الكتب إلى الأمير إبراهيم يدعوه فيها إلى طاعة خليفته وسلطانه ويحذره من عاقبة الخروج وشق عصا الطاعة فلم يلتفت الأمير إبراهيم إلى شىء من ذلك وترددت الرسل بين العسكرين أياماً على غير طائل ثم زحف الفريقان للقتال فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً فانهزم الوزير عثمان باشا بعسكره شر هزيمة وأخذتهم سيوف المصريين من كل صوب وحدب فمزقت شملهم وولى من بقى منهم مدحوراً فغنم المصريون ما كان فى معسكرهم من كراع ومتاع وعجل الأمير إبراهيم المسير بعسكره بعد هذه النصرة إلى مدينة حمص يريد حصارها والتضييق عليها وتحقق الوزير من ذلك فجعل يجمع من بقى من عسكره وسار بهم خلف العسكر المصرى يتخطف ساقه ويناوشهم القتال فوقف له العسكر المصرى وقاتلوه فهزموه ثانية وأعملوا فى جنده السيف ففروا ووصلت الأخبار بما جرى إلى دار السلطنة فهال السلطان هذا الحال وأزعجه فأنفذ إلى عامله على حمص

بالثبات وقتال العسكر المصرى ما استطاع ووصل الأمير إبراهيم بخيله ورجله إلى حمص فى سابع ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين فلاقاه واليها محمد باشا بعسكره واقتتل الفريقان قتالاً شديداً.

(مطلب)

تسليم محمد على باشا والى حمص إلى الأمير إبراهيم وصدور فرمان السلطان بعزل محمد على باشا وولاية حسين باشا سر عسكر بدله

قال بعض الكتاب: كان هذا القتال حيلة من محمد باشا يريد بها تسليم حمص إلى الأمير إبراهيم وقد كان استوثق لنفسه وتعاهد مع الأمير إبراهيم على ما لم يصل أحد إلى معرفته فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى استسلم محمد باشا فاستلم الأمير إبراهيم حمصا ورتب أمورها على ما شاء وترك طائفة من عسكره فيها وسير جيشاً إلى حلب فاستسلمت إليه بغير قتال فكان كلما اقترب من مدينة أو قرية سلمت إليه بغير قتال فيأخذ منها المؤن ودواب الحمل ويسير عنها إلى غيرها فلما ورد الخبر بما وقع إلى دار السلطنة كاد السلطان يتميز غيظا وجهز حسين باشا سر عسكر الدولة فى جيش عظيم ورسم له بالخروج إلى القتال وولاه مصر وكريد والحبشة، كذا ولا أعلم ما هى ولاية الحبشة والحبشة كما هو محقق ومشهور دولة قائمة بذاتها منذ قرون وأجيال، وسلمه فرمان الولاية بيده وترجمته:

من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة المملكة العظمى الشاهانية إلى فخر الأمراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا بلغه الله ما شاء وأسبل عليه بساط اليمن والأمان وأفاض عليه سجال العدل والإحسان وأسبغ عليه من المكارم رداء سابغاً وأورده من موارد الأمن شراباً سائغاً سنجق التشيرمان وأمير بحرية الأناضول الموجه إليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية الديار المصرية والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها.

ـ أما بعد ـ لا يخفى على من تهمه أخبار دولتنا العلية وما هى عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد على باشا والى الديار المصرية سابقاً بعد أن كان فردا من آحاد الرعية لا يعرف له حسب ولا نسب قد تدرج إلى أوج المعالى وما زال حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالى فنظرنا إليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بغاية الرفق والتودد والاتضاع وكنا نظن أنه يقف عند حد الشكران فلا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق والولاء

ولكنه لدناءة أصله وخسة نفسه قد أطاع هواه فداخله الغرور والكبرياء وكفر بالنعمة وشق عصا طاعتنا وجاهر بمعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من إثارة الفتن وتعميم القلاقل والاحن ودس الدسائس الشيطانية بين عمال وولاة إيالاتنا الشاهانية حتى استمال إليه الكثير ممن كنا نعتمد عليهم ونركن فى جميع الأمور المهمة إليهم وقد أقلق راحة أهالى ألبانيا والروم إيلى بشن الغارة على بلادهم والإكثار من القتل والنهب بلا موجب ولا سبب حتى كاد الخراب يتولاها وكثيرًا ما ألح على مصطفى باشا بوساطة جلال بك وقاوللى مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا وطالما ما مناه بالمال والرجال ومعدات القتال فلم يفلح وهو يظن أننا عن تصرفاته هذه غافلون وعن سوء أفعاله لاهون على حالة أنه لم تخف عنا خافية قط وكثيرًا ما دس إلى عبد الله باشا والى عكا المخلص فى طاعتنا ووسوس إليه وسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس حتى فتنه أوكاد وأدركه لطف الله سبحانه فعاد فوقع بينهما من العداوة والشحناء ما قامت بسببه الحرب بين الفريقين وجاء إبراهيم ولد محمد على باشا الخائن المذكور فى عسكر جرار إلى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق الشام فدخلهما ثم تقدم نحو عكا فحاصرها وقاتلها ولم يبال بما أرسلناه إليه من الرسائل المفعمة بالنصح والاسترضاء ولم يعد عن غيه وضلاله بل اندفع وراء هواه حتى استهواه ومع هذا كله فلم نعجل بمؤاخذته ولم نتسرع بمعاقبته وطاولناه حقنا للدماء ورحمة بعباد الله الذين عهدت العناية الربّانية إلينا رعايتهم وعسى أن يجد لنفسه من نفسه رادعا عن ركوب هذا المركب الخشن والتمادى على عدم طاعة خليفة رسول رب العالمين والرجوع إلى جادة الحق بعد هذا الزيغ والضلال والمروق عن الدين ويتوب ويستغفر عما جنت يداه وقد فسحنا إلى ذلك المارق الأجل عله يرتدع أما الآن وقد آن الأوان وحل القضاء الذى لا مفر له منه فلم يبق من باعث على التهاون والإغضاء ولكنا مع ذلك نعفو عمن يأتى إلى بابنا طائعا لائذا مقرا بالذنب ممن شاركوه فى خيانة العصيان مكرهين ولو كانوا من ولده وأهله وعشيرته وأصحاب الوظائف السامية والمناصب العالية وكبار الجند وأفراد العسكر وغيرهم وقد أصدرنا فرماننا هذا العلى الشأن بتوجيه ولاية مصر والشام وجريد والحبشة إليك مع ما يتبعها ورسمنا لك بنزعها من أيدى أولئك المارقين وإنا لعلى يقين بحسن خبرتك ودرايتك بجميع الأمور وببسالتك فى الغزو والجهاد وبمشيئة الله تعالى وببركة رسوله المصطفى ﷺ تسير بالعسكر المنصور إلى حلب ثم تنحدر إلى ديار مصر فتنزع جميع البلاد من أيدى أولئك الخائنين وأذكر شفقتى ولا تنس عفوى عمن يتوب ويرجع إلى طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة خليفته من بعده واتق الله وأخلص النية يجعل الله لك من كل

شدة مخرجًا والسلام، فسار حسين باشا بعسكره وهم زهاء ستين ألفا بين فارس وراجل وتباطأ فى سيره حتى تمكن الأمير إبراهيم من ترتيب عسكره على ما يشاء وتأهب للقاء العسكر السلطانى وجاء الخبر بذلك إلى محمد على باشا فجعل يبالغ فى التأهب والاستعداد وأيقن بأن قد بلغ العظم السكين واستعصى الوئام فلم يبق إلا الكفاح والجلاد حتى يحكم الله بينه وبين خليفته وهو أحكم الحاكمين.

(مطلب)

(هزيمة عسكر السلطان عند حلب)

ووصلت طلائع عسكر السلطان إلى مقربة من حلب فخرج للقائهم الأمير إبراهيم فى عسكره وقاتلهم وصبر على قتالهم حتى ظفر بهم وبدد شملهم ثم ساق بخيلة ورجله حتى دخل حلب واحتلها فتفرق من بقى من العسكر السلطانى وجاء الخبر بذلك إلى حسين باشا فتقهقر بمن بقى معه وتحصن فى مضيق بيلان أهم مضايق جبال الطورس وعلم الأمير إبراهيم بخبره وما هو عليه فخرج من حلب لقتاله فلما ألتقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً وما زالا حتى تمت هزيمة العسكر السلطانى فغنم الأمير إبراهيم متاعهم ودوابهم وآلات حربهم وتتبع من بقى منهم حتى نزلوا سفنهم التى كانت راسية فى مينا الإسكندرونة ووصلت الأخبار إلى دار السلطنة بما حل بعسكر السلطان فحزن وأغتم وعم الخبر وشاع عند سائر الدول وكانت ولاية المجر تخشى من استفحال أمر الفتنة فى إيالات الدولة العثمانية وأشتغال الدولة بالحروب والخطوب المتتابعة فتطمع دولة النمسا فى إرجاع المجر إلى سلطتها وتلحقها بمملكتها وكانت تلاحظ مع الحزم والتأنى الحوادث الجارية فى أوربا فأرسلت يومئذ إلى محمد على باشا تتهده بتسيير جندها مع العسكر السلطانى لقتاله إن هو لم يرجع إلى الطاعة وينكف عن العصيان وجارتها فى ذلك دولة الروس وأظهرت المودة والإشفاق إلى الخليفة فكتبت إلى قنصلها الجنرال بديار مصر بأن انسحب من الإسكندرية وأقطع كل علاقة مع محمد على باشا فانسحب فلم يلتفت محمد على باشا إلى شىء من ذلك البتة واشتدت رغبته فى هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما بيد سلطانه من الإيالات وتدمير معالم الخلافة.

(مطلب)

(ما كتبه السلطان إلى الدول من عزمه على محالفة الروس وتهديده إياهم بذلك)

وكتب إلى ولده إبراهيم بالإلحاح فى القتال وأن يعجل بالفتح ما استطاع وأن

يتقدم بعد ذلك إلى الأمام ما قدر فتغلغل الأمير إبراهيم فى خوف الأناضول فكتب السلطان إلى الدول يخبرها بعزمه على التحالف مع قيصر الروس على الذب والدفاع إن لم تبادر إلى إيقاف محمد على عند حده وترجع عساكره عن التغلغل فى جوف أملاك السلطنة العثمانية فكتبت دولتا الفرنسيس والإنجليز إلى محمد على باشا بذلك وحذرتاه عاقبة تعاقد السلطان مع دولة الروس وألحتا عليه بإيقاف تيار هذه المحنة حتى تتقرر قاعدة الصلح على ما فيه مصلحة الطرفين، وأنفذ يومئذ قيصر الروس الأمير مورايف أحد كبار قومه إلى محمد على باشا ليكلمه فى ذلك وسيرت معه كذلك دولة الفرنسيس الكولونيل روهابيل وكتب قنصل جنرال الفرنسيس أيضاً إلى الأمير إبراهيم يقول: كتابى إليك حرسك الله ورسل السلام يخاطبون أباك فى وضع حد لهذه القلاقل والمحن المترتبة على تلك الحرب القائمة فقد آن للباب العالى أن يطلب حقن دماء خلق الله الذين عهدت رعايتهم إليه وسيصل خليل باشا أمير سفن الحرب السلطانية رسولاً إلى أبيك ومعه شروط الصلح التى رضيها السلطان بناء على إشارة دولة الفرنسيس التى لم يبق فى وسعها السكوت عن هذه القلاقل التى عمت جميع المشرق أو كادت بسبب الحرب القائمة بين أبيك وسلطانه ولنا جميعاً الأمل بأن ما جبل عليه والدك من سلامة النية وما هو موصوف به من الحزم والنظر فى عواقب الأمور يكونان سببا فى قبوله الصلح وترك الخصام فيشير إليك بإيقاف عسكرك عن التوغل فى قلب الشام والروم وإطفاء نار الوغى حتى يأتيك الأمر بما كان وما سيكون، واعلم هداك الله أنك مسئول أمام جميع الدول العظمى عما ينجم عن تغلغل عسكرك فى داخلية البلاد والله عليم بالعاقبة فاعدل عن الحرب وانكف حتى يأتيك الخبر والسلام.

وكان الأمير إبراهيم فى هذه الآونة ينتقل بجيوشه من مكان إلى مكان يريد القسطنطينية فأرسل السلطان إلى قيصر الروس يطلب منه أن يسير لصد الأمير إبراهيم سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين وعلمت دولة الفرنسيس بذلك فأرسلت إلى السلطان تتهدده بمساعدتها للعساكر المصرية إن هو عاقد الروس على شىء من ذلك، ووصل فى هذه الأثناء الجنرال مورايف رسول القيصر إلى الإسكندرية وكلم محمد على باشا فى أمر الصلح فحاول محمد على باشا وطاول وأظهر الشدة وخاطب الجنرال مورايف بغلظة وحدة فغضب الجنرال مورايف وعمد إلى التهديد فضرب إلى محمد على باشا أجلا فخشى محمد على باشا شر العاقبة وكتب إلى ولده الأمير إبراهيم يقول: إذا أتاك كتابى بأية أرض فقف حتى يأتيك رسولى ثم أعلم مورايف بما كتبه فطير مورايف الخبر بذلك إلى الآفاق ففرح

السلطان ولم تنكث دولة الروس بعد ذلك فيما وعدت به السلطان وتمكنت فى هذه الآونة من التعاقد معه على الذب والدفاع عن جميع أملاك السلطنة العثمانية واحتلال أى جهة شاءتها بخيلها ورجلها أو سفن حربها فى أى وقت شاءت وسمت هذه المعاهدة بمعاهدة (خونكار اسكله سيى) فلما علمت الدول بخبر هذه المعاهدة امتعضت ولاسيما دولتا الفرنسيس والإنجليز فسعتا جهد الاستطاعة في إبطالها فلم تفلحا وخابت مساعيهما وخافت دولة الفرنسيس من تمكن دولة الروس من احتلال شئ من أملاك السلطنة العثمانية بسبب هذه المعاهدة فجعلت تراقب الفرص واشتدت عزيمة السلطان بهذه المعاهدة وقوى ظهره فجعل يتأهب ويستعدّ ويستعمل الحيلة فى إطالة الوقت بين أخذ ورد ليتمكن من لم شعث جنوده وجمع ما تفرق فى تلك الأصقاع من أعلامه، واتفق أن قدمت إلى دار السلطنة فى هذه الأثناء زهرة هانم أرملة الأمير إسماعيل ثالث أولاد محمد على باشا ابنة عارف أفندى قاضى عسكر ولاية آسية وكان شيخ الإسلام يومئذ بدار السلطنة تريد زيارة أبيها. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يكن ذهاب تلك السيدة إلى دار السلطنة لمجرد محض الزيارة كما كان يظن الكثير من الناس وإنما كانت رسول محمد على باشا فى التقرب من كبار السلطنة ومقدمى الدولة واستمالة أهل الحل والعقد من جماعة المابين بما لأبيها من النفوذ والكلمة المسموعة فسعت وأجهدت النفس وسعى أبوها ولبثت على هذه الحال أياما لم يخف فيها على عيون السلطان من أعمالها خافية فكان السلطان فى خلال ذلك يكثر من مناجاة الدول فى أمر إرجاع محمد على باشا إلى الطاعة ويستفزهم إلى الأخذ بناصر الحق وإزهاق الباطل فكان كلما عرضت الدول عليه رأيا حاول فيه وطاول ورد عليهم ردا جميلا وسألهم التوسع فى النصح قال الراوى: كل ذلك ليتمكن من الفرص المناسبة لأغراضه وقدمت بعيد قليل من الإسكندرية السفينة الحربية المسماة (النيل) لنقل الأميرة زهرة هانم فأرسلت تستأذن السلطان فى ذلك فأذن لها وأهداها هدية نفيسة وأحسن إلى رجال السفينة بشيء من المال للنفقة وسير معها أحمد فوزى باشا أحد رجال سفن الحرب فلما ألقت النيل مرساها وعلم محمد على باشا بمقدم فوزى باشا تغافل عنه ولم يظهر شيئاً من الاهتمام به وأوعز إلى حبيب أفندى أن يتلقاه ويكرم مثواه فأنزله حبيب أفندى منزلاً رحبا ورتب له المآكل والمشرب على أحسن ما يكون ولبث على هذه الحال أياماً لم ير فيها محمد على باشا ولا علم من أمره شيئًا حتى جاءه مرسوم السلطان بالقيام إلى القاهرة والالتقاء بمحمد على باشا ومناجاته فى أمر الصلح وفى العدول عما يغضب خليفته وسلطانه وقد أبلغ السلطان رجال ديوانه الخاص خبر بعثة فوزى باشا وطلب أن يبدوا فيها

رأيهم ليعمل هو به فقام برتو باشا وعارض فى ذلك كثيرًا. وقال: يا أمير المؤمنين والله ما مثل فوزى باشا فى مصر إلا مثل الحمل الصغير الذى ذهب إلى وكر الذئب الهرم ليعوده وهو يرجو السلامة من العطب فلا يغرنك من ذلك الشيخ نعومة كلامه وبساطة أحلامه فهو يا أمير المؤمنين أكبر من كل كبيرة والرأى أن ترسل إليه صارم أفندى مهر دار الخارجية فهو ابن بجدتها وأخو نجدتها فأعجب السلطان رأيه وسير فى الحال يطلب فوزى باشا وكان فوزى باشا إلى هذا الحين قد اجتمع بمحمد على باشا ووقع بينهما من المحبة والمودة ما أكبر معه العود إلى دار السلطنة ولكنه قام كارها ولم يستقرّ به فى دار السلطنة المقام حتى أرسل إلى محمد على باشا يقول: إياك وخفض الجناح إلى من سيقدم إليك واحفظ عليك نفسك وكرامتك حتى أرجع إليك فأتفق وإياك على ما فيه المصلحة لبلادك إن شاء الله تعالى.

(مطلب)

(مقدم صارم أفندى على محمد على باشا ليخابره فى الصلح)

ووصل صارم أفندى إلى القاهرة مع بعض الخدم والأتباع فأكرم محمد على باشا وفادته وبالغ فى الحفاوة به وأنزله منزلاً عظيماً فجعل صارم أفندى يغدو ويروح إلى مقر محمد على باشا ويكلمه فى الرجوع إلى طاعة سلطانه ومحمد على باشا تارة يظهر اللين وأخرى يظهر الشدّة وآونة يشكو مما يلاقيه من أفاعيل أهل الحل والعقد بدار السلطنة وأخرى يظهر الصبر والتجلد فسأله صارم أفندى يوما قائلا أما آن لك أن تخلص النية وتتمثل بين يدى خليفتك وسلطانك فتتعاقد معه على ما ترضيانه فاعتذر محمد على باشا وقال نفعل إن شاء الله إذا آذنت الفرص. قال الراوى لهذا الخبر: ويعجبنى من محمد على ما قاله يوما لأحد كبار الأجانب وكان من أصدقائه هلا علمت بخبر جنون القيصر نقولا قيصر الروس وكانت الجرائد أذاعت هذا الخبر زورا وبهتانا فقال ذلك الصديق نعم سمعته وهو من الغرابة بمكان فقال وعندى أنه ليس فى الأمر شئ من ذلك فإن جلالة السلطان متبوعى الأعظم أجن بكثير من نقولا إذ هو يدعو محمد على ذلك الشيخ الذى حنكته التجارب وهذبته المحن والنوائب إلى المثول بين يديه والتعاقد معه على ما فيه المصلحة. قال: ثم ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه. وطال مكث صارم أفندى بالقاهرة وهو ومحمد على باشا كل يوم فى أخذ وردّ وقد قال يوما لمحمد على باشا سيعطيك سلطانك ولايتى مصر وجزيرة العرب لك ولذريتك من بعدك إن أنت رجعت عن قصدك وأخلصت له النية وأقلعت عن عدائه فلم يلتفت محمد على باشا إلى قوله فقال ويوليك أيضاً ولايتى عكا وطرابلس أو صيدا وطرابلس بشرط أن تعيد إلى

حكومة سلطانك سائر ما أخذته من الشام فلم يقبل وقال لابد من بقاء سائر ما فتحته عساكرى فى يدى وفى يد ذريتى من بعدى فإذا تم ذلك قمت بإرسال الإتاوة فى حينها إلى الخزينة السلطانية ووفيت طاعة سلطانى حقها فعاد صارم أفندى بعد أيام إلى دار السلطنة ولم يمض على وصوله إلا القليل حتى ورد مرسوم السلطان بالرضا عن محمد على باشا وقبول توليته الولاية العامة على ديار مصر وبلاد العرب وجعل هذه الولاية فى عقبه من بعده الأرشد فالأرشد مع ولاية صيدا وطرابلس بشرط قيامه بحمل الخراج إلى الخزينة السلطانية فى آجاله وخفض جناح الطاعة إلى متبوعه وولى أمره فى السر والعلانية: وفى بعض الروايات أنه لما عاد صارم أفندى إلى دار السلطنة وقد بلغ ما وقع بينه وبين محمد على باشا من الأخذ والرد رسم السلطان فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية بتمليك محمد على باشا ديار مصر وكريد وتولية ولده الأمير إبراهيم ولاية جدة وتسليمه رياسة الحرم المكى مع ضم الشام إلى مصر وجعلها إرثا لذريته من بعده. قال الراوى: وجاء إلى مصر صارم أفندى أحد قرناء السلطان يحمل قاعدة هذا الوفاق ونزل على محمد على باشا بالإسكندرية فأكرم لقاءه وأحسن مثواه وأظهر له غاية المجاملة والتلطف. وقال له: إنما تعطى إلىّ بلاد الشام إلى طوروس كما تعطى لذريتى من بعدى. قال: فراجعه صارم أفندى وقال: هذا يكون غير ما أذن به أمير المؤمنين والمصلحة أن تنكفوا عن إراقة دماء المسلمين ولا تحاربوا الله ورسوله وكفى ما مضى فقال محمد على باشا: لا سبيل إلى غير ما أقول ولا مصلحة لى إلا فى الذى أنا طالبه فقال صارم أفندى: والمصلحة عندى أن تتمثل بين يدى سلطانك فيهون الأمر وتنفرج هذه الأزمة فقال: نفعل إن شاء الله فعاد صارم أفندى إلى دار السلطنة ولم يتم له مع محمد على باشا شىء، قال: وقد كان صارم أفندى هذا يحمل معه عند ذهابه إلى مصر عقد الصلح الذى كان وقع الاتفاق عليه فى بلد كوتاهية التى هى مقر الأمير إبراهيم وعساكره يومئذ، **قلت**: ومع بحثى عن معاهدة كوتاهية هذه لعلى أعرف لها تفصيلا إذ هى من أهم المعلقات التاريخية لحروب محمد على باشا مع دار السلطنة فلم أجد لها أثرا ولم أقف لها على خبر فى مؤلفات أصحاب التآليف من الغربيين والشرقيين وعلى الخصوص مؤلف الشهير تيتسا الفرنسوى الذى تجرد لجمع سائر المعاهدات والعقود والرسائل التى دارت ما بين الدول كافة ودار السلطنة العثمانية غير أنى وجدت فى مؤلفه المشار إليه صفحة ٣٥٠ ما تعريبه: ولقد طالما زعم مؤرخو الغرب أن الخلاف الذى وقع بين الباب العالى ومحمد على باشا صاحب مصر انتهى بعقد المعاهدة التى سميت باسم كوتاهيه وهى

المدينة الكائنة بآسية الصغرى وعندى أن لا أثر ألبتة لهذه المعاهدة ولم تحصل مطلقا غاية ما وقع أن السلطان أرسل إلى محمد على باشا بعض الفرمانات والخطوط الهمايونية فعلم منها محمد على باشا مقاصد الباب وبيان ما يريد السلطان منحه إياه من البلاد والامتيازات الأخرى التى اقتضاها يومئذ الحال. قال :ثم بعد أن تبادل الفريقان الأخذ والردّ انحسمت الأسباب ووقعت الهدنة بين الفريقين حينا من الدهر. انتهى.

(مطلب)

(عقد المجلس الشرعي بدار السلطنة، والحكم بعصيان محمد على باشا وولده إبراهيم ثم الحكم عليهما بالتجريد والقصاص بالموت)

وأرسل محمد على باشا من فوره إلى دار السلطنة بعد قيام صارم أفندى يقول: ليس فيما رسم به السلطان شيء مما وقع الاتفاق عليه مع مبعوث الباب وأنه يبقى الحالة الراهنة على ما هى عليه من عدم قبول شيء من ذلك ألبتة وسير إلى ولده الأمير إبراهيم بالتأهب والاستعداد إلى إصلاء نار الحرب ثانياً وعدم الوقوف عند حد، ووصلت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فأعظم السلطان الأمر وأكبره ورسم بعقد مجلس شرعى لينظر فى أمر عصيان محمد على باشا وولده ويحكم بالجهاد فيهما فانعقد المجلس فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى الشهر المذكور سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف فحضر فيه ثلاثة من المفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضيا وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية وشيخا جامع آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمع عقد نظامهم رسم السلطان بتوجيه الأسئلة الآتية إليه:

ما الذى جاء به الشرع الشريف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين؟

الجواب عن ذلك: قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة.

ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذى أحسن إليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدراً وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين؟

الجواب عن ذلك: يجرد عن سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد إليه بأمر من أمور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته لوحوش البرية أو إلى طيور الفلاة وهذا جزاؤه فى الدنيا وفى الآخرة الخزى والنار الآكلة.

هل يكون الخليفة مسئولاً بدم ذلك المارق أمام الله والناس؟

الجواب عن ذلك: لا جناح عليه ولا تثريب فإنه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف.

ثم اختلى القوم ساعة وأصدروا الحكم الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، حيث ثبت خروج محمد على وولده إبراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولا بتجريد محمد على وولده إبراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما قتلا مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان . اهـ.

وجاء الخبر إلى محمد على باشا بما جرى فى دار السلطنة فلم يحفل به ولم يلتفت إليه وسير الكتب إلى ولده إبراهيم بالإكثار من الحصون والقلاع على خط جبال الطورس التى هى مفتاح الشامات من جهة آسيه وامتنع من حمل الخراج إلى الخزينة السلطانية وشدد فى تعبية الجيوش وإعداد المعدات وسير كثيراً من قطع السفن الكبار مشحونة بالمؤن والذخيرة إلى ولده فسعى سفراء السلطان لدى الدول الكبرى فى وساطتهن فى الأمر والعمل على إيقاف محمد على باشا عند حده وكانت دول أوروبا تعرف أنه إذا اشتدت نار الوغى بين محمد على باشا وسلطانه وتم لمحمد على باشا ما يتمناه من تغلغل عسكره فى داخلية آسية وضم أكثر بلدانها إلى مملكته التى يريد الاستقلال بها وجعل قاعدتها على ضفاف النيل عمدت دولة الروس إلى العمل بمقتضى معاهدة خنكارا سكله سى فتنشب أظفارها فى جوف المملكة العثمانية وتنال منها غنما فيستعصى على الدول إرجاع الشئ إلى أصله والله يعلم بما سيكون من وراء ذلك، فكتبت دولة الفرنسيس على يدى البارون روسين متولى أعمال خارجيتها إلى محمد على باشا تقول قد آن للسلطان أن يعدل عن تلك الحرب المشئومة بعد أن عرف قدرك وتحقق أن لا قبل لعسكره على لقاء عسكرك المنصور بحسن قيادة ولدك وقد عاد عما تعاقد عليه مع قيصر الروس وقد سير إليه بإيقاف إرسال تلك النجدة التى كان يطلبها لقتال ولدك وودّ لو لم يكن قد تسرع فى الأمر

ولكن القيصر لم يلتفت إلى شئ من ذلك ورسم فأتت إلى بوغاز القسطنطينية سفينة من أكبر سفن الحرب الروسية فـألقت مرساها والله سبحانه يعلم بما سيكون من وراء حضـورها إن أنت أبيت الصلح وصـممت على القتـال فاحـذر التطويل وأقلع عن التسويف والتعليل ولا تفتح لخـصوم الدولة باباً يلجونه للإضرار بها وأنت هداك الله شريك لسـلطانك فى السراء والضـراء وسيقـدم عليك خليل باشا مـبعوثـاً من قبل السلطان ومـعه شـروط الصلح التى تقررت قـاعدتهـا فلا تأباها عليـه ولا تشط فى الطلب فـتـدفع بدولة الروس إلـى ابتـلاع مملكة سلطانك واذكـر أنك إن عـاقـدت سلطانك على الصلح حـقنت دماء قومك وعـملت ما فيـه المصلحة لبلادك فـعجل بتسيير رسلك إلى ولدك بالكف عن القتال واقبل من سلطانك ما تنازل لك عنه فقد عـفا عنك وولاك حـكم عكا وجمـيع أراضى بيت المقـدس والشـام ونابلس وإياك والطمع فإنه يجلب عليك وعلى بلادك وبالاً ونكالاً واعلـم أن دولة الفرنسيس التى هذبت رجـالك وعلمت فنون الحـرب لإبطالك هى التـى أشارت بعـقـد رباط هذا الصلح ورضيت عن القاعدة الواصلة إليك وأرسلتنى إلى دار السلطنة لهذه الغاية فلا تأبى الكرامة ولا تطع هـوى النفس وسيصل إلى مـقرك السامى كـتابى هذا على يد كبير تشريفات ديوانى فأكرم وفادته كما عوّدتنا الجميل والسلام.

وأرسلت كذلك دولتا النمسا والإنجليز إلى محمد على باشا على يدى قنصليهما تهددانه بأشد ما يكون من التهديد إن هو لم يقف عند حد الطاعة لسلطانه وأرسلت إليه دولة الروس تقـول أيضًا إن لم تعدل عن غـيك وتنكف عن عدائك وترجع إلى طاعة سلطانك عملت بمقـتضى ما بينى وبين سلطانك من العهد وفـعلت ما تسئوك عقبـاه ومالم تطق عليه صـبراً إذا لم تعجل دولتا الفـرنسيس والإنجليز بحصـر سائر السواحل المصرية والشامية بسفن حربهما وتضيقا عليها تضييقًا ثم وإياك والشطط فى دعـواك بعـد الذى تنازل لك عنه خـليـفـتك فـالله الله فى نفـسك وأهلك وولدك والسلام.

(مطلب)

(ما كتبه محمد علي باشا إلى صاحب سياسة الفرنسيس)

فكتب محـمد على باشا إلى صـاحب سياسـة الفرنسيس يقـول: أما بعد فـقد وافانى كـتابك الشريف على يدى كبـير تشريفات مـقرك المنيف وقد ذكرت فـيه أنه بمقتضى قاعدة الاتفاق التى قررتموها لم يبق لى حق فى شئ من البلاد الشامية سوى

حكم ولاية عكا وطرابلس الشـام وبيت المقدس ونابلس وبعض مدن أخـرى أخجل ويعلم الله من ذكـرها وأنه يلزمـنى بعد ذلـك استـرجـاع جـميع جنودى من بلاد الأناضـول والمبادرة إلى عـقد رباط الصلح مع سـلطانى فإذا أبيت ذلك قـامت دولة الفرنسـيس بخيلها ورجلهـا لتذيقنى وجمـيع أهل بلادى النكال، أعاذنا الله معـاشر المصـريين من ذلك ولقـد بلغنى رسولك هداه الله أنـى إن لم أبادر إلى قبـول تلك الشروط الجائرة وأحلها مـحل السمع والطاعة سيرت إلىّ دولتا الفـرنسيس والإنجليز سفن الحرب والشوانى الكبار مشحونة بالرجال لتكرهنى على الطاعة والتسليم، فقل لى بحقك كيف جاز لكم إكراهى وأى شرع من شرائع الأمم المتمدنة أحل لكم هذه الفعال أو ترضى أمة الفرنسيس أم التمدن ومـهد الحرية والتفنن أن أترك بلاداً فتحتها بالسيف والجهاد والكفاح والجلاد قضـية مسلمة اعلم أن قومى وسائر أهل بلادى هـم طوع أمرى واقفون عند حد إشارتى فلا شئ عندى أقرب من أن أقود بنفسى جيوشى تلك المظفرة وأسير بها لفتح جميع بلاد الأناضول والروم إيلى وأبذل النفس والنفيس فى ضم كل مـا استـطعت ضمـه إلى مملكتى مـا دام فىّ قطرة من دم وثق بأنى قـد وطنت النفس على ذلك فلا حول لى عنه ولا مندوحة منه وإنى لأعجب كيف تشدد علىّ النكير وتكرهنى على ترك بلاد قد حكمـتها بالفتح والغزو وتكبدت فى فـتحها جيـوشى أصعب المصـاعب وأتعب المتاعب وأريقت فـيها الدمـاء الكثيـرة وضاعت الخزائن الوفيـرة وعلم أهل المعمور شرقًا وغـرباً شهامة رجالى وبسـالة أبطالى ونبالة مقـصدى واستبـشر الناس طرا بأنى سأوفق إن شـاء الله تعالى إلى فتح جـميع بلاد الدولة العثمانية وأنال منها قـبل أن تنال دولة الروس وهل يجمل بك أن تشير بتركى مصر والاستعاضة عنها وأنت تعلم أنها لا تفارقنى أبدًا ولا أفارقها إلا بمفارقة الروح للجسد فافقه يا هداك الله واعـدل ولا تكن من المجحفين واذكر أن المروءة لا ترضى بذلّ من وطن النفس على القيـام بخدمة الشـرق عموماً ودولة آل عـثمان خصـوصاً والسلام.

(مطلب)

ما كتبه محمد علي باشا يهدد به الدول

قال بعض الكتاب: ثم لم ير محمد على باشا بعد كل هذا التهديد والوعيد بدًا من العدول عن طلب الاستقلال التام بحكم ما بيده من ديار مصر والشام إلى طلب الولاية بالتوريث فى عـقبه من بعـده وأن يكون حكمه فى ذلك كـحكم ولاة بغداد

وعلى باشا والى يانيا وسير الكتب إلى سفراء الدول وكلم سفير الفرنسيس فى ذلك طويلاً فلما لم ير منهم أذنًا صاغية عمد إلى التهديد، وكتب إليهم ثانية يقول كتابى إليكم يا أنصار الإنسانية وعهدى بكم الوفاء وحسن الإخلاص والولاء وإنى والله لا أدرى ما علة هذا الجفاء مهلاً مهلاً مابالكم تجافيتم بعد ذلك العطف والتلطف فإن كنتم ترون فى طلبى الاستقلال بملك مافى يدى شططًا وغنمًا لا تحمد عقباه فقد عدلت عنه إلى طلب الولاية وجعلها ميراثًا بعدى إلى ولدى ولا أخالكم تنكرون علىّ ذلك أيضًا بعد الذى تحققتموه من أمرى فإن شئتم فعلتم ذلك وإلا فدون استسلامى إلى سلطانى على يدكم خرط القتاد ولا لوم علىّ ولا تثريب إذا جاهرت بالذى أبتغيه وحافظت على ما بيدى من البلاد بحد السيف فقد عشت طويلاً ورأيت كثيراً وخير لشيخ مثلى أن يموت عزيزًا موقرًا من أن يموت حقيرًا مرذولاً وكيف ذلك وأنا لم أطلب شيئًا يتعدى مصلحة أوروبا السياسية ولم أسأل ما هو من العنت والخيلاء فى شئ فملكم تراوغوننى مراوغة ما أنزل الله بها من سلطان ألكونى على غير دين المسيحية لا أظن ذلك ويعلم الله فإن المروءة والشهامة تأبيان الإضرار بمن لا يسعى إلا إلى غاية شريفة ومستقبل شريف لذريته من بعده ولقد أكثرت من الشكوى ولم أخف عنكم ما وطنت النفس على عمله فلم يبق إلا أن أقول علانية إنى عاهدت النفس أخيرًا على الخوض فى معامع الحرب والجلاد حتى الموت فإن فازت الدول بالانتصار وألحقت بى وبعسكرى البوار فهذا لا يزيدها شرفًا ولا يكسبها غنمًا إذ أنها أكبر من ذلك كثيرًا وإن أتاح الله سبحانه لى الظفر ووفقنى إلى سبل الغلبة والنصر أريت، الدول عاقبة هذا الأمر وأنبأتها بما لم تطق عليه الصبر وكم من فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والسلام.

(مطلب)

احتفال السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه وهدية محمد علي باشا

واتفق فى غضون هذه الحوادث أن احتفل السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه على خليل باشا أحد كبار رجال الدولة فعمل لذلك الأفراح والولائم وأتت إليه هدايا الملوك والسلاطين والولاة من كل صوب وحدب فأرسل إليه كذلك محمد على باشا شيئًا كثيرًا من الأعلاق النفيسة والتعابى الثمينة والجواهر النادرة المثال فلم يكن احتفال السلطان بها إلا كاحتفال الدائن يأخذ ماله فى ذمة مدينه ولم يردّ على

محمد على باشـا ردًا جميلاً فامتعض محـمد على باشا من ذلك وعاد إلى الشكوى من فعال الدول ووقوفهم فى وجـهه فكلم وكلاء الدول السلطان فى وضع حد لهذا النزاع والخـصام يكون من ورائه فـصل الخطاب والكف عن إراقة تلك الدمـاء هدرا فأجابهم بأحـسن جواب وأخذ على نفسـه هذا العمل وهجر سرايه المعـروفة بسراى استافـروى فرارًا من الطاعون الذى دخلها بالـعدوى من بعض الشيلان الكاشـميرية التى جاءته هدية من قاضى القضاة بمصـر ومنع رجال دولته من التداخل فى أمر حل هذه المشاكل ولم يشرك معه فى حلها سـوى سعيد بيك كاتم أسراره الأول وواصف أفندى كاتم أسراره الثانى وجعلت رسله تتردد على مقر سفير الفرنسيس وطال الأخذ والرد فى تقرير قاعـدة لتنازل السلطان عن ولاية مصر وتركها إلى محـمد على باشا ثم إلى ذريته من بعـده ميراثًا للأرشـد فالأرشد وعن ولاية الشـامات مقيـدة ببعض القيود اللازمة لحـفظ حقوق المتبوع على التابع وألح سفـير دولة الفرنسيس فى ذلك وأكثر من التشديد فلم يفلح.

(مطلب)

ضرب الجزية على أهل حوران ولبنان

وكتب مـحمـد على باشا إلى ولده الأميـر إبراهيم يأمره بالتـأهب والاستـعداد لإصلاء نار الحـرب فى الأقرب العاجل فجـعل الأمير إبراهيم يتـأهب وقد بالغ فى ذلك ففرض على أهل الشام الفرض الفادحة وضرب الجزية على أهل حوران ولبنان وقد أحس مـنهم بالشر والخـروج عن الطاعة فألـزمهم الصغـار واشتـد فى تذليلهم وعمت الجزية سائر أهل تلك الأصقاع وقد كان عمال السلطان قبلاً لا يفرضونها إلا على اليهود والنصـارى دون المسلمين فعم القلق من أقرب البـلاد إلى أقصاها وبدت إشارات العـصيان وعلم الأميـر إبراهيم بحضور جـماعة من عـيون السلطان وأنهم يجوبـون البلاد ويحضـون الناس على الخروج وإضـرام نار الفتنـة فبالغ فى الحـيطة والتحـرز وبلغ جيـشه الذى جمـعه فى هذا الحـين زهاء ثمانية عـشر ألفـًا، وجعل السلطان يكثر أيضًا من حـشد الجيوش ويعد المعدات ويرسل الجند تـباعًا إلى حدود الشامـات وقلب آسيه وسلم قـيادتها إلى حـافظ باشا أحد كـبار الحرب وعـمد إلى الإضرار بمحمد على باشا ماليًا أيضًا فـعاقد دولة الإنجليز على يد رشيد باشا واللورد بونسنبى على منع احتكار المحـاصيل المصرية فكبر هذا الأمر على محـمد على باشا وكاد يسقط فى يده لحاجته إلى المال لنفقة الجنود وجعل يفكر فى تجديد المخابرات مع

الباب العالى مباشرة مبتعدًا ما استطاع عن وساطة الدول سادًا دون ذلك كل منفذ وباب.

(مطلب)

سفر محمد علي باشا إلى السودان في طلب معادن الذهب

قال بعض الكُتاب: وكان يرى أنه فى حاجة إلى المال الذى هو أكبر معين على بلوغ هذه الآمال فعزم على الرحيل إلى بلاد السنار فى طلب معادن الذهب حتى إذا فاز منها ببلوغ الأرب أعطى ووهب وقهر وغلب وقلب إلى تلك الدول ظهر المجن بعد الذى عاناه بسببهم من المكايد والمحن وقال آخرون: بل كان يقصد بهذه الرحلة الطويلة تغيير مجرى الحوادث وتفريج تلك الأزمة التى استحكمت حلقاتها بما كان يأتيه من التشديد والتهديد وقد كان يرى من دولتى الروس والإنجليز عدوًا لدودًا وخصمًا مشاغبًا كنودًا وأن رجوعه القهقرى بعد ذلك التشامخ والتعاظم يكون نقطة سوداء فى صحيفة أيامه فعمد إلى تلك الرحلة وعقد النية على أنه إن عاد سالمًا لا يظهر فى ميدان ذلك المعترك بمظهر البادئ بالشر إلا إذا اضطره الخصم إلى القبض بكلتى يديه على حر هذا الجمر، وكان معه فى هذه الحملة كثير من العمال وأرباب الصنائع والبنائين والمهندسين وأصحاب علم طبقات الأرض من الفرنسيس وغيرهم وجماعة من القبط والملتزمين والخدم والأتباع وجاهد من مشاق الأسفار ما لا يقدر عليه إلا القليل فلما وصل إلى سنار جاءه مشايخ القبائل وأمراء السود وبعض سلاطين ذلك الصعيد خاضعين وقدّموا له الهدايا النفيسة من الذهب وكثيراً من الإماء والعبيد والخصيان وسن الفيل والريش والعطريات فأكرم لقاءهم وبالغ فى الحفاوة بهم وحادثهم فيما هم عليه ووعدهم خيراً إن هو ظفر بأمنيته من تدويخ سائر ولايات السلطنة العثمانية وتم له الاستقلال بملك سائر ما بيده من البلاد ثم بث سائر من معه من أصحاب علم طبقات الأرض فى أنحاء السنار يجوبون الصحارى والقفار علهم يهتدون إلى شئ من معادن الذهب فلم يوفقوا إلى ذلك ألبتة سوى ما عثروا عليه من بعض الرمال المخلوطة بالشئ اليسير من القشور الذهبية فأحزنه هذا الأمر وسار عن السنار وقد ترك بها جماعة من المهندسين والعمال والكُتاب وأصحاب طبقات الأرض وهو على عزم أن يؤسس بها مستعمرة يسميها باسمه ووافق وصوله مدينة القاهرة يوم افتتاح سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية فعلم بخبر وصول بعض السفن العثمانية ومعها الهدايا والتعابى المعتاد إرسالها فى

كل عام إلى مكة والمدينة وكان الموكل بتوصيل تلك الهدايا نائب أمير سفن الحرب العثمانية فلم يحفل محمد على باشا بقدومه وأغضى عنه وكأنه لا يعلم من أمره شيئًا فأرسل إليه النائب يقول: أمير المؤمنين يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول: عجل بحمل الخراج ولا تحدث حدثًا بعد الذى علمته من إغضاء سلطانك وعفوه عما فات فلم يردّ عليه أيامًا ثم أرسل إليه كتابًا يقول فيه لست فى استعداد للقائك الآن فارحل عنا ثم عد بعد أربعة أشهر فلم يسع النائب المذكور إلا العود خائبًا مقهورًا.

(مطلب)

انقسام رجال الدولة العثمانية وعدم اتفاقهم على استمرار القتال مع محمد علي باشا

وانقسم رجال الدولة من هذا الحين إلى فريقين مختلفين أحدهما يقول بلزوم الحرب وإصلاء نار الوغى مع محمد على باشا حتى يرجع صاغرًا وكبير هذا الحزب أحمد قبطان باشا وثانيهما يقول بلزوم التأنى وترك العجلة والأخذ بأسباب المساهلة حتى تخمد نار هذه الفتنة وتعود الأمور إلى ما كانت عليه من المودة والصفاء بين المتبوع وتابعه ورأس هذا الحزب خسرو باشا قال بعض الكُتّاب: وقد كان خسرو هذا من ألد أعداء محمد على باشا وأكبر خصومه وهو الذى كان واليًا على ديار مصر أيام على بيك الكبير شيخ البلد ومراد بيك ووقع بينه وبين محمد على باشا من البغضاء ما قامت الحرب بسببه بين أصحابه وعسكر محمد على باشا أيامًا كثيرة حتى خلعه محمد على باشا وأخرجه من مصر خاسرًا مقهورًا وولى مكانه خورشيد باشا (كما هو مذكور فى محله من الجزء الثالث من كتابنا هذا) قال الراوى: ومع ذلك فقد كان من المحقق الذى لا مراء فيه أن خسرو باشا مع قيامه بزعامة حزب السلم كان يرجو قهر أحد الفريقين المتحاربين وغلبته ويقول: إن دحر محمد على وقهرته العساكر السلطانية كان ذلك غاية ما أتمنى أن يحيق به جزاءً له على خلعى من ولاية مصر وإخراجى منها قهراً وإن ظفر محمد على بالعساكر السلطانية ومزق شمل جمعهم كان ذلك ما أرجوه كى يحيق برشيد محمد باشا وحسين باشا مقدمى العساكر السلطانية العار والشنار والخزى والبوار.

(مطلب)

خروج أهل الشام وانتشار الفتنة

وعلت فى غضون هذه الحوادث ضوضاء أهل حوران ولبنان وكثر ضجيجهم ونادوا باللخلاص من نير عبودية الأمير إبراهيم وجور عسكره وقدمت رسلهم إلى دار السلطنة يصيحون المدد وقد كان لما أحس أهل الشام بضعف جيوش الأمير إبراهيم قاموا على عماله وخرجوا عن طاعتهم وانبثت عصاباتهم فى القرى والبلدان يدعون الناس إلى شق عصا الطاعة فهبوا جميعًا إلى الثورة فأرسل الأمير إبراهيم إلى أبيه بالإسكندرية يستنجده فسار محمد على باشا من فوره إلى يافا ومعه الهدايا النفيسة والتعابى الفاخرة فلما ألقت سفينته مرساها طلب وجهاء البلد وأعيان القوم وكبار القبائل فحضروا إليه فأحسن لقاءهم وخلع عليهم الخلع النفيسة وأعطاهم التعابى الغالية وبالغ فى استمالتهم فمالوا إليه وعاهدوه فأرسل إلى ولده يقول عجل بالخروج وقاتل ما استطعت وشرد أصحاب الفتنة وشدد عليه فى ذلك وبالغ فى توبيخه وتعزيره استرضاء لأصحاب العهد فخرج الأمير إبراهيم بعسكره وحارب أصحاب الفتنة وقاتلهم قتالاً عنيفًا حتى دوّخهم وظفر بهم ثم ركب على نابلس وقاتل من بها فقاتلوه وصبروا على قتاله أيامًا كثيرة ثم عادوا فطلبوا الأمان فأمنهم وركب كذلك على الكرك والسلط وأمر عسكره فهدموها ودكوا حصونها وأخضع جبال الناصرة وأرجع أهلها إلى الطاعة وسير جماعة من عسكره إلى اللاذقية فبينما هم فى طريقهم إذ خرج عليهم أهل الناصرة ثانية فنالوا منهم قتلاً وجرحًا وتشريدًا فرجع من بقى إلى حيث الأمير إبراهيم فكبر عليه هذا الأمر وأخذ فى التدبير على أهل الناصرة وعاهد الأمير بشير الشهابى على الذب والدفاع فجيش الأمير بشير عسكرا لقتال أهل الناصرة وقدم عليهم ولده الأمير خليل وجيش كذلك الأمير إبراهيم جيشا آخر وسلم قيادته إلى الأمير خليل فسار بهم إلى الناصرة وقاتل من بها فوقعت بينهم عدة وقائع كانت الحرب فيها سجالاً وما زال الأمير يقاتل والمدد يأتيه تباعًا حتى ظفر بأهل الناصرة وأخضعهم وقبض على كبارهم وسلمهم إلى الأمير إبراهيم فمثل بهم وقتلهم وبالغ فى التحذر واستئصال أسباب الفتنة فرسم بجمع ما فى أيدى الشاميين من سلاح وآلة حرب وشدد فى ذلك وتوعد وطاف القرى والبلدان ومعه جماعة من العسكر يكبسون الدور ويحفرون الفسحات ويهدمون الجدران ويخرجون ما فيها من سلاح وآلات حرب فكانت شيئًا كثيرًا فخافه الشاميون

وانكمشوا وانمحت آثار الفتنة وخضعت جميع الشامات فلم يتركهم بل عمد إلى إذلالهم وتنكيلهم ورسم بجمع كل ما قدروا على جمعه من الخيل ودواب الحمل وأدخل الشبان من أولادهم فى مصاف الجند وسيرهم إلى أقصى البلاد فكان عمله هذا من أشد الضربات على الشاميين وكان كلما بدت منهم دالة التمرد أو الخروج فعل بهم كذلك فيرجعون إلى الطاعة وقد تراكمت الشكاوى من ذلك على الباب العالى فأبلغ السلطان وكلاء الدول خبرها وقال لابد من خروج إبراهيم وعسكره من الشامات وجلائهم عنها بغير معاودة وإلا فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار فراجعته دولة الفرنسيس وكذلك فعلت دولة الروس آخذة فى هذه الآونة برأى كبير سياستها المسيو روبوتانوف. قال أصحاب التاريخ: فقد كان هذا الرجل من فحول أصحاب السياسة ومقدمي رجال الرياسة كثير المعرفة بأحوال الدول فلما رأى من اللورد بونسنبى سفير الإنجليز من المواربة والدهاء أدرك ما وراء ذلك فاستدرك الخطأ وعمد إلى تغيير خطة سياسة دولته من المكابرة والمعاندة إلى المساهلة والمجاملة واتبعته فى ذلك أيضًا دولتا بروسيا والنمسا وأكثروا جميعًا من الأخذ والرد مع السلطان وهو يطاول ويحاول ويظهر خلاف ما يبطن حتى خشى حزب السلم من تفاقم الخطب واشتداد الكرب وعمد إلى طلب خلع أحمد قبطان باشا مقدم حزب الحرب فلم يفلح لمكانته وقربه من السلطان فعدل عن ذلك إلى طلب تحقيق حالة الشامات وما إذا كانت تستلزم البقاء على هذه الحرب المشؤمة التى لا يعلم عاقبتها إلا الله وحده وألح خسرو باشا بطلب ذلك وزين للسلطان العمل برأيه فأجابه كارهًا وسير سعيد باشا ناظر الحربية إلى الديار الشامية وكانت العساكر السلطانية إلى هذا الحين نازلة بملاطية وقد فعل فيها برد ذلك الشتاء فعله وقلت عندهم المؤن وفشت بينهم الأمراض وكثر الموات وساءت حالهم وبدت منهم إشارات الخروج وشق عصا الطاعة فكان حافظ باشا مقدمهم يخشى عاقبة ذلك ويلح على السلطان بطلب الإذن بفتح باب الحرب والزحف بعساكره لقتال الأمير إبراهيم فأجابه السلطان إلى ذلك وسير إليه ثلاثة من كبار قواد الجيوش البروسياويه وبينهم البارون ملتكه الشهير ليكونوا له عونًا على العمل فسار حافظ باشا بعسكره من ملاطية يريد الشامات وعبرت طائفة منهم الفرات ومقدمهم إسماعيل باشا وسارت على أكمل ترتيب ونظام حتى اقتربت من حلب وكان الأمير إبراهيم قد سار عن حلب إلى حوران ليرى المزارع وغرس الأشجار الكثيرة التى أشار بغرسها فى تلك الأصقاع فلما جاءه الخبر بوصول العساكر السلطانية أرسل إلى قواد عسكره يستحثهم على التأهب والاستعداد وجمع

إليه مشايخ قبائل وبلاد تلك الأنحاء واستحلفهم على الطاعة والولاء فحلفوا له الأيمان الغلاظ وكان ممن حضر معه فى ذلك اليوم سليمان باشا الفرنسوى فقال له: أيها الأمير خفف عنك فوالله إما أن تدخل دار السلطنة فى هذه المرة بعسكرنا المنصور وإما أن نعود إلى ديارنا مدحورين خاسرين فسرّ الأمير إبراهيم عند سماعه هذا الكلام وقال بوركت يا سليمان والله لن يكون إلا دخولنا بإذنه تعالى ظافرين غانمين، وأحاطت العساكر السلطانية بالشامات ونزلت على بلادها من كل صوب وحدب واجتمع لهم عند مدينة قونية كثير من الجند وتأهبوا للهجوم على البلد والولوج منها إلى المفاوز الموصلة إلى مدينة أطنة وجاءت كتب السلطان إلى عزت محمد باشا والى أنجور بتجييش الجيوش وإعداد المعدات مددا عند مسيس الحاجة وسار كل من والي بغداد ووالى الموصل فى عسكر عظيم مددا إلى حافظ باشا. قال بعض الكُتاب: ولم يكن سير هذين الأميرين بعسكرهما إلا لإمداد الأمير إبراهيم ومعاونته على قتال عسكر السلطان وكان الأمير إبراهيم فى خلال هذه الحركة وتعبية تلك الجيوش الجرارة ساكن القلب هادئ اللب وهو مع ذلك يعلم أن جيوش السلطان التى جاءت لقتاله فى هذه المرة زهاء المائة ألف وخمسين ألفًا فضلاً عما وصل أيضًا من سفن الحرب الكبيرة والشوانى المشحونة بالمدافع والمقاتلين وجعل يرتب جيوشه ويرسلها إلى مواقف القتال فسارت منها طائفة إلى مرعش وأخرى من أصحاب المدافع إلى عنتاب لرد أهلها إلى الطاعة فإنهم لما أحسوا بقرب العساكر السلطانية منهم ثاروا على عمال الأمير إبراهيم وشاغبوهم وسارت طائفة أخرى من الفرسان وأصحاب المدافع إلى حماة ومعهم جماعة من عربان الهنادى ومقدمهم قفطان بك وخرجت قبيلة العنزة عن طاعة السلطان أيضًا وانضمت إلى العسكر المصرى فهال السلطان خروجهم وأزعجه واهتم محمد على باشا بجمع المال لنفقة الجند واحتياجات العسكر فزاد فى فرض الفرض وضرب المكوس والمغارم على سائر أهالى البلاد بلا فرق بين الغنى والفقير والصغير والكبير من التجار وأرباب الحرف والصنائع والكتاب والملتزمين وبالغ فى جمعها وبث الجباة والمأمورين يجوبون البلاد شرقًا وغربًا فى طلب ذلك فاشتدوا على الناس شدة بالغة وأخذ أيضًا سائر ما كان مودعًا من المال بصندوق التوفير من مال أرباب الرتب العالية وأصحاب الوظائف السامية وقدره ثلاثون ألف ألف قرش وخرج إلى بعض المدن مثل طنطا والمحلة وشبين الكوم والمنصورة وفارسكور وغيرها ليحض الجباة والمأمورين على جمع المال

وكتب إلى الأمير إبراهيم يقول: لا تعجل بفتح أبواب الحرب وكن مدافعًا لا مهاجمًا حتى تعرف دول أوروبا أن سلطانك هو البادى بالشر والبادى أظلم.

(مطلب)

اتخاذ حلب مقرًّا لحركة العساكر المصرية واستحلاف أهلها على السمع والطاعة

وكان إلى هذا الحين قد انقطعت المواصلات بين الشام ومصر وبلاد الترك وانقطع ورود القوافل بالتجارة واستوحش كل قرين من قرينه واشتد الخوف بأهل تلك الأطراف من عبث الجيوش العثمانية وإهلاكهم للحرث والنسل، وقدم طاهر باشا رسولاً من قبل السلطان إلى حافظ باشا مقدم العسكر السلطانى يحمل المرسوم بفتح أبواب الحرب وإصلاء نار الوغى وكانت عيون الأمير إبراهيم تنقل إليه الأخبار فأعلموه بخبر ما هى عليه العساكر السلطانية من القوة ووفرة العدد والعدد وحصانة الموقع فاتخذ حلب مقرًا لحركة جنوده واستحلف عظماءها ثانية على السمع والطاعة فحلفوا فجبا أهلها الجزية سلفًا فدفعوها فكانت ثلاثة آلاف كيس ومائة كيس واستقرضهم قرضًا قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف قرش فأقرضوه إياه فكان ما خص النصارى والمسلمين من هذا القرض ثلاثمائة ألف وما خص اليهود خمسة وسبعين ألفًا وسير لحراسة بعلبك ومنع القادم من العساكر العثمانية إلى حوران ولبنان طائفة من الأرناؤط ورفع عن أهلها الجزية وسائر المغارم كى يخلدوا إلى السكون وأباحهم الزرع بلا مال ولا خراج وأجاز لهم انتخاب شيوخهم ومديرى أمورهم وأعاد إليهم ما كان قد جمعه منهم من الأسلحة وآلات الحرب وأقام عليهم شبلى عريان أحد كبارهم ومقدّمى حزبهم عينًا ليراقب أحوالهم ويحرس دروبهم وبالغ جدًا فى الحيطة والتحرز من أهل تلك الأطراف لشدة بأسهم وصبرهم على الحرب والقتال.

(مطلب)

عود قناصل الدول إلى مكالمة محمد علي باشا في الصلح وما كان من وراء ذلك

ووردت كتب الدول إلى وكلائهم بالإسكندرية بأن يعاودوا محمد على باشا فى كف ولده عن الزحف والقتال. قال بعض الكتاب: وكان كتاب كبير سياسة الروس

فى ذلك إلى قنصلهم شديد اللهجة غليظ الكلام وكـان محمد على باشا هذه الأثناء يجوب البـلاد وقد وصل إلى مدينة دمياط فسار إليه قنصل الروس وأبلغـه الرسالة وأخبره بخبـر كتب الدول إلى وكلائها فغضب محمـد على باشا وعاد من فوره إلى الإسكندرية فـاجتمع إليـه سائر القناصل وجـعلوا يكلمونه فى الإقـلاع عن كل هذا العداء والكف عن الحرب واستدعاء ولده ومن معـه من العسكر وتقرير قاعدة أخرى للصلح قال: فـامتـعض محمـد على باشا وقال مـا بالكم تسعـون فى الإضرار بى وبأهلى وولدى ومـا بالكم تضربون على يدى وتطلقـون يد السلطان يقـتل من شاء ويخرب ما شاء ويحرق ما شاء أو لم تخافوا الله وتحكموا بالقسط بينى وبينه والله لن أرجع عن الحرب والقتال ولن ترجع عساكرى عن الغزو والفتح حتى يحكم الله بينى وبينه وهو أحكم الحـاكمين. فجـعل القناصل عند ذلك يخفـفون عليـه حتى سكن بعض ما به ورسم إلـى كاتب سره أن يكتب إلى الدول شـيئًا مما هـم بصدده فكتب يقول: قد خاطبنى قناصل الدول العظمى بما جـاءهم من الكتب فى أمر تقرير قاعدة للصلح بينى وبين سلطانى فلـم أر بدًا من العود إلى إعلامكم بما قـد وطنت النفس على عـمله آخذا بمشـورتكم فإن عـادت العسـاكـر السلطانية الذين عـبروا الفـرات وأصبـحوا عـلى مقـربة من المعسكر المصـرى إلى حيث أتوا وتم ذلك فـى الأقرب العاجل سيـرت إلى ولدى بإيقاف عسكره وزجوعـه إلى دمشق مع حاشيـته وأركان حربه وإن خرجت سائر العساكر السلطانية وانجلت عن الديار الشامية استوقفت سائر جيـوشى واستقدمت ولدى إلى مـصر فإذا تكفلت لنا الدول بالمحـافظة على السلام وتوكيد عرى الولاء مع السلطان بتوريـث أولادى من بعدى ملك ما بيدى من البلاد فإنى لا أحجم عن استقدام بعض جـيوشى إلى مصر ولا آنف من العود إلى المخابرة مع سلطانى فى تقـرير قـاعدة للصلـح راسخـة الأركان لا يبـقى من ورائها باقيـة والسلام، قال بعض الـكتاب: كل هذا والسلطان يظهر إلى سفـراء الدول خلاف ما يبطن فكان من جهة يقول: إنه ما برح يطاول محمد على باشا وولده ويدفعهما عن بلاده بالتى هى أحسن ومن أخـرى يحض مقدم عسكره على الزحف والانـتقال من بلد إلى آخر بعلل وأسبـاب مختلفة وقد أنشب الموت أظافره فى العسـاكر السلطانية فأهلك منهم خلقًا كثيرًا ولحق كذلك بدوابهم فكاد يبيدها ونزل فريق من العساكر فى مضيق من الجـبال وعر المسلك ولبثوا فـيه لا يتحركون أيامًـا. قال الراوى: فلو كان الأمير إبراهيم نازلهم فى ذلك المضيق بنفر من عسكره ساعة لأتى على آخرهم ولكنه

لم يفعل حقناً للدماء ولكي لا يقال أنه البادى بالشر وشاع خبر ذلك فى دار السلطنة فكبر خوف حزب السلام وقام سفراء الدول يسألون طاهر باشا فى ذلك فلم يروا منه جنوحاً إلى المسالمة ولاميلاً إلى المكالمة وكثر اللغط بلزوم الحرب والقتال وقطع شأفة العساكر المصرية من كافة بلاد الدولة وظهر من اللورد بونسنبى سفير الإنجليز ميل إلى معاداة محمد على باشا وأوعز إلى قنصل الإنجليز بدار السلطنة أن يكلم السلطان فى تقليد الجنرال سكرانودسكى البروسياوى قيادة الجيوش العثمانية فى هذه الحملة فلما شاع خبر ذلك غضب سائر كبار حرب الجيش البروسياوى وقاموا قومة رجل واحد وقالوا النار ولا هذا العار الذى يلحق بنا إذا ظل الرجل فى خدمة جيوشنا وكان هذا الجنرال قد تجنس بالجنسية الإنجليزية وقام كذلك كبير سياسة بروسيا يمانع ويشدد فى المنع فخاف السلطان شر العاقبة ولم يوافق على طلب اللورد بونسنبى وانبثت العساكر السلطانية فى أنحاء الشامات فعاثت وأفسدت واجتمع إليها أهل البطالة والفساد وأتت إليها الأحزاب من كل صوب وحدب ووصلت طائفة من الفرسان إلى ناحية (مزار) على قيد فرسخين من نصيبين وأرسل مقدم هذه الطائفة إلى عامل السلطان على (أرول) فى طلب الرجوع إلى طاعة سلطانه وترك الأمير إبراهيم وشأنه فأجابه إلى ذلك وعلم الأمير إبراهيم بخبره فرسم إلى محمد معجون بك بالمسير بمن معه من العساكر والعربان إلى تل باشر فسار إليه ثالث عشر ربيع الأول من السنة وكثر احتلال الجنود العثمانية للكثير من القرى والبلدان الداخلة فى ولاية عنتاب والتقى والى (أرول) بمقدم العساكر السلطانية فأكرم وفادته فبالغ الوالى فى السمع والطاعة إليه وأشار عليه بجمع مشايخ ذلك الصعيد ففعل فكلمهم فى الخروج عن طاعة الأمير إبراهيم فأجابوه إلى ذلك فأعطاهم الأسلحة وآلات الحرب وأكثر لهم من الذخيرة ففرقوها على أهل البلاد ودفعوا بهم إلى قتال العسكر المصرى ومع كل هذا فقد كان كبير سياسة السلطان يقول لسفراء الدول إن أمير المؤمنين جانح إلى السلم كاره للحرب وإنه على ما هو عليه من التأنى وترك التسرع حتى تقضى الدول بينه وبين متبوعه.

وكبر كيد الأمير إبراهيم فلم يبق فى إمكانه السكوت لا سيما وقد انبثت العساكر السلطانية حوله وجاءوا إلى مواقع عسكره من كل صوب فأرسل إلى سليمان باشا الفرنسوى يستحثه على الحضور بسائر من عنده من العساكر ثم سار هو من حلب فى جماعة من الفرسان وأصحاب المدافع ولحق به سليمان باشا بمن معه

وبينما الأمير إبراهيم فى طريقه إذ جاءه الخبر بهزيمة العربان الذين كانوا رباطًا عند نهر الساجور قاتلهم الفرسان العثمانيون فلم تأت ساعة أو بعض ساعة حتى انهزموا شر هزيمة وأسر منهم جماعة كثيرة وتمزق شمل من بقى منهم فأزعجه هذا الخبر وسار سيرًا حثيثًا يريد لقاء العساكر السلطانية فلم يتمكن من ذلك وكان رجال المابين السلطانى فى خلال هذه المشاغبات يكثرون من الضجيج والعجيج إلى الدول من شر فعال محمد على باشا وولده إبراهيم وامتناعه من حمل الخراج إلى الخزينة السلطانية ويقولون إنه ما برح يظهر إلى سلطانه كل بغض وعداء بتجييشه الجيوش وإعداده المعدّات بعد أن صفح عنه وعفا عما فات ثم أرسل صدر الدولة إلى وكلاء الدول كتابًا يقول فيه: قد آن لكم أن تروا ما يراه أمير المؤمنين من لزوم حل عقدة هذه المشاكل والإحن التى قوّضت أركان السلام أو كادت فقد فرغ الصبر واستفحل شر هذا الأمر وأخذت الخيلاء من ذلك التابع المارق مأخذها فداس بقدميه هامة الخلافة وزعزع أركانها وبلغت به القحة مبلغها والجسارة منتهاها فلم يبق فى وسع الباب العالى الإغضاء بعد هذا كله، وقد تنازل أمير المؤمنين بأن يبعث إلى الإسكندرية سفراء يعرضون على محمد على الرجوع إلى طاعة خليفته وسلطانه فإن أذعن عفا الله عما سلف وإن امتنع وكابر فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار، ولأمير المؤمنين عضد ونصير من جانب دولة الإنجليز التى وعدت بالمعونة والمدد وأمسى وعدها إن شاء الله أمرًا مقضيًا، وبعد فأمير المؤمنين يسأل الدول المتحابة أن تسعى جهدها فى إقناع ذلك التابع بالإذعان والكف عن المشاغبة وعدم الطموح إلى ما لا تحمد عقباه وأمير المؤمنين على يقين من حسن نوايا الدول المتحابة وميلهن إلى توطيد أركان السلم وسد أبواب تلك الحرب التى لم يبق فى وسع أحد النظر إلى تيارها الجارف نظرة المتفرج فلذلك يرجوهم تدارك الخطر قبل استفحاله والسلام.

ووردت على محمد على باشا فى هذه الأثناء الأخبار من ولده الأمير إبراهيم بما هم عليه من الجهد والتعب بسبب هجمات طلائع الجيوش السلطانية على مقدمة العساكر المصرية والتزامه خطة الدفاع والوقوف عند حد التحرز لكل لا تتهمه الدول بسوء القصد بعد الذى هم فيه من الأخذ والرد فلم يصل إليه الجواب حتى جاءه الخبر بوصول رجل اسمه-موستتيك بك فى طائفة كبيرة من عساكر الكراداغ المرتزقة يريد قتاله وما زال موستتيك هذا يتقدم بخيله ورجله حتى صار على قيد فرسخ من مواقف المصريين فكبر أمره على الأمير إبراهيم وركب فى طائفة من المصريين لقتاله

وشاع الخبر بذلك بين أهل ذلك الصعيد فهب أهل لبنان إلى شق عصا الطاعة وتألبوا جميعًا على قتال المصريين وإجلائهم عن البلاد ووصلت طلائع لموم موسئتيك إلى عنتاب وبها طائفة من العساكر المصرية فخرج أهل البلد للقائهم وفرحوا بمقدمهم وانقلبوا يريدون مشاغبة من عندهم من المصريين فأسرع الأمير إبراهيم فى إجلاء عسكره عن عنتاب فانسحبوا فى رابع عشرى ربيع الأول من تلك السنة بجميع متاعهم وكراعهم وانضموا إلى المقاتلين ولم يتم انجلاؤهم عن عنتاب حتى دخلها والى مرعش وقد خرج عن طاعة الأمير إبراهيم بإغراء مقدم العساكر السلطانية وجعل يتصرف فى البلد وفيما هو فيها من مال وكراع، فلما كان سابع عشرى ربيع المذكور عبر حافظ باشا مقدم الجيوش السلطانية الساجور ومعه خمسة آلاف من المقاتلة وثلاثة آلاف فارس من المرتزقة وسار يريد الالتقاء بالعساكر المصرية فلما ترآى الفريقان جعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعًا فلم تلتفت إليها العساكر المصرية .

(مطلب)

ما كتبه الأمير إبراهيم إلى حافظ باشا مقدم العساكر العثمانية وما كان بعد ذلك

وكتب فى الحال الأمير إبراهيم إلى مقدم عسكر السلطان يقول: إذا كنتم تعلمون ما هو جار بين أمير المؤمنين والدول من الأخذ والرد فى شأن الكف عن القتال حتى تتقرر قاعدة الصلح بيننا وبينكم فكيف سيرتم سليمان باشا العثمانى فى طائفة كبيرة من الفرسان المرتزقة لمهاجمة عسكرنا النازلين (بولايتك) وكيف استبحتم إرسال موسئتيك بك فى جيش جرار من الأكراد ليعاونوا أهالى (باياس) على شق عصا طاعتنا وبعثتم الحاج عمر أوغلى إلى الكراداغ لإيقاظ الفتنة النائمة وهاجمتم عرباننا الهنادى المرابطين على الحدود ومددتم أهل عنتاب بالأسلحة ومعدات الحرب ليقاتلونا ورسمتم إلى سليمان باشا العثمانى بدخول عنتاب والقتال عنها ما استطاع ولم تقفوا عند هذا الحد من التعدى وخرق حرمة العهد حتى زحفتم علينا بخيلكم ورجلكم وأطلقتم علينا اليوم بنادقكم ومدافعكم رجاء أن تخرجونا من دائرة التأنى والصبر والعمل برغائب أمير المؤمنين والدول المتحابة إلى التهوّر والاندفاع إلى إصلاء نار الحرب المغضبة لخليفتنا وسلطاننا وللدول أجمع وكأنك هداك الله ظننت أن سكوتنا عن قتالكم ضرب من العجز أو شئ من الجبن حاشا ثم حاشا فإن كان قد أتاكم أمر الخليفة بقتالنا فليس من النصفة أن تستعملوا الخدعة والمكر بنا والتدليس

بأصحابك فأعلن الحرب جهاراً وناد بالجهاد علانية وسترى منا إن شاء الله أسودا بواسل لا يهابون القتال ولا يحسبون حسابًا للقاء الأبطال فقد عيل منهم الصبر وهذا كتابى واصل إليك على يد محمود بك أحد مقدمى أصحاب المدافع فأفدنا الجواب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فلما علم حافظ باشا ما فى جواب الأمير إبراهيم كتب إليه يقول: ألفيت كتابك مفعمًا بعبارات الطاعة وإشارات الخضوع إلى سلطانك خليفة رسول رب العالمين وظل الله الوارف فى أرضه فقبل كل قول يجب علينا أن نرفع أكف الضراعة والابتهال إلى المولى العزيز المتعال بأن يديم لنا فرع هذه الشجرة المقدسة زاهيًا زاهراً موفقًا مدى الدهور والأعوام وبعد فإنك تعلم هداك الله أن طاعة أمير المؤمنين واجبة مفروضة على من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر وأن هذه الطاعة لم تكن باللفظ المجرد عن العمل وإلا كانت مروقا وعصيانا فإن كنت قد وطنت النفس على الطاعة وعقدت النية على التقرب من عرش الخلافة فكيف أرسلت لقتالنا محمد معجون بك فى جماعة من العربان وكيف أذنت طلائع عسكرك بأن يناوشوا طلائعنا الحرب ويجروهم إلى القتال فكل هذه الأمور قد جعلتنا فى ريب من إخلاصك ودفعت بنا إلى مناوشتك القتال فإن أنت رجعت وتبت وندمت على ما فعلت فعليك الأمان من أمير المؤمنين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، ولم يصل كتاب حافظ باشا إلى الأمير إبراهيم حتى جاءه الخبر أيضًا بقيام سفن حرب السلطان مشحونة بالمقاتلة والفرسان والذخيرة والميرة الكثيرة وهى مؤلفة من عدة شوانى كبار وقطع عظيمة وبأن الحرب لا مندوحة عنها ولا فرار قط منها فسير الأمير إبراهيم الخبر بذلك إلى أبيه وطلب المدد واستسرع النجدة فكتب إليه أبوه فى ثامن عشرى ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف يقول: جاءنى كتابك وعندى الخبر اليقين بما يلاقيه عسكرنا من الحيف وما هو مشاهد فى كل يوم من عبث العساكر العثمانية بالبلاد وتسليح حافظ باشا لأهل الشقاوة الخوارج وبثهم فى المدن والقرى لإهلاك الحرث والنسل ولقد طال منا التغاضى أخذًا بمشورة الدول أصحاب الوساطة لعل حافظ باشا يرعوى ويقف عند حده حتى تقرر القاعدة بيننا على ما فيه المصلحة فلم يفعل فإذا أتاك كتابى هذا فسر على بركة الله بعسكرك المنصور وقاتل هذا العدو المارق وادحره دحراً وأوقع به وبعسكره ما استطعت وسر من فورك إلى (كوليك) بوغاز ومن هناك إلى ملاشيا وقريوت وعرفة وديار بكر والله سبحانه وليك وهو حواليك لا عليك والسلام ورحمة الله وبركاته.

(مطلب)

قدوم المسيو كاليه مندوب دولة الفرنسيس إلى مصر ومكالمة محمد علي باشا في تقرير قاعدة للصلح

وجعل محمد على باشا يجيش الجيوش ويكثر من آلات الحرب لنجدة ولده وأقام المرابطين على الحدود وبث العيون وظهرت الحركة بالقاهرة وبولاق القاهرة ومصر وتحت قلعة الجبل بمرور دواب الحمل وسحب المدافع والأثقال وطير قناصل الدول الخبر بذلك إلى الآفاق فاهتمت له دولة الفرنسيس وسيرت على الأثر رسولين أحدهما إلى محمد على باشا واسمه المسيو كاليه وثانيهما إلى دار السلطنة واسمه المسيو فوتز وزودت كلا منهما من الأسرار بما اقتضاه الحال، واتفق أن قدم محمد على باشا إلى مدينة الإسكندرية ليباشر بنفسه إرسال المدد إلى ولده الأمير إبراهيم فقدم عليه المسيو كاليه فى نفر من الكتاب والحشم والأتباع فأكرم محمد على باشا مقدمه وبالغ فى الحفاوة به فكلم محمد على باشا فى أمر الكف عن القتال والتأنى فى الحركة حتى يتم تقرير قاعدة الصلح بينه وبين السلطنة على ما فيه المصلحة فامتنع محمد على باشا من ذلك وقال لابد من متابعة القتال وعدم الكف عن الحرب حتى يقضى الله بيننا فألح المسيو كاليه فى الطلب وبالغ فى استرضاء محمد على باشا وطاوله أيامًا ثم عاوده فأجابه ورسم إلى خسرو أفندى بقبول وساطة دولة الفرنسيس وساطة فعلية فى جعل حد لهذه الحرب وتقرير قاعدة راسخة للصلح وأن يكتب إلى الأمير إبراهيم بأن يبقى حيث هو مقيم حتى يأتيه كتاب وركب المسيو كاليه وخسرو أفندى سفينة مصرية يريدان الشام والالتقاء بالأمير إبراهيم وكان قد قام بعسكره لقتال حافظ باشا عملاً بالكتاب الوارد إليه من محمد على باشا وقصد ناحية مزار الواقعة جنوب شرقى نصيبين ونزل على قيد فراسخ من محلة العساكر السلطانية، قال بعض كتاب الأخبار: فاضطرب عند ذلك مقدم العساكر السلطانية ورسم لمقدمى عسكره بمناوشة طلائع المصريين فجعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعًا على المصريين مع ما هم عليه من مشقة السفر فأطلق كذلك المصريون مدافعهم وتراسلت قنابلهم قال فخاف عند ذلك جماعة الترك وولى منهم فيلق الحرس الفرار فنادى عند ذلك النفير على المصريين بالزحف على مزار فالتصقوا بأسوارها قبل غروب الشمس ونزلوا على شاطئ الساجور بخيلهم وكراعهم فكبر أمرهم على حافظ باشا وقد شاهد من نظامهم وكثرة عددهم وعددهم ما أذهله

وأخافه فرسم إلى كبار عسكره بأن لا يبدءوا بالقتال وأن يتحينوا الفرص فلما رأى الأمير إبراهيم إحجامهم سار بعسكره وعبر الساجور ونزل على الضفة الثانية وجعل كل من الفريقين يتأهب للقتال وكانت العساكر السلطانية قد بلغت إلى هذا الحين زهاء ثلاثين ألفًا من المشاة وخمسة آلاف من الركبان وثلاثة آلاف من أصحاب المدافع عدا أرباب الخدم وكانت العساكر المصرية تربو على الأربعين ألفاً عدا أصحاب الخدم، قال بعض كُتاب الأخبار: وكانت هاته الجيوش التركية على كثرتها ينقصها شئ من الصفات العسكرية كالدربة على الحروب وحسن النظام والطاعة ونحو ذلك من الصفات المهيئة لأسباب الظفر والغلبة على العدو وكانت الوظائف العسكرية عندهم تعطى لغير مستحقيها من الأغرار الصنائع الذين لا خلاق لهم فكان حافظ باشا لذلك فى قلق دائم وكمد ملازم يتوقع الهزيمة فى كل لحظة تمر فى النهار.

(مطلب)

هزيمة المصريين ليلاً ثم انتصارهم على العدو

وما غربت شمس ذلك اليوم حتى نادى منادى الأمير إبراهيم فاصطفت جنوده فخطب فيهم وقال: قد علمتم أيها الجنود البواسل قدر ما أحرزتموه من الشرف والفخار لغاية الآن فلم يبق عليكم إلا أن تكللوا هذه الأعمال بإكليل حسن الختام واعلموا أنكم لن تنالوا ذلك إلا ببذل المهج فيكم إعزاز الوطن وبموتكم حياته وخير لنا أن نموت لحياة الوطن من أن نحيا لذله وشقائه فالله سبحانه حوالينا لا علينا وهو حسبنا ونعم النصير، فصاح عند ذلك جماعة الضباط الله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وباتوا ليلتهم تلك وكان حافظ باشا قد رأى أن الظفر كل الظفر فى كبس المصريين ليلاً وأخذهم على غرة فرسم إلى إسماعيل باشا أحد كبار العسكر بالإسراء نصف الليل بجماعة من أصحاب المدافع وأن ينزلوا على ميسرة المصريين حتى إذا صاروا على مقربة منهم أطلقوا عليهم المدافع وأصلوهم ناراً حامية قال الراوى: فلم يشعر المصريون إلا ونيران الترك قد أخذتهم من كل جانب وتراسلت قنابلهم على خيمتى الأمير إبراهيم وسليمان باشا الفرنسوى فهبوا من نومهم مذعورين وكادوا يتمزقون كل ممزق فنادوا فيهم بالنفير فنشطوا إلى الدفاع وقاتلوا حتى مطلع الفجر وظفروا بالعساكر السلطانية وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم جماعة ولما أصبحوا جعل الأمير إبراهيم يتفرس فى مواقف العساكر السلطانية فإذا هم على مرتفع من

الأرض تحيط به أخاديد كأنها خنادق طبيعية وكانت مواقف العساكر المصرية فى ذلك اليوم حرجة للغاية معرّضة لنيران مدافع العدوّ فكبر عليه هذا الأمر وأعظمه لا سيما وقد رأى من حركة العساكر السلطانية ومن معهم من الضباط الأجانب ما أدهشه وأخافه فرسم إلى سليمان باشا الفرنسوى بترتيب الصفوف وإحكام مواقع الوقوف ونادى فى العسكر بالتأهب للقتال والاستعداد للطعن والنزال فأنس من بعضهم شيئًا من العصيان فعجل يسوقهم إلى ساحة القتال فانتشبت الحرب بين الفريقين وارتفعت أصوات المدافع والتحمت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف وزلزلت الأرض من هول ذلك اليوم العصيب وثبت الترك الثبات العجيب ونكلوا بالمصريين تنكيلاً حتى دحروهم وقهروهم فهربت منهم طائفة فى عرض الأرض وكادت تتم هزيمتهم وما زالوا بين أخذ ورد وطعن وصد حتى تمكنوا من الظفر على مقربة من نصيبين فتفرقت الجنود التركية أشتاتًا وفرّ حافظ باشا إلى مدينة مرعش فاستولى المصريون على ما فى معسكر الترك من متاع وكراع وكثير من الخيام ودواب الحمل وأسروا زهاء خمسة عشر ألفًا من الأتراك ووجد الأمير إبراهيم فى خيمة حافظ باشا سائر الكتب التى كانت تأتيه من السلطان بالإسراع فى الزحف والقتال وقطع شأفة المصريين.

(مطلب)

استمالة محمد علي باشا إلى أمير سفن حرب الدولة وأخذ سائر السفن غنيمة بلا حرب ولا قتال

وكان السلطان قد رسم أيضًا إلى أمير سفن حرب الدولة بالإقلاع إلى مدينة الإسكندرية ودكّ حصونها ومعاقلها بقنابل المدافع وعدم البراح من مياهها حتى يقبض على محمد على باشا ويأتى به إلى دار السلطنة مكبلاً بالأغلال والقيود فسارت السفن وألقت مرساها عند كريد أيامًا كثيرة ترددت فى خلالها الرسل بين أميرها ومحمد على باشا قيل فخدعه محمد على باشا واستماله وعاقده على تسليم سائر ما معه من سفن الحرب والشوانى بغير حرب ولا قتال فجاءت تلك السفن وألقت مرساها بمينا الإسكندرية أمام رأس التين ثم أنزلوا من بها من العساكر والأجناد إلى المدينة وقد سلموا جميع سلاحهم وآلات حربهم ولم يلبثوا إلا أيامًا قلائل حتى فرقوهم فى البلاد شرقًا وغربًا وأنزلوا أمير تلك السفن فى بيت محرم

بك ثم نقوله بعد أيام إلى دار مخصوصة وجرت عليه الأرزاق فى كل شهر وشاع الخبر بذلك بين سائر الدول فكان له دهشة عظيمة، قال بعض الكتاب: وكانت حجة أمير تلك السفن فى التسليم على هذه الصورة تأخير جماكى العسكر وقطع بعض المرتبات، ووصل المسيو كاليه مبعوث دولة الفرنسيس الذى تقدم الكلام عليه ومعه مرسوم محمد على باشا إلى حلب فلاقاه واليها وأعلمه بخبر تلك الموقعة وما جرى فيها على الترك فسار مجداً يريد لقاء الأمير إبراهيم قبل أن يتحرك حركة أخرى وقد كان الأمير إبراهيم بعد أن تم له النصر وحقق الله له الغلبة والظفر رسم إلى معجون بك بأن يسير بمن معه من العربان إلى غزنة ويقاتل من بها ويفتحها والى عثمان بك وأحمد بك المنكلى وسليمان بك بالاستيلاء على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من بلاد آسية الصغرى وسار هو فى طائفة أخرى من العساكر والأجناد فى سادس عشر ربيع الثانى يريد عنتاب لإخضاعها وإرجاعها إلى الطاعة ونزل عليها بخيله ورجله فخرج إليه كبارها وأصحاب الكلمة فيها يرجون عفوه وصفحه عما فات فعفا عنهم ولكنه ضرب عليهم الجزية مضاعفة فكانت نارها أشد عليهم من نار الحرب ولما كانت ليلة حادى عشر الشهر المذكور وصل المسيو كاليه إلى معسكر الأمير إبراهيم فأحسن الأمير لقاءه وبالغ فى إكرامه فبات ليلته وعند الصباح سلم إلى الأمير إبراهيم كتاب أبيه ثم تقدم إليه فى الكف عن القتال وترك الأمر حتى يتم تقرير قاعدة الصلح فامتنع الأمير إبراهيم من ذلك وقال لابد من القتال حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً فألح عليه المسيو كاليه وجعل يهوّن عليه الأمر وهو لا يزداد إلا عنادًا ونفورًا واختلف الكتاب فى الذى دفع بالأمير إبراهيم إلى عدم الإذعان والرضا بمطالب المسيو كاليه فمن قائل إن ذلك كان بإيعاز من أبيه على يد سامى بك كاتب سره ومن قائل غير ذلك وصمم الأمير إبراهيم على الزحف والقتال ونادى فى عسكره بحضرة المسيو كاليه بالمسير وعبور جبال الطورس واصلاء نار الحرب ما استطاعوا إليها سبيلاً فمانعه المسيو كاليه وما زال حتى رسم إلى كبار جنده بأن لا يتجاوزوا سلسلة تلك الجبال ولكنه مع ذلك لم ينكف عن تدويخ وإرجاع سائر من خرج عن طاعته ولم يتعرض لفتح شئ من البلاد الثابتة على طاعة السلطان وسير إلى أبيه كتابًا يقول: جاءنى أمركم الكريم على يد المسيو كاليه أحد كبار ديوان السياسة الإفرنسية والذى أحيطكم به علمًا أنه لما استولى حافظ باشا مقدم العساكر السلطانية على مدينة عنتاب قد صممت بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى على

إرجاعها وسرت بجيوشنا المظفرة إلى مواقع العدو فوافانى أمركم الكريم بالكف عن القتـال وترك الحرب والنزال إلى حين ولما كان الصـعيد الذى قد نزلناه ليس فـيه من المؤن والزاد ما يكفى بحاجة العسكر ولا من الكلا ما يفى بمؤنة دواب الحمل وخيول الفرسان وكـان بقاؤنا فيه أشـد خطرًا علينا من لقاء العدوّ وكـان أقرب بلد من ذلك الصعيد هو حلب الشهباء فقد سـرنا إليه فشاهدنا من تأهب العدوّ واستعداده لصدنا وإصلائنا نارًا حاميـة ما اضطرنا إلى تركه والمسير نحو عنـتاب ومرعش وهذا ما دفع بنا إلى التقدم إلى الأمام والسلام ورحمـة الله وبركاته، وأما المسيو فوتز رسول دولة الفرنسـيس إلى دار السلطنة فإنه لم يفلـح فى رسالته ولم يتـمكن من إقناع السلطان بالعدول عن الحرب وفتح أبواب الصلح وأقام أيامًا لم ينل فيها مأربًا فاستعان باللورد بونسنبى سـفـيـر الإنجليـز بدار السلطنة فلم يعـنه واتهم السلطان دولة الفـرنسـيس بالتحزب مع محمد على باشـا والعمل على إرغام السلطان وفعل كل ما يحط بقدر الدولة ويذهب بكرامتها.

(مطلب)

وقوع رشيد باشا صدر الدولة أسيرًا في يد الأمير إبراهيم وتمزيق شمل عسكره وما كان من وراء ذلك

واشتد الضيق بالأمير إبراهيم وعـسكره وأحدقت بهم العساكر السلطانية من كل صوب وحدب فخاف شر العـاقبة سيما وقد كاد يظهر عجزه عن الحركـة واستضعفه أهل الأطراف فجعلوا يتـخطفون مؤخرة جنده فساق بعـسكره يريد التغلغل فى قلب الأناضول واخـترق جـبال الطورس واحـتل إقليم أطنة وما وراءه إلـى مدينة قـونية ووردت الأخبـار بذلك إلى السلطان فكاد يسقط فى يده وكـبر كيـده ورسم بتسيـير رشيد باشـا صدر الدولة فى عسكر لرد الأميـر إبراهيم فسار رشيد بـاشا فى عسكره يريد اللحاق بقونية والدفـاع عنها وجاء الخبر بذلك إلى الأمير إبراهيم فـجمع جيشًا عظيمًا من الشـام والروم وعجل بالمسير يريد القـسطنطينية لملاقاة رشيد باشـا فالتقى الجمعان عند قـونية واشتبك القتال بينهما وتراسـلت القنابل واشتدت النيران وعلت أصوات المدافع وتـكاثف الدخان فلم تكن إلا فـترة بين الزوال والغـروب حتى تمت هزيمة العـساكر السلطانية وتمزقت كل ممزق ووقع رشـيد باشا أسيـرًا فى يدى الأمير إبراهيم وكذلك أسر جماعة كثيره من مقدمى العساكر التركية فكانت هذه الوقعة من

أتعس الوقائع وأشدها هولاً على السلطان، واختلف الكُتّاب وأصحاب التاريخ يومئذ فى كيفية سقوط رشيد باشا فى قبضة الأمير إبراهيم فمن قائل أن ذلك كان باتفاق بينهما ومن قائل بل كان لحسن تدبير حركة الجنود المصرية فى ذلك اليوم وحصانة موقفهم ومن قائل غير ذلك وطار الخبر بما جرى على رشيد باشا وعسكره فكان له أشد الوقع فى النفوس وسار الأمير إبراهيم بخيله ورجله يريد القسطنطينية فأرسل السلطان إلى قيصر الروس يطلب منه إرسال سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين لرد إبراهيم وإيقافه عند حده وشاع الخبر بذلك بين رجال السلطنة فقبحوا هذا الرأى وقالوا لا تحل الاستعانة على قتال المسلمين بالعساكر النصرانية وورد الخبر إلى محمد على باشا فجعل يبالغ فى الشكوى ويعظم فى البلوى ويكاتب الدول فى هذا الأمر وظهر على أثر ذلك حركة فى دار السلطنة وتكلم الناس كثيراً فخاف السلطان شر العاقبة وعاد إلى مخابرة محمد على باشا فى عقد الصلح وسير فى الحال خليل باشا قبطان باشا قبلاً إلى مصر وفوّض إليه الاتفاق على ما فيه المصلحة وكتب إلى سفير الروس يعلمه بأن الحالة الآن لا تستلزم طلب المساعدة وأخذ يعمل الجهد على إرجاع الجنرال موراويف الروسى عن عزم الذهاب إلى ديار مصر والالتقاء بمحمد على باشا فلم يفلح ودخل موراويف إلى الإسكندرية كإشارة قيصر الروس فعمد السلطان حينئذ إلى ملاطفة دولة الفرنسيس واستمالها إلى التحرير أولاً إلى محمد على باشا بوجوب المحافظة على مبادئ الصلح وأسباب السلم التى قد تعهد بالمحافظة عليها وثانيًا إلى الأمير إبراهيم بعدم مبارحة موقفه والكف عن التغلغل بجيوشه في جوف البلاد وقد كان الأمير إبراهيم إلى ذلك الحين لم يكتم عن الناس خطة تسيير جنوده ولم يخف عن الملأ أنه سائر نحو قوطاهيه وبروسا ومنها إلى أسقودار ليجمع هناك مجلسًا من كبار علماء الإسلام ليحكموا بينه وبين سلطانه فكان ذلك موجبًا لقلق السلطان وعدوله عن الاستعانة بدولة الفرنسيس ورجوعه إلى طلب معاونة دولة الروس فسير فى الحال كتبه إلى القيصر بأن يمده عند الطلب بعشرين ألفًا من الجنود البرية وخمسة آلاف من العساكر البحرية وعمارة ساوتابول البحرية فعلم سفير الفرنسيس بذلك فكتب إلى الأمير إبراهيم فى الحال يقول إياك ومبارحة قونية واحذر شر العاقبة فقد بلغ القنوط من سلطانك مبلغه وجاء الخبر بما فعله السلطان إلى محمد على باشا فكتب إلى ولده يقول: إذا أتاك كتابى وأنت بأية أرض فلا تبرحها ولا تحرّك لك قدمًا حتى يأتيك آخر، وكان الأمير إبراهيم قد بلغ بجيوشه مدينة

قوطاهيه وأرسل محمد على باشا إلى السلطان والى دولة الفـرنسيس يخبرهما بخبر ما كتبه إلى ولده الأمير إبـراهيم ويقول الباب العالى إن الحامل لولدى على الانحدار إلى قوطاهيه إنما هى حاجته إلى حطب الوقود وغيره من احتياجات العسكر التى لم توجد فى قونية ومـا زال الحال بين أخذ ورد وخوف ورجاء حتى عـاد سفير الروس الذى كان ذهب للالتـقاء بمحمد علـى باشا إلى دار السلطنة يحمل بشـائر الطمأنينة والسلام حـيث أبلغ الباب العـالى أن محـمد على باشـا صرح بخضـوعه وطاعـته لسلطانه وأنه عبد لمولاه وقد عقد النية عقدًا وثيقًا على فض أسباب الخلاف والاتفاق مع خليل باشـا على أمر الصلح بـتاتًا، قـال بعض الكُتاب: ولم يسـتعـمل الجنرال موراويف فى كلامه مع محمد على باشا شيئًا من الشدة التى أقسم أنه يستعملها معه ولم يسمعه شيـئًا من هذر الكلام كما كانت تقتضيه رسـالته ولكنه كان إذا اجتمع به لاطفه وهون عليه أمر الصلـح وحببه إليه ويقول له إن مولاى القـيصر يعلم ما أنت عليه من شرف المبـدأ ونبالة المقصد ومكارم الأخلاق فلا تكن سبـبًا فى زلزلة موقف سلطانك ولا تعمل على فساد ملكه ولا تحدث فى الإسلام حدثًا قل أن تحمد عاقبته واتق الله فى نفسك وولـدك وعسكرك، ووصلت كتب مـحمد عـلى باشا إلى ولده بالكف عن القتال والوقوف عند حد السكون حتى يتم الأمر على ما تشاؤه الأقدار، وما شـاعت الأنباء بذلك حتى ورد على قنصل جنرال النمـسا كتاب من بابا رومـيه يسألة الوساطة بين مـحمد على باشا وسلطانه وكفه عن إراقـة الدماء هدراً وكأنه لـم يعلم بخبـر ما وقع الاتفـاق عليه بين محـمد علي باشا والجـنرال موراويف مندوب الروس فأرسل الـقنصل إلى محـمد على باشا خـطابًا فى المعنى محـشواً بالتـهديد والوعيد فلم يلتفت محمد على باشا إليه ولم يفلح القنصل فى شئ ألبتة.

(مطلب)

قدوم مندوب الباب العالي إلى مصر بفرمان العفو عن محمد علي باشا وولده

ووصل خليل باشـا مندوب الباب العـالى إلى مصر يـحمل الفرمـان السلطانى بالعفو عن محمد على باشا وشروط الصلح على قاعدة الامتيازات التى أعطيت إلى محـمد على باشـا وهى ولاية عكا وطرابلس والشام ونابلس وأراضى بـيت المقدس فلاقاه محمـد على باشا وسائر رجال حكومته بالحفـاوة والتعظيم وأنزله منزلاً رحبًا

وقدّم له التقادم من التحف والأعلاق النفيسة ورتب له المرتبات من المأكول والمشروب ثم رسم بقراءة الفرمان فلم يعجبه ما جاء فيه من الامتيازات حيث لم تكن شاملة لسائر الشامات ولا لولاية آطنة فكلم خليل باشا فى ذلك وطال بينهما الأخذ والرد أيامًا حتى تم الاتفاق على نوال محمد على باشا سائر ما طلبه وسير خليل باشا الكتب بما وقع الاتفاق عليه إلى دار السلطنة، قال بعض الكُتاب ومع ذلك فقد كان السلطان فى ريب من العاقبة فلم يصرف وجهه عن طلب معاونة دولة الروس ولم ينكف عن مكالمة وكيلها فى ذلك من حين إلى حين، قال: وكان الحامل له على ذلك كثرة إرجاف الأمير إبراهيم وإرساله البعوث إلى بلاد آسيا لدس الدسائس وبث الفتن وتحريض الناس على شق عصا طاعة السلطان ولم يمض إلا القليل من الأيام حتى عاد الصدر الأعظم وكتب إلى الدول الكبرى يقول إن أمير المؤمنين جاهر بأنه لم يبق فى إمكانه العدول عن طلب المدد من قيصر الروس والاستنجاد بعسكره على إخراج الأمير إبراهيم وعسكره من جميع أملاك الدولة فى الأقرب العاجل واتفق أن وصل فى عشية ذلك اليوم إلى دار السلطنة مندوب دولة الفرنسيس وقد علم بما سير به الصدر الأعظم من الكتب إلى الدول فاجتمع به وخاطبه فى الأمر طويلاً وحبب إليه أن يكتب إلى دولة الروس بعدم الحاجة إلى إرسال سفن الحرب بعد أن أسفرت مأمورية خليل باشا عن طاعة محمد علي باشا ورجوعه إلى مجاملة سلطانه فوعده الصدر الأعظم وعدًا جميلاً وقال لابد من اجتماع مجلس شورى الدولة وطرح هذا الأمر عليه.

(مطلب)

حصول العمارة الروسية إلى البوسفور مددًا إلى السلطان

وبينما كان مندوب الفرنسيس يراقب ما سيكون من وراء اجتماع المجلس إذ وصلت العمارة الروسية تمخر فى عباب البحار وألقت مرساها أمام البوسفور فكانت عشر قطع كبار من الطراز الأول وكانت بعض سفن الحرب الإفرنسية راسية هناك كطلب سفير الفرنسيس فلما رأى ربانها تلك السفن والشوانى الروسية هاله أمر حضورها وسير فى الحال إلى صدر الدولة يقول نظرًا للانقلاب السريع الذى طرأ فى هذه الآونة وتغيير الأحوال عن سابق مجراها صار يعز علىّ البقاء بما معى من السفن إن لم تقلع السفن الروسية وترجع من حيث أتت وأكثرت رسله من التردد على

الباب العـالى فى طلب الجواب فـكتب إليه السلطان يقـول: كتابـى إليك أعزك الله وعوامل الاضطراب والقلق المستحوذين على مملكتى تشخص أمـام عينى ذلك الودّ القـديم الذى يربط بلادى بمملكة الفرنـسيس وتدفع بى إلى طلب المعـونة والمدد من تلك الدولة القوية العظيمة دولة الفرنسيس الفخيمة فإن أنت هداك الله تعهدت باسم وشرف مملكة الفرنسيس بأن يكون عقد رباط الصلح بينـى وبين متبوعى محمد على على قاعدة الشروط التى بلغها إليه خليل باشـا عجلت بإرجاع العساكر الروسية ورد سفنهـا الحربية والسلام، فأجـابه ربان السفن الإفرنسـية إلى ذلك فلم يسع السلطان يومئذ إلا معاودة ربان سفن الحرب الروسية وأمير جيوشها البرية بالرجوع فما أقلعت تلك السفن حتى سيـر أمير سفن حرب الفرنسيس رسـولين على عجل أحدهما إلى محمد على باشا ليقهره على إرسال كـتبه إلى كبار عسكره بسرعة الكف عن الحرب وثانيهما إلى الأمير إبراهيم ليلزمـه بسرعة العودة إلى مصر والكف عن كل عداء مع ولاة وعمال السلطان وكتب كبير سيـاسة الفرنسيس أيضًا إلى قنصلهم بمصر يقول أن شدّد على مـحمد باشا بالإذعـان وقبول شروط الصـلح التى وصلت إليه على يدى خليل باشا فإن أطاع وأذعن فبها وإلا فلا مندوحة عن إكراهه.

قال كبيـر السياسة المذكور فى كتاب بعث بـه إلى وكلاء دولته لدى سائر الدول بعد كـلام طويل: ومن تصفح أدوار هذه الأزمـة، يعنى بها الأزمـة القائمـة ما بين محمد على باشا وسلطانه، مع عدم التحيز حكم بنزاهة دولة الفرنسيس عن الغرض وطهارة ذمتها من أدران التشيع وتحـقق نبالة مقصدها فى سائر أدوار هذه الأزمة التى اختلط فـيها الحابل بالنابل وكـادت تذهب بالشرق الأدنى إلى مهواة الدمـار قال ولما كانت دولـة الفرنسـيس قد أخذت عـلى عهدتهـا إصلاح ذات البـين والتوفـيق بين مصلحـة الطرفين لم يبق فى وسـعها العـدول ولا ترك الأمور هدفًـا للحوادث ولا غرضًا للغاية الطامحة ولو تطوّح بها الأمر إلى رد القوة بالقوة والسيف بالسيف فإنها لا تلوى عنان الجـهد ولا تتـقهقـر أمام هاتيك الـعواقب التى قـد حسبت لـها ألف حساب اهـ.

(مطلب)

تعاقد الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب المابين مع سفير الفرنسيس على كيفية إرجاع محمد علي باشا إلى طاعة سلطانه

ورسم السلطان بعد ذلك إلى الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب ما بينه بالتعاقد مع سفير دولة الفرنسيس على إرجاع محمد على باشا إلى طاعة سلطانه فتعاقدا ثانى شوّال من السنة على شروط حاصل ما فيها قبول الباب العالى تداخل دولة الفرنسيس بواسطة سفيرها البارون روفارن فى أمر الصلح بشرط أنها تضمن للباب العالى قبول محمد على باشا بالامتيازات التى منحه إياها السلطان بالفرمان المرسل على يدى خليل باشا مشير الطبخانة العامرة وبشرط رجوع محمد على باشا إلى الطاعة والإخلاص لمتبوعه وأن هذه الامتيازات لا تتعدى ولايته على عكا وطرابلس والشام وبيت المقدس ونابلس وأن يتكفل السفير المذكور باسم امبراطور الفرنسيس بعقد رباط الصلح على هذه القاعدة ويتعهد الباب العالى بأن يقرر ويعلن عدوله عن قبول أو طلب كل مدد أجنبىّ أو مساعدة مادية يراد بها الإضرار بمحمد على باشا، وشاع الخبر بما وقع الاتفاق عليه ما بين الحاج محمد عاكف باشا وسفير الفرنسيس وعزم دولة الفرنسيس على قهر محمد على باشا وإرغامه على طاعة سلطانه وتكلم الناس فى الأمر كثيراً وكتب سفير الإنجليز إلى الأمير إبراهيم يقول، كتابى إليك وعندى العلم اليقين بما رضيه سلطانك من تقرر قاعدة الصلح مع خليل باشا مشير الطوبخانة السلطانية فامتلأ قلبى فرحًا وتحققت آمالى بأنك ستنكف عن تلك الحرب المشؤمة التى كادت تدك معالم المدينة وأنك ترفع سيفك إن شاء الله عن هامة تلك الأرجاء التى قد تولاها الخراب ونزل بها البلاء من كل حدب واعلم أن سلطانك قد منح أباك ولاية الشامات وحلب ودمشق وقد سير إليه فرمان الرضا وفرمان الولاية على يدى رشيد بك قابوجى السلطنة وأمره بالكف عن القتال وأن يكتب إليك بذلك فى الأقرب العاجل وقد ورد الأمر من لدن إمبراطور الفرنسيس إلى سفيره لدى الباب العالى بالمسير مع رشيد بك إلى الإسكندرية ليشرح لأبيك وخامة العاقبة إن هو أغضب دولة الفرنسيس برفض الصلح على قاعدة ما فى الفرمان أما دولة الإنجليز فقد أضحت أميالها وأغراضها واضحة معلومة لأبيك ولا أشك فى أنه لا

يجهل التأثير الذى يحصل للحكومة الإنجليزية إن هو امتنع من الصلح كما أنه عالم بالعواقب التى تكون من وراء هذا الرفض وإنى لا أخالك أيها الأمير ممن يأبى الكرامة فلا تمتنع من الصلح الآن واجعل خاتمة أعمالك السلامة والسلام.

(مطلب)

صدور فرمان السلطان بالعفو عن محمد علي باشا وولده وتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف

وطير السلطان الخبر إلى الآفاق بالعفو عن محمد على باشا وولده الأمير إبراهيم وبتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف وأصدر فرمانًا يقول فيه: حيث إن محمد على باشا وولده قد عادا إلى طاعة سلطانهما وأبديا من الإخلاص مالم يبق معه موضع للريب فى حسن المآل إن شاء الله تعالى وقد طلبا العفو عما فات فقد اقتضت إرادتنا السلطانية ومراحمنا الشاهانية العفو عنهما وأصدرنا فرماننا هذا السامى بتأييد ولاية أحدهما محمد على باشا على كريد والديار المصرية كالتماسه وأحسنا إليه أيضًا بالولاية على دمشق وطرابلس وصيدا وصفت وحلب وبيت المقدس ونابلس مع إمارة الحج ونيابة أشقودره وولينا ولده رياسة الحرمين الشريفين مع صنجقية جده وقارنًا التماسه بالإحسان عليه أيضًا بولاية أطنة وملحقاتها وعهدنا إليه جباية خراجها الآن وبناء على ما طبعنا عليه من الرفق والحنان وما خصنا الله سبحانه وتعالى به من الميل إلى إسداء المعروف والإحسان نعلن أصحاب الكلمة وأولى الشأن من العمال والمأمورين ببلاد الأناضول أن يغضوا الطرف عما وقع من سكان تلك العمالات من الخروج وشق عصا الطاعة وأن لا يتعرضوا لأحد لا فى روحه ولا فى ماله ولا فى عياله وأن يعلموا الناس كافة بما اقتضته إرادتنا الشاهانية وسمحت به تعطفاتنا الخاقانية من العفو عن الجميع والصفح عما وقع من الرفيع والوضيع وأن يكونوا من الآن ساكنى الخواطر قريرى النواظر وعلى سائر الولاة والحكام حض الرعية على الالتفات إلى ما فيه خيرهم وإصلاحهم واستمرار الدعاء بتأييد عرشنا بالنصر الدائم والظفر الملازم ولكى يكون فى علم سائر الولاة والحكام وجميع صنوف الرعية من مسيحيين وإسلام ما شملهم من العفو العام والرضا التام قد أصدرنا هذه الإرادة متوّجة بطغرائنا ناطقة بما نحن عليه من حسن النية وسلامة الطوية كى يبسط الكل أكف الضراعة والإبتهال إلى المولى ذى الجلال والإكرام بدوام دولتنا وتأييد سدّتنا وإعزاز شوكتنا بمنه وكرمه اهـ.

فلما شاع خبر هذا الفرمان وذاع رفع الأمير إبراهيم إلى الباب العالى عريضة ضمنها أبلغ ما يكون من عبارات الشكران والامتنان إلى أن قال: ويعلم مولاى أدام الله سلطانه وحرس ملكه وأيد بالنصر أركانه أن العبد ما برح على ما يعلمه فيه مولاه من الطاعة والولاء لسدتكم العلية لا سيما وقد قلدنى المولى أدام الله تعالى وجوده منة العفو وولانى تفضلاً منه وتكرمًا حكم ولاية أطنة وجباية خراجها فلم يبق فى النفس بعد ذلك شئ والله سبحانه على ما أقول شهيد وها أنا العبد باسط أكفْ الضراعة والابتهال بأن يديم أيام ملككم غرّة فى جبين الدهر وليعلم مولاى أنى قد وطنت النفس على خدمة الأعتاب الشريفة بما فى الطاقة والله خير مسئول يوفقنى إلى طاعتكم بمنه وكرمه إنه السميع المجيب، قال بعض الكُتاب: ومع هذا فإنه لم يمض القليل من الأيام حتى جاءت الأخبار إلى دار السلطنة تترى بزحف الأمير إبراهيم بجيوشه وآلات حربه إلى قلب آسية وأنه ترك قونية وهو على قدم المسير إلى بروصاء فاندهش السلطان من سماع هذه الأنباء وظنها مبالغة ووقيعة فلم تكن إلا أيام حتى ثبتت صحتها وجاءت الكتب بذلك إلى الباب العالى فسير السلطان فى الحال إلى سفير الفرنسيس من يكلمه فى أمر ذلك فاندهش السفير وكتب إلى الأمير إبراهيم يقبح ما فعله ويحذره شر العاقبة ويمنعه من التغلغل فى داخلية البلاد فرد عليه الأمير إبراهيم يقول إن الحاجة إلى الماء والميرة وحطب الوقود وعدم وجود شئ من ذلك ألبتة بقونية واتقاء برد الشتاء وتفشى الأمراض فى الجنود المصرية كل ذلك كان الحامل لنا على المسير إلى بروصاء وأنا مازلنا على قدم الطاعة والولاء لأمير المؤمنين وواقفين عند حد ما رسمه لنا محمد على باشا فلا تصغوا إلى وشاية الواشين ولا تلتفتوا إلى غواية الغاوين وأعرضوا عن كل قول هراء فإن العدوّ ما برح يدس السم فى الدسم ويتمنى لو أن الدهر يرمى كياننا بالعدم فالله والسلام.

(مطلب)

اشتداد علة السلطان وما كان من وراء ذلك

واشتدت في هذه الأثناء علة السلطان محمود وكبر مرضه واستعصى برؤه فاضطربت أحوال السلطنة أو كادت وكثر تحدث الناس فى أسباب علته فمن قائل أنها ذات الجنب ومن قائل أنها ضرب من الهذيان والهزؤ الدائم ومن قائل أنه السل وكانت أخباره كل يوم فى شأن والباب العالى يكثر من نشر بشائر سلامته وعافيته

والناس لا يصدقون ذلك فانعقد مجلس فى السراى السلطانية من خسرو باشا وخليل باشا وسعيد باشا وعزت بك وضيا بك وجعلوا يتشاورون فيما يجب عمله إذا جاءت منية السلطان على عجل وكانت رسل والدة السلطان وولى عهده يغدون ويروحون إلى مقر السلطان وبعد أخذ وردّ بين أصحاب المجلس وقع الاتفاق على أن يكتبوا إلى قبطان باشا سفن الحرب بأن لا يبرح بسفنه كلها من البوسفور والى حافظ باشا مقدم العساكر القائمة بقتال الأمير إبراهيم بإيقاف رحى الحرب حتى تأتيهما الأخبار بما سيكون فكاد حافظ باشا يسقط فى يده وطارت الأخبار بما أصبح فيه السلطان من الخطر وشدد الأطباء فى عدم دخول أحد عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الأول وقيل سادس عشريه سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية مات وحيداً فى مخدعه فكانت سلطنته زهاء إحدى وثلاثين سنة وعمره أربعا وخمسين سنة على المشهور، قال بعض الكُتّاب: ومن الغريب أن اليوم الذى مات فيه يوافق اليوم الذى تولى فيه السلطنة قال وكان ملكًا مهيبًا مقدامًا عالى الهمة واسع المعرفة كبير الدراية بالأمور صبوراً على الشدائد محبًا للرعية ميالاً إلى العمارية عادلاً بعيداً عن العسف والجور ولكنه كان قليل الحظ حسن الخط غير موفق كأن الدهر عدوه مغلوبًا على أمره بحكم الأيام فقد خرج فى أيامه كثير من الإيالات ما بين حجازية وشامية ورومية وهو الذى أباد طوائف الانكشارية والأصبهانية ونظم عسكره على نظام الفرنسيس وأنشأ الكثير من سفن الحرب ومعدات القتال وأفرغ الجهد فى إصلاح الأمور ومحو آثار الفتن الداخلية فلم يوفق إلى ذلك لسوء حظه ونكد طالعه والله سبحانه يؤتى النصر لمن يشاء من عباده.

ومات فى أيام السلطان محمود يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ستًا وعشرين سنة ولم يقع له من الحوادث الأجنبية شئ يذكر ولكن قامت عليه النصارى لأسباب نقموها عليه فهرب واختفى مدة ثم استقدموه بعد أن تاب واستغفر ولبث فى منصب البطريكية إلى أن مات فأقاموا بعده مرقس وهو الثامن بعد المائة واسمه يوحنا وكان راهبًا بدير أنطونيوس بالجبل الشرقى وفى أيامه نقلت دار البطريكية من حارة الروم عند باب زويلة بالقاهرة إلى الأزبكية بالدرب المعروف بالدرب الواسع فصارت من حينئذ مقرًا لبطاركة المتأصلين إلى يومنا الذى نحن فيه ثم مات بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة فأقاموا بعده بطرس وهو التاسع بعد المائة واسمه مرقوريوس وكان راهبًا بدير أنطونيوس وأصله من بلدة جاولى بصعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

الفصل الثانى والعشرون

(فى سلطنة السلطان عبدالمجيد خان

ابن السلطان محمود خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمود خان ولده السلطان عبدالمجيد بويع له بالملك يوم موت أبيه سادس عشرى ربيع الأول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية تولاها والفتنة قائمة ونار الحرب متأججة والأمور فى خبال ونكال ودول أوروبا فى إقدام وإحجام يوم معه ويوم عليه وكان قيصر الروس لا ينكف عن طلب العمل بمعاهدة خونكار اسكله سى التى تعاقد فيها مع السلطان محمود على الذب والدفاع عن جميع بلاد الدولة واحتلال كل ما يمكن احتلاله منها عند الضرورة وقد تزايد طلبه إلى ذلك بعد استسلام جميع سفن الحرب السلطانية إلى محمد على باشا وفناء أكثر العساكر العثمانية فى الحرب القائمة مع الخوارج وكانت دولتا الفرنسيس والإنجليز تكرهان ذلك من قيصر الروس ولا ترغبان فى أن يكون له عليهما سابقة ولا كلمة وتخشيان أن يكون من وراء تلك المعاهدة احتلال الروس لمدينة القسطنطينية تكون الطامة الكبرى على سائر أوروبا فجعل سفراء الفرنسيس والإنجليز والنمسا والبروسيا يعملون على ما فيه استمالة دولة الروس إلى جانبهم وما زالوا حتى أوعز القيصر إلى سفيره بدار السلطنة بذلك فاجتمعوا بخسرو باشا صدر الدولة يومئذ وتناجوا فيما يصح جعله قاعدة للتعاقد مع محمد على باشا والكف عن القتال وأشار سفير النمسا والإنجليز برد جميع ما فتحه محمد على باشا من البلاد الشامية إلى الدولة وأن لا يعطى إليه إلا ديار مصر فقط فعارضتهما فى ذلك سفيرا الفرنسيس والروس وقالا لا بل يعطى إليه ملك مصر وإيالات الشام الأربع وطال الجدال بينهم وما زالوا فى أخذ وردّ حتى وافق سفير البروسيا سفيرى النمسا والإنجليز وقال بقولهما فسقط رأى سفيرى الفرنسيس والروس وتقررت القاعدة بينهم على أن لا يعطى إلى محمد على باشا سوى ديار مصر وأن يؤخذ منه جميع ما افتتحه من بلاد الدولة ثم أشار سفير النمسا بعقد مؤتمر دولىّ إما فى عاصمة النمسا وإما فى عاصمة الإنجليز لإتمام ما بقى متعلقًا بمصر فلم

تصادف إشارته قبولاً وعارضه سفيرا الفرنسيس والإنجليز وكذلك سفير الروس وقال إن مولاى القيصر لا يقبل أن يكون لمؤتمر دولى حق تجديد علاقة مملكته السياسية مع دار السلطنة العثمانية وأنه لا يتنازل عن العمل بما أباحته معاهدة خونكار اسلكه سى من الذب والدفاع عن جميع أملاك الدولة العثمانية بما أعده القيصر من الجيوش البرية والسفن الحربية واحتلال معظم إيالات الدولة إذا لم ينكف الأمير إبراهيم عن القتال والتغلغل فى قلب بلاد الدولة فهال سفيرى الفرنسيس والإنجليز هذا الطلب وخافا شر عاقبته وطلبا من صدر الدولة أن يجيز لمراكب الحرب الإنجليزية والفرنسوية العبور من بوغاز الدردنيل لدفع غارات الروس والمصريين عن بلاد الدولة عند الحاجة وسيرت دولة الإنجليز إلى القسطنطينية إحدى مراكب حربها المسماة ستويفورد للمخابرة مع السلطان فى ذلك وكثر القيل والقال وساء بقية السفراء ما فعله سفير الإنجليز وتجرد سفير الروس إلى المقاومة والإصرار على ما طلبه وسير إلى صدر الدولة يقول إن أباح السلطان لمراكب الإنجليز والفرنسيس العبور من الدردنيل قطعت كل علاقة بين حكومتى ودار السلطنة وخرجت من القسطنطينية بلا مهل، وكانت مراكب الإنجليز والفرنسيس على مقربة من البوغاز تنتظر ما يرد إليها من الأخبار، وأرسلت دولة النمسا إلى عاصمتى الفرنسيس والإنجليز تقول إن ما فعله سفيراكما من الشدة والعنت لا يكون من ورائه إلا فصم عروة الاتحاد وقيام الحرب على قدم وساق ولذلك فهى تصمم على الانسحاب من دائرة ذلك التحالف إذا بقى الحال هكذا وتكون مطلقة اليدين فيما تنوى فعله، وكان السلطان ميالاً إلى إجابة طلب مبعوث الإنجليز فكان خسرو باشا يحسبب إليه ذلك فلما اشتد الخصام بين مندوبى الدول وكبرت الفتنة خشى السلطان العاقبة فلم يجب مطالب مبعوث الإنجليز وأوعز إلى الصدر الأعظم بأن يخابر الدولتين فى أمر إبعاد مراكبهما عن الدردنيل ففعل ففشلوا جميعًا وتفرقت كلمتهم وذهب كل إلى مذهب وتعطلت المخابرة أيامًا كثيرة.

(مطلب)

عزم دولة الإنجليز على إكراه محمد علي باشا على رد جميع ما أخذه، واشتداد الخلاف بينها وبين دولة الفرنسيس بسبب ذلك

فلما كان شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية سيرت دولة الإنجليز رسولاً من قبلها اسمه اللورد بونسنبى إلى دار السلطنة العثمانية يقول

للسلطان: إن دولة الإنجليز متأهبة لأن تكره محمد على باشا على رد جميع ما اغتصبه من المراكب العثمانية وترغمه إلى الطاعة والإخلاد إلى جميع مطالب السلطان بشرط أن تدخل مراكب الحرب الإنجليزية إلى بوغاز القسطنطينية لدفع الروس إذا اعتدوا على بلاد الدولة فساء ذلك دولة الفرنسيس واستعظمته وأوعزت إلى أمير مراكب حربها الراسية فى بحر الروم بأن لا يعاون مراكب الإنجليز على قتال محمد على باشا ولا يشترك معها فى أى عمل كان وأن يكون دائمًا على قدم التأهب والاستعداد وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق فعم الخوف وظن الناس أن الحرب بين الدولتين الإنجليزية والإفرنسية صارت على قاب قوسين أو أدنى وأخذت بقية الدول حذرها وكتبت دولة النمسا تقول إنها تأبى التداخل فى هذه المسألة بعد أن خابت سعيًا فى عقد المؤتمر الذى أشارت به وجاهرت دولة الفرنسيس بميلها إلى الذب عن محمد على باشا وتعضيده فى جميع مطالبه وقالت لابد من إعطائه ولايتى مصر والشام له ولذريته من بعده وإقليمى أطنه وطرسوس له مدة حياته فخالفتها فى ذلك دولة الإنجليز وقالت لا يعطى إليه إلا ولاية مصر فقط وأصرت على ذلك فلما رأت من دولة الفرنسيس قرما عنيدا عادت إلى مسايرتها وأشارت بإعطائه أيضاً النصف القبلي من بلاد الشام مدة حياته واشترطت أن لا تكون مدينة عكا داخلة في ذلك النصف فأبت دولة فرنسا عليها ذلك وألحت بقبول مطالبها إذ المصلحة فيها للطرفين وطال الأخذ والرد بين الدولتين أيامًا فكان لا ينكف فيها رسول الإنجليز عن استمالة سفراء الدول الأخرى إلى الأخذ بمشورته حتى ظفر وفاز وكتبت دولتا النمسا والبروسيا تقولان إنهما توافقان على ما أشار به رسول الإنجليز وتعضدان مطالبه فى السر والجهر.

وكانت دولة الروس إلى هذا الحين تراقب الفرص فلما تحققت من اشتداد الفتنة بين دولتى الإنجليز والفرنسيس واختلاف الغاية سيرت إلى عاصمة الإنجليز رسولاً اسمه البارون دى برونو يقول إن دولة الروس تترك للإنجليز حرية العمل فى مصر ولا تأنف من مساعدتهم على إخضاع محمد على باشا بشرط أن تتمكن الروس من وضع جيش فى مدينة سينوب الواقعة على شاطىء البحر الأسود بالقرب من دار السلطنة العثمانية لتيسير الدفاع عن مدينة القسطنطينية إذا زحف عليها الأمير إبراهيم بعساكره فمال اللورد بالمرستون كبير سياسة الإنجليز يومئذ إلى ذلك واستحسنه وحسبه من مسببات الفوز والغلبة وهم بإنفاذه فرأى من استنكار كبار الدولة

وأصحاب الحل والعقد له واستقباحهم إياه ما أقعده فحاول الاستظهار عليهم فلم يفلح فمال إلى المواربة وسأل مبعوث الروس أن يكلم القيصر فى أمر تخليه عن جميع تلك الحقوق الممنوحة له بمعاهدة خونكار اسكله سى من حماية جميع بلاد الدولة العثمانية فإذا تخلى عنها أنفذ له مطالبه وتعاقد معه على ما فيه المصلحة فلم يقبل القيصر ذلك واستنكره وأوعز إلى رسوله بمبارحة عاصمة الإنجليز فرحل عنها وتعطلت المخابرة وأعرضت عنها جميع الدول.

(مطلب)

تأهب محمد علي باشا للقتال بعد أن علم بتألب الدول عليه مع السلطان ما عدا دولة الفرنسيس

وعلم محمد على باشا بما تنويه له دولة الإنجليز من السوء وما صممت عليه من أخذ جميع ما افتتحه من بلاد الدولة وإرجاعه إلى طاعة السلطان ومساعدة جميع الدول لها إلا دولة الفرنسيس وأن لا قدرة لدولة الفرنسيس على الدفاع عنه ومعاداة جميع هاته الدول فعمد إلى التأهب والاستعداد وتجرد للدفاع ما استطاع وأوعز إلى سليمان باشا الفرنسوى بتقوية الحصون والقلاع الشامية جهد الاستطاعة وعلى الخصوص منها قلاع عكا وبيروت ورسم بتكليف جميع أهل الشام بحمل السلاح والتدرب على الحركات العسكرية للقيام بها عند الحاجة واستقدم جميع العساكر المصرية التى كانت فى نجد والحجاز وأهمل شأن تلك الأصقاع وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة وقد كان محجوراً عليه بالقاهرة فسار إلى مكة وجعل يتصرف فى أمورها على ما تقتضيه مصلحته وأنفذ إلى ولده الأمير إبراهيم بالالتفات والأخذ بأسباب الحزم فبالغ الأمير إبراهيم فى ذلك وبث العيون والأرصاد وحاسب أهل الشام على الذرة والبرة فانكمشوا وانكفوا وأخلد كبارهم إلى الطاعة خوفا من جبروته وبقى الحال هكذا إلى أوائل سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وإذا بدولة النمسا قد عادت إلى الإلحاح بطلب عقد المؤتمر فى مدينة فينا لفض جميع المسائل المتعلقة بمصر ومنع جميع القلاقل المترتبة على بقاء هذه المسألة عرضة لأغراض الدولة وسبباً لوقوع التخاصم بينهم فأجابتها الدول حينئذ إلى عقد المؤتمر بلندن عاصمة الإنجليز وحضره مبعوث من دار السلطنة العثمانية بناء على طلب دولة الفرنسيس فلم يتفقوا على حال من الأحوال وأصرت كل من دولتى الفرنسيس

والإنجليز على ما طلبته ثم انصرفوا على غير طائل وتعطلت المخابرة ووقفت عند حدها الذى كانت عليه.

(مطلب)

قيام تييرس كبير سياسة الفرنسيس لنصرة محمد علي باشا وتعاقد الدول على العمل ضد محمد علي باشا

واتفق بعيد ذلك بقليل أن تولى الموسيو تييرس رياسة الحكومة الفرنسوية وكان يكره أن تحل المسئلة المصرية جميع الدول ويرغب أن يكون حلها بينه وبين السلطان مباشرة فما استقرّ به المنصب حتى سير إلى السلطان من يعلمه بوجوب ترك إيالات الشام ومصر إلى محمد على باشا وذريته من بعده ويتوعده بقيام دولة الفرنسيس للذب والدفاع عن محمد على باشا إن أبى عليه ذلك وسير أيضاً إلى محمد على باشا يمنيه بالأمانى الطويلة ويحضه على نبذ مطالب دولة الإنجليز وعدم الالتفات إليها وأن يثابر على الجد والاجتهاد وتقوية الحصون والقلاع الشامية وأنه سيأتيه المدد من عسكر الفرنسيس إذا هم الإنجليز بإكراهه على قبول ما لا يحب فتقوت عزائم محمد على باشا قيل: ولكنه كان يحسب ما وراء تألب بقية الدول على معاكسته فكان كثير الوساوس شديد الهواجس بعيد النظر فى العواقب فلما علم اللورد بالمرستون كبير سياسة الإنجليز بما فعله تييرس صاحب سياسة الفرنسيس تجرد إلى المقاومة وعمد إلى إغراء دولة الروس والنمسا وبروسيا على التحالف معه على صد إغارات الأمير إبراهيم ورد جميع ما أخذه من البلاد الشامية وإرجاعه إلى طاعة سلطانه وما زال بهم حتى أفلح وتعاقدوا معا على هذا العهد :

أولا: إلزام محمد على باشا بإرجاع جميع ما أخذه من بلاد الدولة ما عدا الجانب القبلى من ولاية الشام دون مدينة عكا.

ثانياً: محاصرة السفن الإنجليزية والسفن النمساوية للموانى الشامية ومساعدة جميع من أراد من أهل الشام على خلع طاعة الأمير إبراهيم والخروج على العساكر المصرية لإشغالهم عن مقاومة سفن الدولتين.

ثالثاً: دخول سفن روسية وإنجليزية ونمساوية إلى بوغاز القسطنطينية للذب عن المدينة إذا اتصلت بها العساكر المصرية.

رابعاً: عدم جواز عبور سفن إحدى الدول المذكورات بوغاز القسطنطينية ما دام الأمن مستتبا فى المدينة.

خامساً: وجوب تصديق الدول الثلاث المذكورات على هذا العقد فى مدة لا تتجاوز الشهرين وأن يكون هذا التصديق فى مدينة لندن.

وأضافوا إلى هذا العقد صكا موقعا عليه من مبعوث دار السلطنة فيه بيان لما وقع الاتفاق على إعطائه إلى محمد على باشا من الحقوق، قال بعض كتاب الأخبار: وعز على كبير سياسة الإنجليز الصبر فعمد إلى دس الدسائس وإثارة الفتن بين أهل لبنان وأوعز إلى سفيرهم بدار السلطنة أن يعجل فى ذلك فسير السفير ترجمانه المدعو (وود) إلى الشام فوصلها ولم يلبث بها أياماً حتى ظهرت الفتنة وعمت البلاد وخرج الشاميون على الأمير إبراهيم وامتنعوا من دفع الخراج وحمل المؤن للجند فركب الأمير إبراهيم وسليمان باشا الفرنسوى والأمير عباس على أهل الثورة وقاتلوهم حتى أخضعوهم وأرجعوهم إلى الطاعة صاغرين وجاء المدد من مصر فتقوت عزائم المصريين ونالوا من الشاميين وأطفئوا نار الثورة وبالغ سليمان باشا فى تحصين مدينة بيروت وجعلها على أهبة الدفاع وشحنها بالمؤن والذخيرة وأنشأ القلاع والحصون بالثغور والمدن وتأهب لصد الأعداء برا وبحرا وأرسل إلى محمد على باشا يطلب المدد من طريق البحر فعلم كبير سياسة الإنجليز بذلك وأوعز إلى الأمير نابير من أمراء سفن الحرب الإنجليزية بالوقوف بسفنه فى طريق الشام والإسكندرية وإحراق كل ما يلاقيه من السفن المصرية وأسر ما يمكن أسره منها فأحس كبير السياسة الفرنسوية بذلك فسير فى الحال مركبا إلى مدينة بيروت لتخبر قائد الجيوش المصرية بالخبر وجاء النبأ إلى محمد على باشا فأزعجه واسترجع ما كان قد سيره من تلك السفن ووصلت السفن الإنجليزية مع نابيير إلى الإسكندرية فلم تعثر فى طريقها على واحدة من السفن المصرية.

ولما كان خامس عشر جمادى الأولى سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية تم توقيع الأحزاب على معاهدة لندن وصدق عليها السلطان فصار معمولا بها من ذلك اليوم ولم يمض عليها شهر حتى أبلغها قناصل الدول المتعاهدة إلى محمد علي باشا وعرضوا عليه ما اتفقت عليه كلمة دولهم من إعطائه ولاية مصر له ولذريته من بعده وولاية نصف الشام بما فيها عكا مدة حياته ثم تردّ إلى مملكة السلطان بعد موته وضربوا له أجلا عشرة أيام قيل فأزعجه هذا الحال وأحزنه ومضى الأجل المضروب

فلم يجب إلا بالسلب والامتناع وعدم التسليم فى شىء مما تطلبه الأحزاب فأخبره القناصل بأن امتناعه عن قبول ذلك قد أسقط حقه أيضاً فى أخذ مدينة عكا مدة حياته وصارت الدول لا تسمح له بشىء سوى ولاية مصر فكبر غيظه وراجعهم فى الكلام فقالوا لا سبيل إلى غير ذلك وقد أمهلناك عشرة أخرى فأصر على الامتناع وانقضت المهلة ولم يجبهم فسيروا الأخبار بذلك إلى دار السلطنة ولما ضربوا له الأجل الأول ولم يجب رسم السلطان بعقد مجلس فى دار شيخ الإسلام حضره المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب العالية وتناجوا فى امتناع محمد على باشا وتأهبه للذب والدفاع فبعد أخذ ورد أفتى الشيخ بسقوط حكم محمد علي باشا من الشام وخلعه وقرئت هذه الفتوى في سائر مساجد دار السلطنة وورد الخبر بما جرى إلى محمد علي باشا فأرسل إلى السلطان يقبح ما أفتى به شيخ الإسلام ويقول: إما ولاية مصر فهى من حقوقى وحقوق أولادى الوراثية وأما الشام فلا أتخلى عنها بعد الذى أرقته فيها من الدماء وصرفته من الأموال الطائلة.

(مطلب)

إطلاق سفن الإنجليز القنابل على بيروت وسائر السواحل الشامية، وما كان من وراء ذلك

وجاء الأمر إلى نابيير أمير سفن الحرب الإنجليزية بالتأهب لإطلاق المدافع على بيروت وجميع السواحل الشامية وأخذها من أيدى المصريين فسار بسفنه قاصدا بيروت وأخذ فى طريقه كل ما صادفه من مراكب التجارة المصرية ولحق به أيضاً الأميرال ستفورد ومعه ثمان سفن حربية من القطع الكبار ولحقتهم التجريدة العثمانية من قبرص وهى زهاء ستة آلاف مقاتل تحملها ثمان وعشرون قطعة من سفن النقل الإنجليزية ومقدمها الأمير واكر وأرسى نابيير سفنه أمام حصون بيروت وأرسل إلى سليمان باشا الفرنسوى مقدم العساكر المصرية بها يعلمه بسرعة التخلى عن المدينة والجلاء عنها وسير إلى من بعكا يخبرهم بذلك أيضاً وطير الأخبار إلى الآفاق بما تقرر شرعا من خلع محمد على باشا وتنزيله عن ولاية الشامات وحض أهل الشام جميعا على الخروج وشق عصا طاعة الأمير إبراهيم فبدأت عند ذلك تظهر علامات الوحشة بين الفريقين وأخذ كل حذره وجعل سليمان باشا يرتب عسكره ويزيد فى تحصين القلاع والحصون ويبعث البعوث إلى بقية الثغور للحض على اليقظة

والالتفات وأرسل محمد على باشا إلى الموسيو تيرس كبير السياسة الفرنسوية يستنهضه إلى الوساطة فى الأمر والرجوع بالأحزاب إلى اللين وترك الشدّة فتجرد الموسيو تيرس إلى ذلك وبالغ فى الإرهاب وجعل يتأهب ويحشد الجيوش ويعدّ المعدات للذب والدفاع عن جميع مطالب محمد على باشا. قال بعض كتاب الأخبار: ولكنه رأى أنه فى حاجة إلى شىء من السلاح والذخيرة لفراغ المخازن منها يومئذ وأنه ينقصه أشياء أخرى من معدات الحرب فكاد يسقط فى أمره وشاع الخبر بذلك بين الفرنسيس فقاموا على كبير سياستهم وقبحوا فعاله ونادوا بالويل والثبور ورموه بالخيانة والغدر ووسموه بالكذب والفجور حيث حرض محمد على باشا على مقاومة الأحزاب وشق عصا طاعة سلطانه ثم عاد فتخلى عنه عند شديد الحاجة وجعلوا يطوفون جماعات حول بيته وهم يهزءون ويسخرون به ويصيحون فكبر عليه الأمر واستعظمه وأنزل نفسه عن منصب الرياسة واعتزل موقف هذه السياسة فى سلخ رمضان سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وجاء الأمر إلى أمير سفن الحرب الفرنساوية التى كانت راسية يومئذ على مقربة من بيروت بسرعة العود إلى جزائر اليونان ثم إلى بلاد الفرنسيس فأقلعت من فورها وتركت الشام ومصر هدفا لرمى قنابل سفن الأحزاب فعدّ ذلك لدولة الفرنسيس من الغلطات المسوّدة لوجه تاريخ حسناتها فى ديار مصر وهكذا سياستها عند اشتداد الكروب وتفاقم الخطوب ومثل هذا سواء بسواء ما فعلته مما نجم عن ظهور الثورة العرابية كما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

ولما كان الخامس عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين تقدمت سفن نابيير الإنجليزى نحو حصون بيروت ورمتها بالقنابل وراسلت الرمى لحظة ثم انكفت وأرسل نابيير إلى سليمان باشا الفرنسوى يقول له: أن تخل عن الحصون وانجل بعسكرك عن المدينة قبل أن أدكها عليكم دكا فأرسل إليه سليمان يقول: لن تدخلوها إلا خرابا بلقعا ولم نسلم لكم فيها وفينا رجل وكان قد سير إلى الأمير إبراهيم فى بعلبك أن ينحدر إلى بيروت بمن معه من العساكر والأجناد فحضر ونصب خيامه ظاهر بيروت وباتوا ليلتهم ثم أصبحوا وقد اقتربت جميع السفن من المدينة وأطلقت عليها القنابل واشتدت فى القتال شدّة بالغة حتى أحرقت المدينة ودكت أسوارها وتقدم الأرشيدوق فردريك أمير سفن الحرب النمساوية بمركبه وأطلق مدافعها على بيت المرضى من العساكر والأجناد المصرية وكانت عليه راية سوداء إشارة إلى أنه

بيت المرضى فلم يحفل بهـا وأطلق على جدران ذلك البيت القنابل حـتى دكه على من به من المرضى ولم تأخـذه شـفقـة ولا حنان وهم يقـولون بأنهم أنصـار المروءة وإخوان الرحمة وتمكن نابيـير من تنزيل طائفة من العساكر العثـمانية والإنجليزية إلى بيروت وسير بعض السفن إلى عكا وبقية الـثغور فدمرتها بنيران المدافع وأصلت من بها من المصريين نارا حامـية، وانتقض أهل الشام ولبنان وخان الأمير بشـير الشهابى العهـد واليمين الذى حلفه للأمـير إبراهيم فاشتـدت نار الفتنة وعمت جمـيع البلاد وصار المصـريون بين منتطح عنزين وتساقطت عليـهم نيران الأعداء من البر والبـحر فانجلى من بقى منهم عما كان بأيديهم من القـلاع والحصون وخرجوا وهم فى أسوأ حال لا مؤن ولا زاد ولا دواب للحمل إلا القليل وتبعهم الشاميون يتخطفون ساقهم ويمنعون عنهم الواصل من الماء والميرة فـاشتد بهم الجوع شدة بالغة فـأكلوا جميع ما كان معـهم من دواب الحمل حتى أكلوا جذوع الأشـجار وما صادفـوه من الحشيش اليابس وشربوا بول البهائم وفشا فيهم الموات بالحميات الخبيثة وما زالوا يجدّون السير ويدافعون عن ساقهم والعدو من خلفـهم حتى وصلوا إلى حدود الديار المصرية وقد ذاقوا مرارة التعب وقاسوا شديد النصب وتحملوا ما تكل عن وصفه الأقلام ولا تحيط بنعته الأوهام وتركوا تلك الديار التى ترطب أديمـها بدماء إخوانهم حينا من الدهر، وسار نابيير بست من سـفنه الكبار إلى الإسكندرية ورسا أمام مقر مـحمد على باشا برأس التين وأرسل إليه يطلب تنازله عن جميع الحقوق التى تقررت بمعاهدة كوتاهيه فأبى محمد على باشا ذلك فأغلظ نابـيير فى القول وشدد فى الطلب وتهدده بحرق الإسكندرية ويخلعـه من منصب الولاية على مصـر أيضاً إن هو أصر عـلى الامتناع والعناد وضرب له أجلاً ضـيقا وأرسل يقول: إن مضى الأجـل ولم توقع على عقد التنازل أحرقت المدينة وجعلتها رمادا فكبر الأمـر على محمد على باشا وأحزنه جداً وترددت الرسل بينه وبين محمد على باشا عـسى أن يصلوا إلى أمر فيه المصلحة فلم يفلحوا وأبي نابيـير إلا ما أراد فأجـابه محمد علـي باشا إلى ما طلب فأقلع نابيـير بسفنه راجـعا إلى دار السلطنة وعـاد محمـد على باشا إلى الشكوى فـرفع أمره إلى دولتى الفرنـسيس والروس وشكا مما فعلـه نابيير فـعمدت الدولتـان إلى إبطال ذلك العقد وعملنا جهد الاستطاعة على إحباط مساعى دولة الإنجليز نظرًا لتفردها بالعمل وتجاوزها حد الوساطة وشددنا فى ذلك وكادت الروس تـتحد مع الفرنسيس على ما فيـه الإضرار بالدولة العـثمـانية فخـشى السلطان شر العـاقبـة وعمد إلـى الملاطفة

والمجاملة وأنفذ إلى محمد على باشا بأن تكون ولاية مصر فى عقبه وللسلطان أن يختار منهم الأليق فامتنع محمد على باشا من قبول ذلك أولاً ثم عاد فرضى به وتقررت القاعدة بين الفريقين نهائيا وتم الاتفاق.

(مطلب)

وصول فرمان السلطان إلى محمد علي باشا بجعل ولاية الديار المصرية في عقبه، وتحديد حقوق الولاية، وما جاء بعده من الفرمانات

فلما كان حادى عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية ورد فرمان السلطان بذلك إلى مصر فأبلغته قناصل الدول إلى باغوص بيك ناظر الخارجية يومئذ ونصه:

قد رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى من طول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة إدارتها لكم من مدّة مديدة لا يجعلان عندنا ريبا بأنكم قادرون بما لكم من الغيرة والحكمة فى إدارة شئون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة ونظرًا لتعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فلابد أنكم تقدّرون إحساساتنا إليكم حق قدرها وتجتهدون فى بث هذه المزايا التى التزمتم بها إلى أولادكم ولذلك قد صممنا على تثبيتكم على ولاية مصر وسلمنا لكم زمامها حسب الحدود المبينة بالخريطة المرسومة لكم من لدن صدر دولتنا الأعظم وقد منحناكم فضلاً عن ذلك الولاية بطريق التوارث بالشروط الآتية.

عندما يخلو منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدّتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة فى حق أولاده أيضاً إلى ما شاء الله فإذا انقرضت ذريتكم الذكور فلا حق لأولاد بناتكم الذكور فى الولاية وإرثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب للولاية على ديار مصر بالإرث من بعدكم وجب عليه الحضور إلى دار السلطنة لتقليده الولاية بشرط أن حق التوارث الممنوح لكل والٍ منه لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بنفس معاملتهم وجميع خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كل خانه وكافة القوانين الإدارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بها فى جميع

ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدولة المتحابة يجب العمل بها جميعها فى ولاية مصر أيضاً وتحصيل جميع الأموال والضرائب المفروضة على أهل مصر باسمنا الملوكانى.

ولكى لا يكون أهل مصر الذين هم من بعض رعايا بابنا العالى معرّضين للمضار والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الضرائب بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية ويرسل إلى خزينة بابنا العالى العامرة ربع الإيرادات الناتجة من جميع الرسوم الجمركية ومن بقية الضرائب التى تتحصل فى سائر الديار المصرية ولا يتأخر منه شيء ألبتة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم للقيام بنفقة التحصيل والإدارة والعسكرية ونفقات الوالى وأثمان الغلال التى تقوم مصر بتسييرها فى كل عام إلى الحرمين الشريفين ويبقى هذا الخراج مستمرا أداؤه على هذا الوجه مدة خمس سنوات تبتدىء من عام سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ويصبح تعديل ذلك بطريقة أخرى فى مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة الإيالة المصرية ونوع الظروف والمناسبات التى تطرأ عليها.

ولما كان من واجب بابنا العالى الوقوف على مقدار الإيرادات فى كل عام وكيفية تحصيلها لا سيما تحصيل العشورى منها وجبابة بقية الضرائب وكان الوصول إلى معرفة هذا كله يستلزم تعيين عمدة يخول حق المراقبة على جميع أعمال إيالة مصر فينظر فى ذلك فيما بعد وسيتقرر ما يوافق إرادتنا السلطانية ونظراً لأهمية طريقة سك النقود ووجوب تقرير قاعدة ثابتة لهذا الأمر المهم كى لا يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة فقد اقتضت إرادتنا السلطانية أن تكون جميع النقوذ من الذهب والفضة التى يجوز لإيالة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنفوذ المضروبة فى الضربخانة السلطانية العامرة سواء كانت فى العيار أو فى الشكل ولا يكون لإيالة مصر فى أوقات السلم أكثر من ثمانية عشر ألفا من الجند للمحافظة على داخلية البلاد بحيث لا يجوز أن تزيدوا على هذا العدد شيئاً ألبتة غير أنه لما كانت قوات مصر العسكرية هى معدة لخدمة ممالكنا المحروسة أسوة ببقية إيالاتنا العثمانية فلذلك يسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى لزومه ويراعى فى خدمة الجندية بإيالتكم ما هو مقرر ومتبع فى كافة ممالكنا المحروسة وهى بعد أن تخدم الجند خمس سنوات يستبدلون بغيرهم من أبناء البلاد وهذه القاعدة يجب اتباعها فى إيالة مصر بحيث ينتخب ممن يكون فى الخدمة حالا بعد الذين

أمضوا تلك المدة عشرين ألفا فيبقى منهم ثمانية عشر ألفا بمصر والألفان الباقيان يرسلان إلى الآستانة لأداء مدة خدمتهم وحيث إن خمس هذا القدر يعنى العشرين ألفا واجب استبداله سنويا فيطلب فى كل سنة من مصر أربعة آلاف حسب القاعدة المقررة فى نظام العسكرية عند سحب القرعة بشرط أن تستعمل مواجب الإنسانية ونزاهة القصد والسرعة المقتضية فى هذه الأحوال فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى ممن ينتخبون حديثاً ويرسل منهم أربعمائة إلى الآستانة فمن أتم منهم خدمته سواء كان ذلك بمصر أو بدار السلطنة عاد إلى بلده ولا يجوز طلبه للخدمة مرة ثانية هذا وبما أن طبيعة بلاد مصر وهواءها ربما يستلزم أن تكون أقمشة ملابس عسكرها غير أقمشة ملابس عسكرنا المنصور فلا بأس بذلك إنما يراعى جيداً أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التميزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات سائر عسكرنا المظفر وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازاتهم وملابس البحرية والعساكر البحرية ورايات السفن المصرية يجب أن تكون كملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا ويجوز للحكومة المصرية أن تمنح ضابطان البر والبحر إلى حد رتبة الملازم أما ما كان من فوق ذلك فمرجع الأمر فيه إلى إرادتنا الملوكانية ولا يسوغ منذ الآن لوالى مصر أن ينشىء سفنا حربية إلا بإذننا الخصوصى، ومن المعلوم أن الامتياز المعطى من لدنا بوراثة مصر هو معلق بجميع الاشتراطات المبينة آنفا فإذا توقف تنفيذ هذه الاشتراطات كان الامتياز المذكور لاغيا لا عمل له وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكانى لتعرفوا أنتم وذريتكم قدر ما جبلنا عليه من الإحسان فتقوموا مع تمام الاعتناء بتنفيذ الاشتراطات المدونة آنفا وتمنعوا عن أهل مصر كل ما يكرهونه وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم وتجتنبوا كل مخالفة لسائر أوامرنا السلطانية مع إخبار بابنا العالى عن جميع المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم .اهـ.

وورد مع هذا الفرمان فرمان آخر بتوجيه ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار إلى محمد على باشا مدة حياته فقط ثم تعاد بعد موته إلى السلطنة العثمانية فيوليها السلطان لمن يشاء ونصه: حيث قد تثبتم على ولاية مصر بمقتضى ما هو واضح بفرماننا السلطانى الصادر إليكم ووافق إرادتنا الشاهانية توريث ذريتكم من بعدكم مسند هذه الولاية بشروط وحدود معلومة ومعينة فقد قلدتم أيضاً فضلاً عن ولاية ديار مصر إيالات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير توارث فبناء على ما هو معهود فيكم من الحكمة والاختبار وما

أمرتم به من التمسك بهما تقومون بإدارة هذه الإيالات وترتيب جميع شئونها بما ينطبق على عدالتنا ويوافق رغائبنا السلطانية مع توفير أسباب السعادة لسائر الرعية وترسلوا فى كل سنة إلى بابنا العالى قائمة ببيان الإيرادات السنوية جميعها.

وحيث إنه فى غالب الأحيان يصير الهجوم من العساكر والأجناد على القرى والبلدان بتلك الأصقاع فيأخذون منها ما يقدرون على أخذه من الشبان الذكور والإناث ويتصرفون فيها بالبيع وغير ذلك نظير مرتباتهم وعلوفاتهم فهذه الفعال فضلاً عما يترتب على استمرارها من انقراض أهالى تلك الديار فإنها من الأمور المخالفة للشريعة الإسلامية المطهرة وكذلك أيضاً ما هو شائع ومستعمل فى جب الرجال أى جعلهم خصيانا لخدمة النساء فإنه من أفظع الأمور التى لا تنطبق على إرادتنا السنية لما فيها من مخالفة مبادىء العدل والإنسانية التى هى من أجل مقاصدنا منذ جلوسنا على عرش الخلافة العظمى فعليكم مداركة جميع الأمور بما ينبغى من العناية والاعتناء ومنع حدوثها فى المستقبل واعلم أنى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقى المأمورين الموجودين الآن بديار مصر إلا من وصلوا منها بمراكبنا الحربية فاستسلموا وكما قلنا بفرماننا السلطانى المرسل إليكم قبل هذا أنه يجوز لكم منح سائر الضابطان من البرية والبحرية لحد رتبة الملازم فقط فلا بأس من إرسال جدول بأسماء من رتبتم من ضابطان العسكر المصرى إلى بابنا العالى لينال التصديق منا وترسل لكم الفرمانات المثبتة لرتبهم هذا ما اقتضته إرادتنا الشاهانية ووافق رغبتنا السامّية السلطانية فعليكم المبادرة فى العمل بمقتضاه . اهـ.

فلم ير محمد على باشا بدا من الطاعة وخفض الجناح لهذه الشروط على ما فيها من الحيف والقهر وذل النفس بعد الذى نالته عساكره من الفوز والغلبة ولكنه كتب إلى الدول يشكو من جور هاته الشروط وشدة ما فيها من الحجر والتضييق ويسألها الوساطة فى تحديد شروط الوراثة وجعلها لأكبر أولاده من بعده وتحديد مبلغ الخراج وجعله قدرا يحمل فى كل عام إلى الخزينة السلطانية ومنحه حق إعطاء الرتب وألقاب الشرف للضابطان البريين والبحريين إلى رتبة الميرالاى فأجابته الدول إلى ذلك وخابرت السلطان فى الأمر فأجابها إلى ما طلبت وسير إلى محمد على باشا الفرمان بذلك فى عاشر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ونصه:

إن الحضرة الفخيمة السلطانية تلقت ما تعطفت عليها به الدول المتحالفة من

النصائح فى هذه الواقعة أيضًا ولذلك قد منحت محمد على باشا وتكرمت عليه بالامتيازات الآتية بشرط انقياده الانقياد التام إلى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالاً والتى ستبرم فى مستقبل الأيام فيما بين سلطتنا العثمانية والدول المتحالفة، قد صار مسند ولاية ديار مصر من الآن فصاعدا ينتقل بالإرث من محمد علي باشا إلى أولاده وأولاد أولاده الذكور بكيفية أن يتولاه الأرشد فالأرشد فيقلده الباب العالي مسند الولاية كلما خلا هذا المسند من وال وقد تنازلت سدتنا الملوكانية عن أخذ ربع إيرادات الإيالة المصرية مقابلة تقرير مبلغ فى كل سنة يحمل إلى خزينتنا السلطانية خراجا وهذا المبلغ سيقرر فيما بعد مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب حالة إيرادات البلاد كما وأنه من الآن فصاعداً صار من المرخص لمحمد على باشا أن يمنح من تلقاء نفسه رتب ضابطان البرية والبحرية إلى رتبة الأميرالاى فقط وما زاد عن ذلك يعرض عنه لبابنا العالى أما ما يتعلق بإدارة الإيالة الداخلية التى يجب أن تكون على مثال الإدارة الجارية فى جميع ممالكنا المحروسة فهو وإن كان محمد على باشا لم يتكلم عنها بشىء حسبما يقتضيه الحال من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك بالعقد الملحق لمعاهدة المحالفة ولكن لكى لا يدع الباب العالى سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه كما لو حدث أن وقع من محمد على باشا فى مستقبل الأيام أمور مخالفة لوجه مهم من الأوجه المستندة على المعاهدة المحكى عنها قد تقرر أن تطلب أولاً الإيضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم كتابة. اهـ.

فقبلت الدول المتحالفة هذا التحوير وأشارت بتأييده فجاء الفرمان بذلك إلى محمد على باشا، ثم ورد فرمان آخر فى غرة جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف بتقرير مبلغ ثمانية آلاف كيس خراجا يحمل فى كل عام إلى الخزينة السلطانية ووقفت المخابرات بين محمد على باشا وسلطانه يومئذ عند هذا الحد.

(مطلب)

وصول سيف ونيشان هدية من السلطان إلى محمد علي باشا

فلما كان رابع عشرى شعبان سنة سبع وخمسين قدم إلى القاهرة رسول من دار السلطنة يحمل سيفا ونيشانا عاليا هدية من السلطان إلى محمد على باشا فأنزلوه فى سراى شبرى واحتفلوا للقائه احتفالا شائقا وعملوا لذلك تشريفا بقلعة الجبل فى

خامس عشرى الشهر اجتمع فيه جميع الأمراء والكبراء ورجال الحكومة والمشايخ والعلماء، قال بعض كتاب الأخبار: ولم تكن هذه الهدايا لتذهب ما علق بخاطر محمد على باشا من فعال رجال دار السلطنة ولا ما داخله من الحقد على كبير سياسة الإنجليز والبغض لهذه الدولة فقد عملت حتى نالت منه وسلخت عنه الشام والحجاز وغيرهما ولم تبق له إلا ولاية مصر والنوبة وذهبت أمواله ودماء رجاله الذين فتحوا تلك الأصقاع ودوّخوها هدرا وانحصرت حدود مملكته وضاقت حلقة سلطنته وألزم بدفع الجزية صاغرا مبلغا قدره ثمانية آلاف كيس ذهبا تحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل عام وقل عدد عساكره إلى ثمانية عشر ألفا لا يلبسون الإ زى العسكر السلطانى وقيدوا علاقته مع سائر الدول الأجنبية بقيود منها أنه لا يجوز عقد عهود أو استدانة شيء من المال إلا بأمر من دار السلطنة ولا يعطى شيئاً من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار إلا إلى الدرجة الثانية للملكيين ورتبة أميرالاى للعسكريين فخسر بسعايتهم ما لم يكن له فى حساب وقد كانوا يريدون إخضاعه وإرجاعه إلى طاعة سلطانه بغير عهد ولا شرط، قال: وسعوا فى حرمان ذريته من تولى منصب الولاية من بعده تشفيا وانتقاما لأمور نقموها عليه منها أنهم كانوا اشتروا جزيرة عدن من أحد مشايخ العربان مع أرض أخرى متصلة بها بمبلغ من المال وأنشئوا بها حصنًا عظيما لعلمهم ما سيكون لتلك الأرض من الأهمية فى مستقبل الزمان فلما امتدت شوكة محمد على باشا بالفتح إلى خليج فارس وعلت كلمته وكبرت شهرته بتلك الأصقاع خاف الإنجليز على ما لهم من الأملاك الواقعة على شطوط البحر الأحمر فكتبوا إلى محمد على باشا بأن ينفذ إلى عسكره النازلين على تلك الجزيرة بالانجلاء عنها خوفاً من تألب العرب مع العساكر المصرية فيقومون على الإنجليز النازلين بتلك الجزيرة فيكرهونهم على الجلاء عنها فأبى محمد على باشا عليهم ذلك فبقيت فى حوزة جنوده تابعة لمملكته حتى تنازل عنها إلى سلطانه مع مكة والمدينة وجميع الديار الحجازية بغير عهد ولا شرط.

(مطلب)

كف محمد علي باشا عن الحرب والعناية بإصلاح شئون ملكته

قال الراوى لهذه الحادثة: ونقموا على محمد علي باشا أشياء أخرى غير هذه فكانوا لذلك يظهرون له غاية البغض وينظرون إلى فعاله بعين المقت والحسد

ويخشون عاقبة ظهوره فلم ينكفوا عنه حتى أذلوه وأقعدوه عن كل عمل فانكف عن الغزو والفتح ووقف عند حد العناية بإصلاح شئون مملكته وترتيب أمورها على ما تقتضيه مصلحة العباد والبلاد وسالم سلطانه وخليفته وخفض له جناح الطاعة وأظهر له غاية الإخلاص والولاء وسير ولده الأمير محمد سعيد إلى دار السلطنة ليرفع إليه فروض الإخلاص فنال الأمير محمد من السلطان غاية الألتفات وحسن الوفادة فلما استأذنه بالرجوع إلى مصر أذن له وأهداه كثيرا من الهدايا والتحف النفيسة والتعابى الثمينة وأحسن إلى من كانوا معه من الخدم والحشم والأتباع فكان لهذا الصنيع وقع حسن عند محمد على باشا فتجرد إلى الإصلاح، وكانت الحوادث المتوالية والمحن المتراكمة قد أمحلت البلاد وكادت تذهب ما بقى بها من آثار العمران فعمد إلى إنشاء المعامل وضبط الصنائع واحتكر تجارة جميع الأصناف وراك الحياكة وجعل لكل شىء ديواناً وكتابا وجعل لكل ديوان لما يتحصل من غلات البلاد حواصل بكل بلد يأتى إليها الزارعون بما يتحصل عندهم بثمن مقدر فيخصم منه ما عليه من الخراج ويباع ما بقى إلى التجار الأجانب الذين كانوا يأتون إلى ديار مصر ليمتاروا وأنشأ معامل للحديد وأخرى للقطن وأخرى للكتان ومثلها لسائر أصناف الأقمشة من المقصبات والأحواخ ونحوها ونظم الشوارع ومهد الطرق وابتنى المبانى العظيمة ديارا للعلوم والصنائع وأنشأ بالإسكندرية معملا للسفن وصناعة البحار وكان قد أتى بسفن الحرب والدوارع من البلاد الأجنبية وأنشأ بها أيضاً مدرسة لعلم البحار وأتى لها بالأساتذة من ديار الإنجليز والفرنسيس واستقدم زهاء الألف وخمسمائة من فلاحى الفرنسيس وفرقهم فى البلاد البحرية والقبلية ليعلموا أهلها طرق الزراعة ويبثوا بينهم محبة وخدمة الأرض ويكثروا من زراعة شجرة البن واستقدم المسيو جوميل الفرنسوى لزراعة القطن وقد كانت إلى ذلك الحين هملا مهملا لا يعرفون لها طريقا ففاز ونجح وكبرت زراعته واتسعت وأتى بنبات النيلة والأفيون وأكثر من غرس الأشجار الكبيرة النافعة وأنشأ الجنائن والبساتين العظيمة فى جزيرة الروضة وشبرى والأزبكية وبالغ فى الاهتمام بأمر الطب وأتى له بالطبيب الشهير العلامة كلوت الفرنسوى فأنشأ مدرسة لذلك وأخرى للقوابل وعهد بإدارتها إلى الست جوت الفرنساوية وأخرى للطب البيطرى وسلم إدارتها إلى المسيو هامون الفرنسوى وأنشأ ديارا لمرضى العسكر وأهل البلاد على أحسن ما يكون من النظافة والنظام وجعلها تحت نظر المسيو دوساب والمسيو لبها وقد كان الطب إلى هذا الحين كغيره هملا مهملا وسقطا مرذولا

ليس بين أهل البلاد من يعرفه بل كانوا لا يعولون إلا على ما تصفه العجائز ولا يرضون إلا بأقوال المشعوذين والدجالين فكانوا إذا مرض أحدهم ذهب أهله فطرقوا له الودع والقول وقاسوا الأثر وحسبوا النجم فكل ما قاله لهم الدجال صدقوه واعتمدوا عليه ثم يكتبون له الأحجبة والتعاويذ والتحويطات الطويلة العريضة التى ربما بلغ طول ورقتها ضعفى طول المريض وربما أضعافا ويبخرونه باللبان وجلد القنفذ والكزبرة اليابسة ونسج العنكبوت والشب الأبيض والميعة وغير ذلك وعلقوا عليه الخرزات وكان لهم عناية عجيبة بالأحجار فكانت عندهم خرزات كل واحدة يزعمون أنها تبرىء من داء فللعين خرزة حمراء يسمونها البذلة وللرقبة خرزة بيضاء يسمونها خرزة الرقبة ولهم أحجار يحكونها للفزعة والحمى يسمونها حجر الشفاء فإذا لسع أحدهم حكوا له الخرتيت وسقوه ماءه أو وضعوا له على موضع اللسعة فصا يسمى فص العقرب وغير ذلك من التمائم والأحجبة وخيطان الصوف وعظام الأموات المعروفة عندهم بعظام الكفرة أو أصبع الكافر، ومن إهمال أمر الصحة يومئذ اتخاذ الناس المقابر وسط المدينة فكانت بمصر والقاهرة شيئاً كثيراً مثل مقبرة السيدة زينب ومقبرة القاصد والشيخ عبد الله والشيخ ريحان وغيرهم بل كان الكثير من الناس يدفنون موتاهم فى حيشان البيوت وفى المساجد والمدارس الكائنة وسط المدينة، ووقع فى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وباء شديد فأمات خلقا كثيراً حتى أن الأموات كانت تشاهد ملقاة بالأزقة والحارات وبجانب جدران البيوت فى الشوارع ثم انتقل إلى الماشية فأهلك منها شيئاً يفوق الحصر وكاد يفنيها لولا لطف الله.

قال بعض الكتاب: وكما كان الطب مهملاً فقد كان كذلك أمر تدبير ماء النيل وحفظ الجسور وبناء القناطر فأتى لها محمد على باشا بالمسيو لينان الفرنسوى فأكثر من بناء القناطر والجسور وسهل سبل الزراعة ومهد المسالك وأنشأ القناطر العظيمة الواقعة على رأس مصر السفلى المسماة بالقناطر الخيرية على يدى أحد كبار مهندسى الفرنسيس المدعو المسيو موجيل وهى من أكبر الأعمال الهندسية وأشرفها وهى مفتاح النيل ومغلقة عند فرعيه الشرقى والغربى وعليها حساب رى الإقليم البحرى ونصف الإقليم القبلى وكان مع موجيل هذا جماعة من مهندسى الفرنسيس فأظهروا فى وضع هذه القناطر أسرار الهندسة ودقائق صنعة البناء وكانت ديار مصر إلى هذا الحين قد فقدت صناعها المهرة وأمست وهى فى حاجة إلى كل شىء لا سيما العمارة، أما إهمال النظافة فقد كان شاملا مصر والقاهرة وجميع المدن والبنادر على

اخـتلافـها وكـانت القـاذورات تلقى بجـوانب الحارات وعلى أبواب الأزقـة وتحت الأسبطة وفي أركان الجدران وكان مـا ينشأ من الهدم والأتربة إن اعتنى به ألقى على أبواب المدينة فيصير تلالا فإذا نسفها الريح قام منها فوق البلد سحاب من التراب نتن الرائحة كريه الشم يورث الأمراض المعدية الوبائية فأين سرّحت الطرف فى البلد ترى المجذوم والمجـدور والأبرص والأعمى وغيـر ذلك من بقية الأمـراض، وكانت البلد محاطة بالتلال من كل جانب وكانت ضيقة المسالك والحارات مرتفعة البناء على غير نظام قذرة فلا تتمكن الشـمس من تحويل أشعتها نحو قاع تلك الحـارات لتنقيها من الرطوبات وتحلل ما فيها من النتن ولا الرياح من تجفيفها وكانت تتصاعد على من بها من السكان فتحدث الأمراض الجلدية كالحكة والأجذيمة وغيرها كل هذه الأدران قد طهر منها البلاد وأراح من مصائبها العباد فحسبت له حسنات لا يمحيها كرور الأيام وينال عليها إن شاء الله خير الجزاء من بارئ الأنام.

(مطلب)

ما أصاب البلاد من الضربات السماوية في سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية

ولما كانت سنة ثمان وخمسين ومائتـين وألف هجرية نزل على البلاد جراد كثير فعمها وأهلك زرعها حتى ورق الأشـجار العظيمة وكل نبات أخضر ثم باض وأفرخ حتى غـطا وجه الأرض فوقع الـغلاء وقل وارد الغلال واشـتد الضـيق بالناس وعم البلاء والويل الغنى والفقير وهاجر الناس فراراً من أصحاب الجباية وأعوان التحصيل وقد كانوا انبـثوا فى البلاد لجبـايتها بأمر من الأمـير إبراهيم فكانوا إذا نزح أهل بلد أضافوا مـا عليهم من الخراج على البلد المجاورة لها وشـددوا على أهلها فى الطلب وبالغوا فى إيذائهم فضاق خناق أهل البـلاد وارتفع ضجيجهم وعجيجـهم وأصبحوا وهم بين منتطح كبشين إذهاب الحرث والنسل وإيذاء أصـحاب الجباية فكادوا يشقون عـصا الطاعـة ويخـرجون على عـمـال الخراج وكـان مـحمـد على باشـا يومئـذ بالإسكندرية فلمـا علم بالخبـر اضطرب قـيل فأصـابه بسبب ذلك نوع من الهـذيان وتحقق أن ذلك من فعال الأمير إبراهيم بالرعية فغضب غضبا عظيما وانتقل من مقره برأس التين إلى بيت محرم بك عند المحمودية وأقام هناك أياما وهو يخلط فى القول ويكثـر من النداء على بعض الخـدم ويقول: يالله قـد خـاننى القوم فـأيقظوا الفـتنة

وأبغضوا الناس فيّ وبقى على هذا أياماً والناس يقولون بذهاب عقله ولزوم تخليه عن حكم البلاد ثم سار من الإسكندرية إلى القاهرة فى نفر من الأتباع ونزل بقصره بشبرى فأتى إليه أصحاب الوظائف ورجال الدولة فعنفهم وزاد فى توبيخهم رحمة بالرعية فلم يجسر أحد على معاودته.

(مطلب)

زيارة محمد علي باشا دار السلطنة، وما لقيه من حفاوة السلطان به

وتاقت نفس السلطان عبد المجيد لرؤية محمد على باشا فدعاه للحضور إلى دار السلطنة فلبى دعوته وسار فى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدمّ والأتباع ونزل ضيفا على رضا باشا أحد كبار الدولة وكان رضا باشا هذا من ألد أعداء محمد على باشا ثم تمثل بين يدى السلطان فرحب به كثيراً فتقدم ليقبل يده فأمسك بيده ورفعه وأجلسه بجانبه ولاطفه جداً وحادثه ساعة، قال بعض الكتاب: واتفق أنه كان يحادث السلطان يوما فقال له فى أثناء الحديث حفظت يابنى وأحسنت، ثم استدرك أن هذا الخطاب لا يليق بأمير المؤمنين فقال: ليعف مولاى عن زلة عبده فإن حبى لأبناء مصر قد أجرى على لسانى مخاطبة الكبير منهم والصغير بيا بنى، فتبسم السلطان وقال: لا بأس عليك يغفر الله لنا ولك ولبث فى دار السلطنة زهاء ثلاثين يوما أنفق فيها من المال ألف ألف قرش ما عدا الهدايا النفيسة والتعابى الغالية والتصدق على المساكين وذوى البيوتات ثم رحل عنها إلى قوله مسقط رأسه فمكث بها أياما وأنشأ بها مدرسة للفقراء ودارا للمساكين ورحل عنها راجعاً إلى الإسكندرية ففرح الناس كافة برجوعه فرحا عظيما ودقت له البشائر وزينت المدينة ثلاث ليال وكذلك زينت مصر والقاهرة والكثير من المدن وأقام يدبر الأمر ويتصرف حتى كثر هذيانه وقل إدراكه فكان لا ينكف عن النداء على بعض حاشيته لغير سبب وكان سريع الغضب يكره أن يرى ولده الأمير إبراهيم فإذا رآه اضطرب وظهر على وجهه الغضب فأنفذ الأمير إبراهيم إلى دار السلطنة يخبر بأمر أبيه وما وصلت إليه حالته ويعلم أهل المابين بوجوب تخليه عن المنصب فأجابه السلطان إلى ذلك ورسم له بالولاية على ديار مصر وجاءه الفرمان بذلك فقرىء بقلعة الجبل فى مشهد حافل ودقت البشائر وطيروا الخبر إلى الآفاق ونقل محمد على باشا إلى الإسكندرية وكانت أحب البلاد إليه وقد كثر خلطه وكبرت علته.

فلما كان ثالث عشر رمضان سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فى ولاية عباس حلمى باشا الأول مات محمد على باشا وله من العمر ثلاث وثمانون سنة وقيل أكثر من ذلك وكان ولده الأمير محمد سعيد فى صحبته لم يفارقه كل أيام مرضه فبالغ فى جنازته ونقل نعشه إلى القاهرة مع التجلة والتكريم فى مشهد حافل جداً ودفن بالمقصورة التى ابتناها لنفسه فى جامعه الذى أنشأه بقلعة الجبل ولم يكن قد تم بناؤه فحزن عليه أهل القاهرة وسائر البلاد حزنا عظيما لاجتماع القلوب على محبته، وكان رحمه الله أبيض اللون مشربا بحمرة عالى الجبهة أصلعها أسود العينين متوسط القامة جميل الهيئة مع هيبة ووداعة سريع الحركة كثير التفكر إذا مشى يجعل يديه خلفه مثل نابوليون بونابارته بسيط الملبس لا يحب التفاخر ولا الزينة ولا كثرة الحشم والحجاب ميالاً إلى مسلمرة كبار الجند ورجال الحرب لا سيما منهم سليمان باشا الفرنسوى فإنه كان يحبه ويجله، قال بعض الكتاب: فكان سليمان باشا يقول لم أتعلق بمحبة أحد غير ثلاثة أبى وبونابارته ومحمد على باشا وكان محمد على باشا إذا جلس فى مجلسه لا يتقلد السلاح بل يجلس وفى يده علبة السعوط والمسبحة وكان سليم القلب سريع التأثر لا يعرف الكظم سريع الانقياد كريم النفس أبيها سخىّ العطاء واسع التدبير محبا للاطلاع على أخبار الأمم وأحوال الممالك كثير الاشتغال بالسياسة كبير الاهتمام بأحوال الرعية قليل العزم دينا صحيح الإسلام محبا للنصارى لا سيما القبط أهل البلاد قرّب منهم جماعة كثيرة وأخلص لهم فأخلصوا فى خدمته وخدمة البلاد فسلم إليهم مقاليد الدواوين وصرفهم فى ما وراء بابه فأحسنوا العمل وأحكموا التدبير وكان الأجانب عموما يسمونه بمحيى ديار مصر بعد اندراسها ومبيد طوائف المماليك رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه جنات النعيم.

(مطلب)
(فى ولاية الأمير إبراهيم باشا ابن محمد على باشا)

لما اشتدت علة محمد على باشا وكثر هذيانه أنفذ ولده إبراهيم باشا إلى دار السلطنة يعلمهم بما آلت إليه حالة أبيه ويسألهم الإجازة بتنزيله عن منصب الولاية وتخليه عن حكم البلاد فجاءه الأمر بذلك فى جمادى الأولى سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فجعل يتصرف فى الأمور بالوكالة عن أبيه حتى يأتيه فرمان

التولية فلما كان منتصف شعبان من السنة قدم إلى القاهرة مظلوم بيك أحد رجال دار السلطنة ومعه الفرمان بولاية إبراهيم باشا فقرىء فى ثامن عشر شعبان بقلعة الجبل فى محفل حافل من كبار الدولة والعلماء والمشايخ والكبراء ودقت البشائر وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما كان شهر رمضان سافر إبراهيم باشا إلى دار السلطنة ليقبل الأعتاب على حكم ما فى فرمان الولاية فأكرم السلطان لقاءه وأحسن وفادته ولبث أياما ثم عاد فوصل الإسكندرية فى عاشر شوال من السنة وهو يشكو من مرض فى الباطن وما زال يشتد به المرض حتى مات ثالث عشر ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف ميلادية فلازم أهل مصر والقاهرة الحداد عليه أربعين يوما ودفن بالإمام الشافعى وكان جليل القدر مهيبا حازما واسع الفكر عظيم التدبير شديد البطش سريع الغضب جبارا قرما عنيدا صبورا على الحروب جسورا راسخ القلب موفقا يحسبه العدوّ بألف مقاتل فى قومه، وكان لما عاد من حروبه فى آسيه الصغرى وتم عقد الصلح بين محمد على باشا وسلطانه عزم على السفر إلى بلاد الفرنسيس للاطلاع على ما فيها من فنون القتال وأسرار الحروب فسار معه سليمان باشا الفرنسوى ورافقهما الدوق نيمورس والأمير جوانفيل فلما وصل إلى عاصمة الفرنسيس قوبل بغاية التجلة والاعتبار وكان ينتظره أحد كبار الأسطبل الملوكى وقيل أحد كبار الدولة ومعه فرس عربى مطهم بسرج من السروج الكليمانية قد أعد لركوبه فقدمه إليه فركبه وسار بين مظاهر الاحتفال والاحتفاء وكان هذا الفرس لإبراهيم باشا وقد شاهد معه جميع الوقائع والحروب فى الشام وآسيه الصغرى ودخل به مدينة نصيبين ظافراً منصورا بعد فتكه بالعسكر السلطانى فسيرّ به محمد على باشا بعد ذلك هدية إلى قصر التويلرى بعاصمة الفرنسيس ومعه تسعة من السوّاس المصريين ولبث إبراهيم باشا بباريز أياماً أولمت له فيها الولائم العظيمة وكانوا يضعون له فى كل مأدبة أو وليمة كرسيا موجها إلى جهة الشرق إشارة إلى أنه نابغة الشرق ومحيى دياره بعد الاندراس وكانت آلات الطرب والموسيقات تكرر بحضرته نغمات النصر وتردد أدوار الظفر والألحان الحماسية إشارة إلى الوقائع والحروب التى اشتهر بها وفاز فيها بالنصر والغلبة، وجال فى باريز وشاهد ما فيها من الغرائب وتصدق على فقرائها بثمانية وأربعين ألف قرش وسيرت إليه ملكة الإنجليز تدعوه لزيارة بلادها فاعتذر ولم يشأ الذهاب لبغضه لكبار الإنجليز وبارح ديار الفرنسيس إلى عاصمة البرتغال فأحسن ملكها وفادته واحتفل لقدومه

احتفالاً شائقا وأهداه نيشان الصليب الأكبر ثم عاد إلى مصر وعاد فى ركابه سليمان باشا.

(مطلب)

فى من هو سليمان باشا الفرنسوى

وقد سمعت بعض الناس يقولون إن سليمان باشا هذا كان فوضويا ميالاً إلى الثورة وقلب هيئة الحكومات فلما اشتهر خبره بين كبار الفرنسيس خافوا منه فأقصوه إلى البلاد البعيدة فجاء هارباً إلى مصر ودخل فى خدمة محمد على باشا وتقلب فى الوظائف العسكرية حتى حاز الرتب العالية والألقاب السامية واعتنق الديانة الإسلامية تزلفا واسترضاء فجعلت أبحث عن ترجمة حاله وأسأل عن صدق أخباره ممن كانوا معه وساروا فى ركابه إلى معامع الحروب ومشاهد القتال فلم أعرف منهم إلا ما عرفه العامة وتحدثوا به وما زلت أبحث حتى عثرت على ترجمته لأحد كتاب الفرنسيس فنقلتها عنه وهى، هو سيف بن أوكتاف جوزيف انتلم الطحان ولد بمدينة ليون من أعمال فرنسا فى أوائل شهر أبريل سنة سبع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة إحدى ومائتين وألف هجرية وكان له جد قوى الجأش شديد البأس طاغية قاسى القلب يلقب بالتركى لقساوته وسكون قلبه وكان سيف المذكور مولعاً بالحروب ميالا إلى الغزو والجهاد والخوض فى معامع القتال فلما بلغ السابعة عشرة من عمره سار إلى طولون إحدى أعمال فرنسا ودخل فى خدمة بحريتها متطوعا وأقام بها خمس سنوات ثم نال رتبة وكيل للفرقة الثانية البحرية المدفعية ولبث بها زهاء سنتين ثم تاقت نفسه إلى الانخراط فى سلك الجندية البرية وقد كان مارس حركاتها وتعلم أساليبها وجال فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلانتيكى مرات كثيرة وزار جزائر الأرخبيل ثم عاد إلى ليون لجراحة أصابته فى ذراعه الأيسر فى حرب ترافلجار وأقام مع أبويه أياما كثيرة ثم حدث بعد ذلك أن وقع بينه وبين عدوّ له مشاجرة أدت إلى الملاكمة ثم المضاربة فانقض سيف على عدوّه وقتله وفرّ هاربا من ليون إلى إيطاليا خوفاً من العقاب ودخل فى عسكريتها جنديا فى الفرقة السادسة التى كان يقودها الكولونيل باجول ولبث على هذا الحال حينا ولما كان من نظام دولة إيطاليا العسكرى فى ذلك الحين تعليم الفرسان الإيطالية جميع حركات المشاة أيضاً قد تكفل سيف بتعليمهم وأخذ ذلك على عهدته فظهر أمره وكبر شأنه وعرفه الناس فاتسعت شهرته، فلما كانت سنة تسع وثمانمائة وألف ميلادية اختارته الدولة

الإيطالية لأن يكون قائدا لجيوشها التى ساقتها إلى القتال فى واقعة الرين الشهيرة مع دولة الروس فأبلى فى تلك الحرب بلاء حسنا حتى شهد له العدو بالبسالة ومعرفة أسرار الحروب وما زال يقاتل والنصر يلازمه والتوفيق يتقدمه حتى أصيب فرسه فى إحدى المعامع فسقط ميتا وسقط هو على الأرض فأصابه العدو بثلاث طعنات وطلق نارى ثم حمل أسيرا إلى مدينة موسكو عاصمة الروس فلبث بها ما شاء الله حتى شفيت جراحته ونقه من علته واستعرض القيصر أسراء تلك الحرب وعلم بأحوال سيف فمال إليه وامتدح بسالته وجعله وكيل مقدم جميع الفرسان الروسية ثم مقدّم جميع الفرسان فظهر نبله واشتد أمره وحاز نياشين الشرف فى معامع الحروب وكاد أن يسقط فى يد العدو فى واقعة بوزن وقد جرح بجراحة خطيرة ثم شفى منها فقلده القيصر قايمقامية قيادة الجيوش الروسية وفى سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية افتتح بعض المقاطعات القوزاقية بطريقة لم يسبق لها مثيل ولم يكن ليسمح له بها رئيسه الجنرال پيره فزاد إعجاب رجال حرب الروس به وقدروه قدره ولما طالت غيبة سيف عن الآل والوطن حنت إليهما جوارحه فصار بين إقدام وإحجام حتى علم بونابارته من أمره ما أعجبه فأنفذ إليه بالحضور إلى عاصمة الفرنسيس فلبى إشارته وأتى مسرعا إلى باريز فأكرم بونابارته لقاءه وأدخله فى خدمة الجيوش الفرنسوية فسار سيرة حسنة للغاية وبالغ فى الطاعة وأداء الخدمة حقها واشتهر فى خدمة بريئة شهرة عظيمة للغاية فمال إليه بونابارته وأحبه ومنحه رتبة القايمقام، ورافق المارشال جروشى قائد جيوش الفرنساوية فى واقعة وأنزلوا الإنجليزية فنال شهرة عظيمة ثم تغيب عن ساحة الحرب فدارت فى غيبته الدائرة على الفرنسيس فانهزموا شر هزيمة وكان له بعيد ذلك فى حروب المائة يوم المشهورة اليد الطولى فغلب فيها وقهر وفاز وانتصر ونال من العدو وظفر فنال رتبة الكولونيل أى أميرالاى مع نيشان الافتخار، فلما سقط بونابارته عن عرشه وبطلت الحروب بسقوطه عز على الأمير سيف هذا المصاب وحزن على بونابارته حزناً عظيماً واعتزل الجندية ومال إلى الزرع والفلاحة فاستأجر مزرعة فى أراضى الجرنيل وجعل يفلح حينا ثم تاقت نفسه إلى الخوض فى عباب الحروب ومشاهد القتال وكأنه أقسم أن لا يموت إلا شهيد الحرب والجلاد ولما لم يكن بين بلاده وبين دولة أخرى حرب قائمة ترك وطنه ومسقط رأسه وسكنه وسار إلى بلاد فارس وقد كان ملك فارس أخذ ينظم جيوشه يومئذ على ترتيب ونظام جيوش الفرنسيس فمر سيف فى طريقه بالإسكندرية ولبث بها أياماً فأعجبه هواؤها وحن إلى البقاء فيها وعدل عن الذهاب إلى ملك فارس وكان يعرف

بالإسكندرية تاجرا من كبار الفرنسيس فقصده وكاشفه على ما فى نفسه من الميل إلى خدمة محمد على باشا وترتيب عسكره على نسق وترتيب عسكر الفرنسيس وكان محمد على باشا ميالا إلى ذلك جدا فلما علم بأخبار الكولونيل سيف وعرف مبلغ شهرته فى تنظيم الجيوش وتدريب العسكر وتحقق من بسالته وإقدامه وتمكنه من الفنون الحربية مال إليه وأدخله فى خدمته وسلم إليه مقاليد كافة الأمور العسكرية فلاقى من كبار وصغار العسكر الأرنؤد والدلاة وغيرهم من بقية أخلاط العسكر المصرى يومئذ غاية الجفاء والشدة فكانوا يخاطبونه بفحش القول وينادونه بالكافر واشتد بغضهم إليه وكرهوا بقاءه بينهم فألحوا على محمد على باشا بإخراجه من ديار مصر وإلا فهم قاتلوه لا محالة ودسوا إلى جماعة منهم ممن دخل فى نظام العسكر الجديد أن يقتلوه فبينما كان يدرب العسكر يوما ويعلمهم استعمال البنادق أطلق عليه أحدهم بارودته فأخطأته فتغافل الكولونيل سيف عنه ولم يظهر اهتماما بأمره وظل على ما هو عليه من لين الجانب ودماثة الأخلاق وجعل يستميل خصومه ويسامرهم فنجح بعض النجاح ولكنهم عادوا فأطلقوا عليه الرصاص مرة ثانية فلم يصيبوه فتبسم وصاح عليهم لا بأس عليكم يارفاق وددت لو أنكم تحسنون الرماية فيسر خاطرى بكم فلما رأوا ثباته وشدة محبة محمد على باشا له هابوه وخضعوا له فظهرت كلمته واتسعت شهرته ولبث يعلم الجند ثلاث سنين والتوفيق ملازم له حتى ظهرت فتنة أهل المورة وخرجوا عن طاعة السلطان محمود فسير السلطان لإخضاعهم جيشا من خمسة آلاف مقاتل ومقدمه خورشيد باشا صدر الدولة يومئذ وكثيراً من سفن الحرب ومراكب النقل فاستظهرت الروم على الترك ونالت منهم قتلا وتفريقا وأحرقوا سفنهم وكادوا يدمرونها عن آخرها فأنفذ السلطان إلى محمد على باشا فى رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية يستنجده على قتال الروم ويمنيه بالأمانى الكثيرة ويخاطبه بعبارات التجلة والتكريم ويلقبه بمبيد طغام الكفار ويعده بضم مورة إلى ولاية مصر إن هو دوّخها وأرجعها إلى الطاعة وكان يوسف بوغوس بيك الأرمنى متوليا يومئذ رياسة الخارجية والتجارة وكتابة سر محمد على باشا فلما اطلع على ما فى فرمان السلطان من عبارات التجلة والتكريم كاد يطير فرحا وتقدم إلى محمد على باشا وهو يقول: ليضع الله بيده القادرة على جبينك الشريف تاج ملك جميع العالم فإنك أهل لذلك يابونابارته أفريقية. فسير محمد على باشا لقتال الروم جيشا ومقدمه الأمير إبراهيم باشا وكان الكولونيل سيف فى هذا الحين قد أسلم واعتنق الدين الإسلامى وسمى سليمان ونال رتبة الباشاوية

فسار مع الأمير إبراهيم باشا وقاتل الروم وأظهر من فنون القتال وأسرار الحرب ما شهدت به الأعداء وبلغت شهرته يومئذ مبلغا عظيما وأحبه محمد على باشا ثم كان منه ما كان فى حروب الشام وآسيه الصغرى وزحفه بالعسكر المصرى على أبواب القسطنطينية وأسره للصدر الأعظم وغيره من كبار رجال حرب الدولة وما أنشأه من القلاع والحصون والمعاقل التى كانت من معجزات فنون القتال وغير ذلك من الأعمال الخطيرة التى قل أن يأتى غيره بمثلها فى ذلك الحين وما زال يتقلب على بساط النعيم فى بحبوحة الهناء حتى مات ودفن ببستان منزله على ساحل النيل بمصر القديمة.

وكان إبراهيم باشا مولعا بالزراعة وفلاحة الأرض فضم إلى أملاكه أجود الأراضى وأخصبها بالإقليمين القبلى والبحرى ورتبها بغرس الأشجار العظيمة وأنشأ معامل السكر والكتان ومطاحن القمح ومعامل النيلة وبالغ فى ترتيبها وبذل النفيس فى إصلاح أمرها حتى زادت غلتها وكثرت محصولاتها ونمت، قالوا: وكان شديد البأس على الفلاحين جافى الطبع حازما مقترا يحاسب على الذرة والبرة ولا يترك لأحد منهم مثقال ذرة فكان أبوه يكره منه ذلك ويعنفه عليه ولا يمكن نفسه من هواها وقد أثرى وكثر ماله فى آخر أيامه كثرة بالغة واتسعت مادة رزقه اتساعا عظيما وخلف ثلاثة بنين هم أحمد وإسماعيل ومصطفى ومات عن عدة زوجات أكثرهن بغير ولد وكثير من الجوارى والحظيات وعمره ستون سنة هلالية فكانت ولايته سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما منها ثلاثة أشهر بعد ورود فرمان السلطان إليه بالولاية فتولى الأمر بعده ولد أخيه عباس باشا الأول ابن طوسون بن محمد على باشا.

(مطلب)

(ولاية عباس باشا ابن الأمير طوسون باشا)

كان عباس باشا يوم موت عمه إبراهيم بالديار الحجازية فاراً من وجه عمه إذ كان يمقته كثيراً ويريد البطش به لأمور نقمها عليه وقيل بل ذهب لأداء مناسك الحج والأول أشهر فاستقدموه ورفعوا أمر ولايته إلى دار السلطنة فورد الفرمان بولايته في سابع عشري ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فأصعدوه إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما استقرت به الولاية صرف الكثير من بطانة جده وأبعد أصحاب الوظائف العالية واتخذ له بطانة ممن يعتمد

عليهم ويـميل بالطبع إليهـم وأقصى أصحـاب الرأى وأهل الشورى واخـتص بقوم غيرهم فسلم إليهم مـقاليد الأمور وتدبير مهام الرعية فعـملوا لأنفسهم واشتدت فى هذا الحـين الفتنة بين قـيصـر الروس والسلطان عبـد المجيـد وكبـرت الوحشـة بين الفريقين.

(مـطلب)

وقـوع الحرب بين السـلطان ودولـة الروس ومعـاونـة الإنجـليز والـفرنـسيـس لـلسـلطان عـلـى قتـال الروس

قال أصحاب التاريخ: وكان سـبب ذلك أنه لما كان لدولة الفرنسيس حق حماية جميع الكنائس الكاثوليكية والذب عنها عند الحاجة بمقتضى أحكام المعاهدة التى تمت ما بين الملك لويس الخامس عـشر ملك الفرنسيس والسلطان محـمد خان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربعين وسبعمائة وألف ميلادية على ما تقدم بك بيانه فى الجـزء الثالث من هذا الكتاب، وكـانت دولة الروس تكره ذلك وتسعى فى تعضيد جانب جماعة الأرثوذكس وإعلاء كلمتهم فوق كلمة أصحاب الكثلكة لا سيما فى بـيت المقدس وتشتد رغبتهـا كل يوم فى نزع كنائس بيت المقدس من أيدى قسوس الكاثوليك وإعطائهـا إلى قسوس الأرثوذكس فجعلت تراقب الفـرص وتتبين انتفاعها حـتى رأت اشتغال دولة الفرنسيس بإخمـاد نار ثورتها الداخلية ثم بالحروب التى أثارها بونابارته على جميع الممالك الغربية زهاء اثنتين وعشرين سنة بما لا تقدر معـه على الذب عن أهل الكثلكة فعمـدت إلى نزع جميع مـا بأيدي الكاثوليك من تلك الحقوق والامتيازات وسلمتها إلى جماعة الأرثوذكس فتصرفوا فيها واستبدوا بها وغيروا وبدلوا حسب أهوائهم وما زالوا يتصـرفون حتى تولى نابوليون الثالث رياسة جمهور الفرنسيس الثانية فرأى من اهتمام أهل الكثلكة بهذا الأمر ما أعجبه وزين له مخـابرة السلطان فى إرجاع تلك الحـقوق والامـتيازات إلى مـا كانت عليـه حسب المعاهدات والعقـود القديمة فطال الأخذ والرد ثم تقررت القاعـدة بين الفريقين على انتخاب عـمدة من كبار المذاهب وأئمـة الدين لينظروا فى مزاعم الخصـمين ويقرروا فيها أمـرا باتا فأطالت العمدة البحث والتنقيب ولبث الحال على ذلك أيامـاً كثيرة ثم حكمت برد جـميع الكنائس والديارات إلى جـماعـة الكاثوليك ببيت المـقدس وبرد بعض الامتيازات والحقوق الأخـرى حسب أحكام المعاهدات القديمة وحررت بذلك صكا فى شهر جـمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين وألف هجـرية أى فى شهر فبراير سنـة اثنتين وخمسين وثمـانمائة وألف ميلادية فعـارضت دولة الروس فى نفاذ

هذا الصك وهدد قيصرها السلطان بالحرب والقتال إن هو رسم بتنفيذه وطالب نابوليون السلطان بتنفيذ حكم العمدة ورد ما أخذ من جماعة الكاثوليك وشدد في الطلب فأصبح السلطان وهو بين منتطح عنزين ولكنه عاد فرسم بتنفيذ حكم العمدة فقامت دولة الروس وقعدت وكان القيصر شديد الرغبة فى فتح أبواب الحرب والتعجيل فى قتال السلطان وقد أخذ تأهبه لذلك منذ حين فعمد إلى استعمال الشدة وسير إلى دار السلطنة الأمير منشكوف كبير ديوان البحرية الروسية ليكلم السلطان فى عدم جواز العمل بما قضت به العمدة وعدم مس ما بأيدى الأرثوذكس من الكنائس والديارات فوصل إلى دار السلطنة فى ثامن جمادى الأولى سنة تسع وستين، قال بعض الكتاب: فاحتفل للقائه جماعة الروم بالقسطنطينية احتفالا عظيما وبالغوا في إجلاله وتعظيمه استصغارا بالمسلمين وساروا أمامه وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين فنزل فى دار سفير الروس أياما لا يقابل فيها أحدا من رجال الدولة فلما كان العشرون من جمادى المذكور سار إلى مقر صدر الدولة وهو فى زى المسافرين ودخل عليه بلا حشمة ولا تأدب وكلمه فى أمر الكنائس ببيت المقدس وقال إن مولاى القيصر لا يطيق الصبر على ما يلاقيه أهل الأرثوذكسية من أصحاب الكثلكة ولا يسمح بتنفيذ حكم العمدة الدينية وقد سير بى إلى هنا لأكلمكم فى الأمر فإن أنتم فعلتم ما نحب فيها ونعمت وإلا فالسيف يحكم بيننا وبينكم وطير الخبر بذلك إلى القيصر فجعل القيصر يستطلع ما سيكون من دولة الإنجليز إن هو ركب بعسكره لقتال السلطان وسأل سفيرالإنجليز فى ذلك وفيما إذا كانت دولة الإنجليز تعاقده على قتال السلطان «قال» فإذا هى فعلت ذلك وبلغنا المقصود من تقسيم بلاد السلطنة العثمانية وإرجعناها إلى ما كانت عليه من الذل والصغار تساهلت معها وأنلتها أخذ الديار المصرية وجزيرة كريد وتخلصنا جميعاً من مكايد هذا القرم العنيد فخابر سفير الإنجليز دولته فى ذلك فلم تقبل خوفا من استفحال أمر الروس وامتداد شوكتهم فى الشرق ودخول القسطنطينية فى عداد أملاكهم فيشاركون الإنجليز فى ملك البحار ويزاحمونهم على نيل الأوطار.

وكبر ما وقع من سفير الروس على السلطان عبد المجيد واستعظمه فكلم دولتى الإنجليز والفرنسيس فى أمره فتجرد نابوليون الثالث للعداوة وزين لدولة الإنجليز التحالف على قتال الروس وإيقافهم عند حد احترام العهود والعمل بمقتضى المواثيق القديمة وما زال بها حتى مالت إلى الحرب خوفا على هندها فسير فى الحال بعض

سفن الحرب الفرنسوية إلى اليونان فألقت مرساها فى فرضة سلامين إحدى الجزر اليونانية ولبثت تراقب الحوادث ورسمت كذلك دولة الإنجليز إلى سفن حربها الراسية فى مينا مالطة بأن تكون على قدم التأهب والاستعداد وكان الأمير منشيكوف الروسى فى غضون ذلك يتردد على الباب العالى فى طلب تجديد معاهدة خونكار اسكله سى ليكون لدولة الروس من وراء تجديدها حق حماية جميع طوائف الأرثوذكس الذين فى بلاد السلطنة العثمانية فكان السلطان يطاوله ويمنيه بالأمانى البعيدة ثم رسم بإعادة رشيد باشا الصدر المعزول إلى منصب الصدارة وهو من أعداء الروس وأشد رجال الدولة كرها لهم وكان قد خلع من منصبه استرضاء للقيصر ومنعا للدسائس والفتن السياسية فلما تقلد المنصب تجرد إلى الدفاع ووقف فى وجه الأمير منشيكوف وأبى عليه كلما طلبه فاستعظم الأمير منشيكوف هذا الأمر وأنفذ إلى الباب العالى بلاغا فى شعبان سنة تسع وستين ومائتين وألف بجميع مطالب مولاه القيصر وضرب للصدر الأعظم أجلا خمسة أيام فلما انقضى الأجل المضروب أمده بثمانية أيام أخر فانقضت ولم ينل من الباب العالى جوابا، وكان السلطان لما ورد إليه بلاغ الأمير منشيكوف طير خبره إلى عاصمتي الإنجليز والفرنسيس وطلب منهما الوساطة فى الأمر حقنا للدماء فسيرت فى الحال سفنهما الحربية نحو الدردنيل وعلم الأمير منشيكوف بذلك فكتب إلى صدر الدولة فى تاسع عشر رمضان من السنة يعلمه بزحف الجيوش الروسية على حدود السلطنة العثمانية فلما كان خامس عشرى الشهر المذكور جاءت الأخبار باجتياز الأمير كورتشاكوف الروسى بعساكره نهر البرونة واحتلاله مقاطعة الدانوب فسير إليه السلطان من يسأله الجلاء وعدم مجاوزة الحدود فلم يلتفت إلى ذلك ونادى فى عسكره بالتأهب ووردت الأخبار بذلك أيضاً إلى عاصمتي الفرنسيس والإنجليز فاجتازت سفنهما الدردنيل وكان القيصر يؤمل مساعدة إمبراطور النمسا له فى هذه الحرب لما بين القيصر وبينه من العلائق الودية وما للقيصر عليه من الأيادى البيضاء لا سيما بعد قيام الفتنة فى بلاد المجر وخروج أهلها عن طاعته وكان إمبراطور النمسا يخشى عاقبة هذه الحرب ويعلم أن ما وراءها إلا الطامة الكبرى على مملكته إن نالت دولة الروس من السلطنة العثمانية وتم لها النصر فعمد إلى استعمال المواربة وخابر الدول جميعا فى عقد مؤتمر بمدينة ويانا لإصلاح ذات البين ومنع وقوع الحرب بين الطرفين فأجابته الدول إلى ذلك وتم انعقاد المؤتمر فى سلخ ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية وتقررت القاعدة بين

مبعوثى كافة الدول على حدود وشروط معينة قيل فأذعنت لها دولة الروس راضية على ما فيها من المواربة والتعقيد ولم يقبلها الباب العالى وفضل الحرب على هذا السلم المحفوف بصنوف المكاره فانحل المؤتمر على غير طائل وكان الأمير كورتشاكوف قائد الجيوش الروسية قد تمكن فى خلال هذه الفترة من احتلال ولايتى الفلاق والبغدان والتحصن فى حصونها فأنفذ إليه السلطان بإخلائهما وضرب له أجلاً خمسة عشر يوما ورسم إلى عمر باشا مقدم الجيوش العثمانية فعبر الطونة فصارت الحرب بين الفريقين أدنى من قاب قوسين.

واستخف الأمير كورتشاكوف بقدر الجيوش العثمانية التى عبرت الطونة فلم ينجل عن مواقعه وزاد فى التحصن والاستعداد فسار إليه عمر باشا وقاتله قتالاً عنيفاً وطال القتال أياماً ثم انكشف عن هزيمة كورتشاكوف شر هزيمة وجلائه عن معاقله وانتصار عمر باشا نصرة مؤزرة وجاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة وكان السلطان قد رسم أيضاً إلى عبده باشا أحد مقدمى العسكر السلطانى بالزحف على حدود الروس من جهة بلاد قافقاسية فسار بعسكره حتى اجتاز الحدود وقاتل وأخذ قلعة سان نقولا وانتصر كذلك على الروس نصرة عظيمة واشتد القتال بين الطرفين أياماً ثم توّقف بسبب الشتاء وتراكم الثلوج والأمطار فهال القيصر هذا الأمر وأزعجه وكبر خوفه من عاقبة هذه الحرب إن اشتركت فيها أيضاً عساكر الفرنسيس والإنجليز وطلب المدد من إمبراطور النمسا فلم يجبه خوفا من شر العاقبة فسير القيصر إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز يسألهما عدم دخول مراكبهما الحربية إلى البحر الأسود وتربصها عند البوغاز وهو يكفل لهما عدم إجراء شئ من الحرب والقتال. قال بعض الكتاب: البحر المذكور لو نزلت فيه مراكب الدولتين لا تتحرك من مكانها أياما وظن السلطان وقوف رحى الحرب حتى ينقضى الشتاء وكان للسلطان عمارة صغيرة بالبحر الأسود راسية فى مينا سانوب فلم يشعر أميرها إلا وقد داهمته مراكب الروس وأحاطت بمراكبه من كل جانب وأطلقت عليها القنابل تباعا فسقط فى أمره واختبل وعز عليه التدبير للخلاص واشتد رمى مراكب الروس وتراسلت القنابل حتى دمرت جميع المراكب السلطانية ولم تبق لها أثرا وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة فأبلغه الصدر إلى سفراء الدول فجاء الأمر على الأثر إلى السفن الفرنسوية والإنجليزية باجتياز البوغاز ودخول البحر الأسود والتأهب لرد جميع المراكب الروسية عن الدنو من موانىء السلطنة العثمانية فاجتازته وسارت تمخر فى طوله وعرضه وأرسل السلطان إلى عباس باشا يطلب المدد من العسكر المصرى فبعث إليه عباس باشا

بجيش ضخم كامل العدد وأرسل إلى الخزينة السلطانية شيئاً من المال لنفقة الجند قيل وكان يكره نجدة السلطان ويتمنى انفشاله حبا فى الاستقلال بملك مصر والخروج من تابعية السلطنة فلم تساعده الأيام ولم ينل هذا المرام وسارت العساكر المصرية مع العساكر العثمانية وقاتلت وانتصرت فى عدة مواقع كبيرة وأبلت بلاء حسنا ووردت الأوامر من قيصر الروس إلى سفيريه بعاصمتى الفرنسيس والإنجليز بالشخوص إلى عاصمة الروس وقطع العلائق السياسية فانسحبا ووقع الاتفاق بين دولتى الفرنسيس والإنجليز والسلطان على قتال الروس وتقررت القاعدة بينهم على أن تسوق دولة الفرنسيس إلى ساحة القتال خمسين ألف مقاتل من رجالها كاملى العدد وكذلك دولة الإنجليزية تسير خمسة وعشرين ألفا ليتألبوا على القتال ولا ينفكوا عنه حتى تلزم دولة الروس حدودها وتنكف عن القتال صاغرة فإذا تم لهم النصر عادت العساكر الإفرنسية والإنجليزية وتركت الدولة العثمانية وشأنها تتصرف فى بلادها وترتب أمورها على ما فيه مصلحتها فلما كان شعبان سنة سبعين ومائتين وألف هجرية قامت الجيوش الإفرنسية ومقدمها الماريشال دى سنت أرنو والجيوش الإنجليزية ومقدمها اللورد رجلان ومعهم شيء كثير من المؤن والذخائر وآلات الحرب الكاملة على ظهور سفن النقل العظيمة قاصدة دار السلطنة العثمانية فلم تكد تصل إليها حتى قامت الحرب على ساقها بين مراكب الحرب الإنجليزية والفرنساوية وبين قلاع وحصون مدينة أوديسا، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين الأحزاب ودولة الروس جعلت كل دولة منهم تحافظ على كرامة رعاياها وحرمتهم فى بلاد عدوّتها فسيرت دولة الإنجليز بعض السفن الحربية التى لها بالبحر الأسود لنقل قنصل الإنجليز ومن معه من الرعايا الإنجليزيين الذين بمدينة أوديسا فلما اقتربت السفينة المذكورة أطلق عليها الروس الذين بقلاعها المدافع وراسلوا الرمى بالقنابل حتى كادت تدمرها فهربت فهال هذا الأمر أمير السفن الإنجليزية واتفق مع أمير السفن الإفرنسية على الأخذ بالثأر إن لم يعتذر حاكم أوديسا عما وقع ويطلب الصفح ويقوم بالترضية وضربا له أجلا أربعا وعشرين ساعة فلم يلتفت الحاكم إلى ذلك ولم يحل طلبهما محلا فسارت جميع السفن فى شعبان سنة سبعين ووقفت أمام حصون المدينة وجعلت ترمى عليها بالقنابل تباعا حتى دمرتها تدميرا والتهمت النيران جانبا منها ثم تركتها وسارت نحو سباستوبول ودعت مراكب الحرب الروسية للنزال فلم تبرز لنزالها فسارت على الفور بعض السفن الإفرنسية والإنجليزية لضرب جميع الثغور الروسية الواقعة على البحر الأسود فأنفذ القيصر الماريشال بسكيفتش

فى جيش جرار لعبور نهر الطونة فعبره وسار نحو مدينة سلستريا وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وأقام على حصارها زهاء خمسة وثلاثين يوما فلم ينل منها وقد كان من بها من العسكر السلطانى لا يتجاوز الخمسة عشر ألفا ومقدمهم موسى باشا وجاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فسارت الجيوش المتحالفة إلى وارنه لنجدة موسى باشا ومن معه فمات موسى باشا قبل أن ينجدوه وخاف أمير العساكر الروسية من وصول الجيوش المتحالفة وهو على قدم الحصار فانجلى بعسكره عن المدينة فتبعته العساكر العثمانية وجعلت تتخطف ساقته حتى تجاوز نهر الطونة وما زال يقاتل ويدافع حتى عبر نهر البروت وصار فى مأمن من نيران العسكر السلطانى فعادت بعد ذلك العساكر السلطانية فاجتمع سائر أمراء الجيوش المتحالفة وتشاوروا فى أمر القتال مع العدوّ وكان الطاعون قد تفشى فى حدود السلطنة العثمانية وكثر فيها الموات فاتفقت كلمتهم على النزول على سباستبول ومحاصرتها وعدم الجلاء عنها حتى يدكوا أسوارها دكا وسيروا فى المحرم افتتاح سنة إحدى وسبعين جماعة من المقاتلين من الفرنسيس والإنجليز والترك والمصريين فكانوا زهاء ستين ألفا كاملى العدد فنزلوا عليها ولم يستقرّ بهم المقام حتى التهبت نار الحرب بينهم وبين الروس وعلا ضرامها وانكشفت عن هزيمة الروس ونصرة الفرنساويين نصرة مؤزرة وأخذوا منهم المرتفعات المشرفة على نهر الماء فكانت عندهم من أهم المواقع الحصينة ثم عمدوا إلى فتح مينا بلكلاوا ليجعلوها مأمنا لسفنهم التى كانت تأتى إليهم بالمؤن والذخائر ومعدات الحرب فزحفوا عليها وقاتلوها يومين حتى فتحوها عنوة ودخلوها ثم انكفوا عن القتال أياما فتمكنت فيها جماعة الروس من تحصين سباستبول تحصينا منيعا وبالغت فى ذلك من البر والبحر حتى صارت لا ترام.

وسارت جيوش الأحزاب نحو سباستبول وقد تفشت فيهم الحميات فكثر الموات بينهم وحم الماريشال سانت أرنو مقدمى الجيوش الإفرنسية ومات قبل أن يعيد الكرة على حصون سنباستبول فنقلوا جثته إلى عاصمة الفرنسيس باحتفال زائد وأقاموا مكانه الجنرال كانروبر فحاصروا سباستبول ورموا عليها بالقنابل فى أوائل صفر سنة إحدى وسبعين ولبثوا يراسلون الرمى ليلا ونهارا زهاء خمسة أيام ثم هجموا عليها هجمة رجل واحد فلم ينالوا منها وردوا على أعقابهم خاسرين وتبعتهم طائفة من العساكر الروسية وقاتلتهم قتالاً عنيفا ثم عادت ولم تظفر بهم وطالت أيام الحصار والحرب بين الفريقين سجالا حتى دخل الشتاء فكثر الموات فى عسكر الأحزاب وتفشت بينهم الأمراض فأوقفوا رمى القتال ولبثوا على قدم الحصار فعادت العساكر

الروسية إلى تقوية مـا تشعث من الحصون وترميم ما تهدم منهـا حتى عادت إلى ما كانت عليـه من المنعة وخاف رجال سـياسة الفـرنسيس والإنجليز من اتحاد إمـبراطور النمسا مع قيصر الروس على الذب والقتال فـتزداد هذه الحرب ويلا وتعظم مصيبتها لا سيما وقد كـانوا يرون فى الروس خصما عنيدا وقرما صبورا على القـتال فعمدوا إلى استمالة إمبـراطور النمسا وحببوا إليه الاتفاق معهم على مـا فيه المصلحة لبلاده أيضاً فوافقهـم على ذلك وكان بينه وبين فـريديك غليوم ملك البروسيا عهد على أن لا يقدم أحدهما على التحالف مع الدول الثلاثة المتحالفة إلا بعد رضا الآخر فخابره أمبـراطور النمسا فى ذلك وزين له الاشـتراك معه على مـا فيه المصلحـة لبلاده فلم يلتفت إلى شيء من أقـواله فاتفق الأحزاب على مـخابرة قيـصر الروس فى الصلح وكف القتال على قاعـدة هى عدم انفراد القيصر بحماية المسيـحيين من رعايا الدولة العثمانية وعـدم التعرض لحماية الفلاق والبغدان وإباحـة المرور لجميع مراكب الدول فى نهر الطونة وتعديل المعـاهدات المتعلقة بالمرور فى بوغازات القسطنطينيـة لا سيما منها معاهدة سنة سبع وخمسين ومائتـين وألف هجرية وكلموا سفير الروس بعاصمة النمسـا فى ذلك فطلب المهلة حـتى يأتيه أمـر القيصـر فأمـهلوه واشتغلوا بـالتأهب والاستـعداد لإضرام نار الحـرب إذا ولى الشتـاء وجاء الصيف وبينمـا هم على هذا الحال إذ هاجم الروس مدينة أوپاتوريا وكان بها عدد من العساكر السلطانية والعساكر المصرية فاقـتتل الفريقان قتـالاً عنيفاً وصبر كل فـريق على القتال فمات خلق كـثير ومات سليـمان باشا مـقدم العسكر المصـرى فى هذه الموقعة ثم انكشف القـتال عن هزيمة الروس وردهـم على أعقابهم خـاسرين ووردت الأخـبار بذلك إلى مـعسكر الأحزاب فأخذوا أهبتهم واستعدوا لمهاجمة سباستبول والإلحاح فى قتالها وأكثروا من جمع الأسلحة والكراع فلـم يمض على ذلك إلا أيام حتى مرض القيصـر وأشتد به مرضه ومات فى جمادى الثانية سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية وشاع خبر موته فظن الناس زوال الفتنة وكف المتحـالفون عن القتال فلم يصب ظنهم المرمى إذ تولى الملك بعد مـوت القيصر المشـار إليه ابنه إسكندر الثانى ولم يستـقرّ به المنصب حتى جـعل يتأهب للزحف على مواقع الأحزاب ويكـثر من حشد الجـيوش وإعداد معدات القـتال فلما أنس الأحزاب منه ذلك زينوا إلى ملك سـاردينا التى هى اليوم مملكة إيطاليا الاتحاد معهم على قتال الروس وما زالوا به حـتى سير جيشا عظيما من عسكره إلى حصـار سباستبول وتحـالف على الذب والقتال فقويت عـزيمة الأحزاب وجعلوا يناوشون الروس القتال فكانـت بينهم سجالاً ثم تمكنت جيوش الأحزاب من

احتلال مدينة كمريش وبوغاز پريكوب ومدخل بحر أزاق فأتموا حصار سباستبول ومنعوا عنها الواصل واشتد الحال من هذا الحين على الروس فجعلت جيوش الأحزاب توالى الزحف والهجوم على مواقع الروس وتلح فى قتالهم من البر والبحر فانتصروا فى عدة مواقع وأخذوا بعض القلاع والحصون الداخلة فى حدود بلاد القرم ومنها قلعة ملاكوف أخذها الجنرال ماك مهون الفرنسوى عنوة فى خامس عشر ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية ولما اشتد الحصار على سباستبول وضاقت عليها المسالك وانقطع المدد خرج من كان بها من الروس وأوقدوا فيها النيران فالتهمتها عن آخرها ودكتها دكا فدخلتها عساكر الأحزاب فى ثانى يوم متخوّفة.

ودخل الشتاء فوقفت رحى الحرب بين الفريقين وأحست دولة الروس بالغلبة وعدم القدرة على دفع جيوش الأحزاب بعد خراب سباستبول فعمدت إلى المواربة وتودد القيصر إسكندر إلى أمبراطور النمسا فكلم الأمبراطور الدول المتحالفة فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال وحقن الدماء المهدرة بسبب هذه الحرب المشؤمة فأجابته الدول إلى ذلك وقرزوا القاعدة بينهم على ما فيه المصلحة وعرضوها على القيصر فأجابهم إليها وطلب عقد مؤتمر فى باريس عاصمة الفرنسيس لتقرير أمر الصلح نهائياً فأجابوه إلى ذلك أيضاً وانعقد المؤتمر ووالى الاجتماع أياماً حتى تم الصلح بينهم وتسطر فى أربع وثلاثين مادة أصلية ومادة إضافية صار التوقيع عليها من جميع مبعوثى الدول ومبعوث السلطان ثم تقرر بعيد ذلك رفع الحصار عن جميع الموانى والثغور الروسية وانسحاب جميع عساكر الأحزاب من بلاد القرم فى أجل لا يتجاوز الستة أشهر وأن تتجلى دولة النمسا عن ولايتى الفلاق والبغدان فى بحر ثلاثة آشهر وكذلك تنجلى الروس عن مدينة قرص وقلعتها وتردها إلى الأملاك السلطانية فى بحر ثلاثة أشهر وعاد من بقى من العساكر المصرية إلى القاهرة ثم كان بعيد ذلك ما كان من الفتن والإرهاصات الداخلية وخروج بعض الإيالات عن طاعة السلطان ونوالها شبه الاستقلال بتعضيد دول أوروبا لها مما لا محل له هنا خوف الإطالة.

وكثر على باب عباس باشا أصحاب السعاية وأهل الوشاية فأخذ بقولهم وعمل بمشورتهم واشتدت رغبته فى معرفة أحوال جميع الناس وأسرار أصحاب البيوتات فأنفذ لذلك جماعة فكانوا يأتون إليه بالأخبار المقلقة والحوادث المكدرة ليباعدوا بينه

وبين الناس فتطير وأخذ حذره وأكثر من شراء المماليك الجلب والإماء السود وأقام طوائف الترك على بابه يحرسونه نهارا وطوائف المماليك يخفرونه ليلا وكان شديد البغض لأهله وعمومته وعلى الخصوص منهم أولاد إبراهيم باشا فضيق عليهم وشدد وبالغ فى تنكيلهم فضبط أرزاقهم وحبس غلاتهم وشرد أتباعهم وحاشيتهم وأقصى القائمين بإشغالهم إلى سنار وفيزوغلى وأقام عليهم الدعاوى الطويلة حتى ضاق بهم الخناق فكانوا لا يحصلون على طعام يوم لحبس أرزاقهم وانكمشوا وقل ظهورهم بين الناس خوفا من اشتداد الفتنة ورميهم بالتهم الكاذبة ومع ذلك فقد كانت عيونه وأرصاده لا تفارق أبوابهم ساعة ووقع بينه وبين عمه الأمير محمد سعيد من النفرة والشحناء ما لم يبق معه إلا القتال فادّعى على عمه الدعاوى الكثيرة واتهمه بالخروج وشق عصا الطاعة واتهم أعيان البحيرة وبعض مشايخ عربان أولاد على بنجدته فأعمل فيهم القتل والتشريد والتبعيد إلى أقاصى السودان وبالغ فى تخريب دورهم ومحو آثار منازلهم فاختفى من بقى منهم ونزحوا إلى الشام والحجاز وألزم عمه بالمكث فى الإسكندرية وعدم دخوله القاهرة وبث حوله العيون والأرصاد فضاقت على الأمير محمد سعيد المذاهب واستنجد ببعض رجال الدولة وكبار النزلاء من الأجانب فلم يفلح لشدة بأس عباس باشا وعظم هيبته فى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت بعباس باشا الطيرة فاحتجب عن الناس ومال إلى سكنى البيداء والجبال فابتنى له قصرا بالدار البيضاء بطريق السويس وآخر بسفح الجبل الأحمر خارج باب الحسينية سماه العباسية نسبة إلى اسمه فكان إذا ذهب إلى أحدهما أقام به أياماً لا يصل إليه إلا المقربون من قومه وابتنى مبانى أخرى كثيرة كالحلمية وغيرها بمنيل شيحه ورسم ببناء دار بظاهر بركة الأزبكية بجوار جامع الكيخيا فشرعوا فى العمل وبدؤا ببناء السور من الحجر الأحمر وجمعوا لذلك البنائين والنحاتين والحجارين والخشابين والفعلة ووكل بهم جماعة من الترك يحملون العصى والأسواط فكانوا يسومون أولئك العمال الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب وكان ذلك على عهد ولاية جده محمد على باشا فاتفق أن مر الأمير إبراهيم باشا يوما بالأزبكية فسمع من صياح العمال وجلبتهم ما أدهشه فسأل عن ذلك فقيل له أنهم عمال فى بناء الدار التى ينشئها الأمير عباس فسار نحوها فرأى من كثرة أولئك العمال وما يقاسونه من تعذيب الموكلين بالعمل ما هاله وأحزنه فسير فى الحال إلى الأمير عباس من يعلمه بترك هذا العمل وصرف أولئك العمال بالتى هى فخاف

الأمير عباس وصرفهم وترك البناء فى ذلك المكان ولم يتم منه إلا بعض السور من الجانب الشرقى فرسم الأمير إبراهيم يجعله مناخا للجمال المرتبين لخدمة الدولة وبقى كذلك إلى أيام إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا فأزاله وأنشأ فى جانب منه النزل المعروف باللوقاندة الجديدة وأمر ببيع الباقى منه فصار الآن من أحسن الدور وأرفعها بناء وأنظمها ترتيبا وتنسيقا، وكان شديد البغض للأجانب جبارا على الرعية سهل الانقياد لبعض حاشيته والمقربين إليه ميالا إلى الوشاية وإيقاع الفتنة بين أصحاب الوظائف حذرا من تآلفهم واتحادهم على ما يخشاه وكان مثل الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد فى الإكثار من شراء المماليك ووقوفهم على بابه وتزيينهم بأفخر الملابس وكان يركبهم جياد الخيل بالسروج المطهمة وأنشأ فرقة منهم ومن أبناء بعض الناس بلباس مخصوص على زى الجند سماها الأورطة المفروزة فكانوا هم حراس أبوابه وكان مع شدة بطشه وعدم أغضائه عن الصغائر كثير التخيل لا يمكن أحدا من الدنو منه حيثما سار فكان يمشى وحوله طوائف الترك فإذا رابهم من أحد ريبة فى طريقهم مالوا عليه وأوجعوه ضربا بالسياط والعصى وربما قتلوه وكان يحب المكث عند عرب الهنادى بالشرقية، قال جماعة: وتزوّج بإحدى بناتهم وكانت غاية فى الجمال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان، وقال آخرون بل سلم جماعة منهم ولد له ليربوه على طباع أهل البادية فلم يعش ومات وهذه هى الحقيقة بلا مراء وكان قربه منهم باعثا لهم على التمرد والشقاوة فأذلوا أهل الشرقية وتطاولت أيديهم إلى سلب أموالهم ونهب زروعهم ومواشيهم فلم يكن الرجل من أصحاب الزرع ليأمن على ماله ولا على عرضه ولم يقفوا عند هذا الحد بل ضربوا على أصحاب الزروعات المغارم والكلف الفادحة من مال وغلال فإذا تعذر جمعها عاثوا فى البلاد وأهلكوا الحرث والنسل وكان عباس باشا يدفع بهم كل قليل من الزمان إلى قتال عربان البحيرة لميلهم إلى عمه الأمير محمد سعيد ثم لم يلبث على موالاتهم طويلا حتى عاد فغدر بهم وأهلك كبارهم وشرد نساءهم ونهب زروعاتهم على يدى رستم بيك مدير الشرقية فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وأبطل فى يوم واحد جميع معامل القطن والكتان والأقمشة والأجواخ والحرير والمقصبات التى أنشأها جده محمد على باشا وشرّد من كان بها من الصناع والعمال، قال بعض الكتاب: وقد تم ذلك بإغراء من الجنرال ميرى قنصل جنرال الإنجليز فكان فعله هذا من أشد الفعال المحزنة لقلوب أهل البلاد فقد كانت هذه المعامل على ضخامة آلاتها وقلة معداتها والاعتماد فى

حركتها على الدواب لعدم ظهور استعمال البخار يومئذ وتعذر وصولها إلى حد الكمال التى هى عليه المعامل اليوم كافلة باحتياجات البلاد وقد أحيت من الصنائع ما أماتته الأيام وأذهبه جور الحكام وأعادت لمصر بعض رونقها القديم وسهلت على أهل البلاد سبل الكسب والتعليم فعاش فى ظلها العدد العديد وترامت آمالهم فيها إلى المرمى البعيد ولو بقيت إلى يومنا هذا لكان لها من الشهرة ما يغنى البلاد عن كثير من المصنوعات الأجنبية على اختلافها وأمست وهى مهبط الرزق للصانع فيها والمتجر فى مصنوعاتها ولكنها أصبحت فلم تكن شيئاً مذكوراً.

ولما كانت سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية تقدم إليه قنصل جنرال الإنجليز فى تحجير الطريق من باب الحسينية إلى مدينة السويس تسهيلا لنقل السوّاح من الإنجليز الذين كانوا يأتون من السويس على عجلات كانت تجرها الخيل فرسم بذلك وقيد بعض الترك بهذا العمل فأفحشوا فى الجور وإيذاء خلق الله حتى أتموه فى عهد قريب، وعمر فى سنة ست وستين مسجد السيدة سكينة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس الأحمر وجدد كذلك جامع العشماوى بشارع العشماوى بالأزبكية فأعجب ذلك أهل القاهرة ومصر واستحسنوه منه وتقدم إليه الجنرال ميرى قنصل الإنجليز فى إنشاء خط حديدى أيضاً بين الإسكندرية والقاهرة وسلك تلغرافى كذلك وألح عليه وكرر الطلب لتسهيل المواصلات بين عاصمة الإنجليز وهندها وما زال به وهو يمنيه بالأمانى البعيدة حتى رسم بإنشائهما فكان مدّحور الخط فى تاسع عشرى ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية، وحجت أمه فخرجت من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسارت مع ركب الحج وأمام هودجها الجند وخلفه الخدم والحشم والغلمان والأتباع فلما دخلت المدينة أنفقت وفرقت من الغلال شيئاً كثيراً وفعلت كذلك بمكة وغيرهما وعادت إلى القاهرة فأولم لها الولائم العظيمة وأطعم وكسى أولاد المكاتب والأيتام وتصدق على بعض المساجد وأضرحة الأولياء وأقام المقرئين والفقهاء يتلون القرآن فى دارها أياما وزارها جميع الأمراء والكبراء وأصحاب البيوتات العالية من النساء وقدموا لها الهدايا والتعابى النفيسة.

وكان كثير التساؤل عن مستقبل الأمور ثابت الاعتقاد فى صحة الكهانة والعرافة والزايرجات فأدنى منه جماعة من أصحابها وقربهم وسألهم عما يكون فى أيامه من الحوادث والكوائن وما سيقع إليه من خير أو شر فأبهموا عليه الأمر فهددهم فقالوا

إنا نخاف عليك من رجل طويل القامة أسمر اللون فى شكل كذا وكذا قيل فاضطرب وزاد خوفه من جميع الناس وأمر بالدجالين وأصحاب الزابرجات فجمعوهم وأقصوهم إلى أعالى السنار والدارفور فتطاولت عند ذلك أيدى أعوانه إلى خيار الناس من كل ملة فكان صاحب الوجاهة لا يشعر إلا وقد كبس داره جماعة من الترك فيحملونه مقيدا بالحديد إلى حيث لا يدرى ويرجعون فيبحثون عما فى داره من كتب وأوراق ويأخذون كل ما وصلت إليه أيديهم من حلى ومتاع فكثر لذلك أصحاب السعاية واشتد الخوف بالناس فانكمشوا وقل اجتماعهم وأوجس كل من صاحبه بل ومن خادمه أو خادمته إذ كان من المحتم على كل خادم أن يبلغ شيخه فى كل يوم أخبار بيت سيده من قيل وقال وما دخل إليه من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك فلا يشعر صاحب البيت إلا وهو بين يدى صاحب الشرطة يسألة عما قاله فى ليلته أو فعله فى صباح يومه فإذا أنكر أتى إليه بألف دليل من أسرار بيته وعورات أهله وولده فكان إذا أغضب المخدوم خادمه أو أغلظ عليه فى القول وشى به عند صاحب الشرطة فتكون عليه الطامة الكبرى، وكان يحب اقتناء المعزى والنعاج وكبار الكباش للمضاربة والحمام والسباع والفيلة والضباع وجياد الخيل وكان شديد العناية بها ينفق عليها أموالا كثيرة ويرسل خواصه للإتيان بها من أقاصى البلاد كالهند والعراق واليمن ونجد وبغداد وكان شديد البغض للنصرانية ناقما على النصارى لا سيما منهم أهل البلاد فأخرج الكثير منهم من خدمة الدولة ومنع من استخدامهم وبالغ فى تذليلهم وأتى للمباشرين منهم بطائفة من الأحداث الأغرار وأبناء المكاتب فجعلهم فى وظائفهم وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم وضرب لهم أجلا فاختل نظام المصالح الديوانية وتطرق الفساد إلى جميع الأعمال وكسدت حرفة القلم وتحقرت، قيل :واشتد به البغض للنصارى حتى دبر أمر إخراجهم من وطنهم وتبعيدهم إلى أقاصى السودان وأرسل إلى الأستاذ الشيخ الباجورى شيخ الإسلام يومئذ يسأله فى ذلك فلما جلس الشيخ قال له أسألك أمرا لا تكتمه علىّ قال وما هو ياأمير قال: إنى أقصد تبعيد النصارى كافة من بلادى ومقر حكومتى إلى أقصى السودان وقد دبرت لذلك تدبيرًا فما قولك قيل فقطب الشيخ وجهه وقال أى النصارى تعنى ياأمير إن كنت تعنى الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارىء ولم يستول عليها خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته إلى اليوم الآخر وإن كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين فى بلادك فإنى أخاف

إذا فعلت بهم شـرا أن يحل ببلادك مـا حل بالجزائر من الفرنـسيس، قيل فـغضب عباس باشـا ونادى خذوه عنى فقام الشيخ وهو يقول أى ويعلم الله أى ويعلم الله، وكان إذا أبغض أحد من بطانتـه آخر أيا كانت درجته قال له أن فلانـا (يريدخصمه) فيه شيء من الأوصـاف التى قال عنها فلان صاحب الزايرجـة وفلان صاحب تخت الرمل فلا يشـعر ذلك المبغـوض إلا وقد دخل عليه طائفـة من الترك فيـأخذونه إلى حيث لا يعـود فكان الرجل أية كانـت وجاهته يقـضى بياض يومـه فى حسـاب ما سيكون فى سواد ليله فكان إذا غضب على أحد غضب النـاس كافة عليه فلا يقترب منه الرفيق ولا يكالمه الصديق خوفا من العيـون فأشتد الخوف بالناس إلى حد القنوط واليأس.

قال أحد كتاب الأخبار: فتجردوا للعداوة وابتهلوا إلى الله وتوجهوا إليه بقلوبهم واتفق أنه خرج من القاهرة فى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية ونزل بقصره ببنها العـسل على النيل كعـادته وهو قصر قـد أنشأه على مقـربة من تل تريب قيل موضع قـصر المقوقس عظيم قـبطة مصـر وأقام به أياما مع بطانتـه وكثيـر من الخدم والحشم والأتباع وطائفة من الغلمان فلما كـانت ليلة ثامن عشر شوال من السنة تآمر أولئك الغلمان على قتله فدبروا الأمر وأحكمـوا التدبير وتولى قتله أربعة منهم وقيل ستة والأول أصح فقاموا عليه وهو بفراشه فقتلوه وخرجوا من ساعتهم يوهمون أنهم إنما خرجوا يريدون القاهرة لأمر أشار به عباس باشا وتركوه وباب حجرته مغلق عليه فطلع النهار وارتفع وصار الـظهر قريبا ولم يدر أحد بما جـرى عليه واتفق أن مر فى ذلك اليوم ببـنها أحمـد باشا يكن يريد بالذهاب إلى إقطـاعاته بالمنصورة فلـما علم بوجود عباس باشا بقصره نزل للسلام عليه وطلع إلى الديوان وسأل عنه فقيل له أنه نائم فلبث ينتظره سـاعة حتى أذن الظهـر ثم قرب العصـر ولم يظهر خبـر فأوجس أحمد باشـا خوفا وقال دلونى على حجـرة نومه فدلوه عليها فطرق بابهـا فلم يجبه أحد فتابع الـطرق ثم أمر فكسروا الباب ودخلوا فإذا هو ملقى على فـراشه فأمر من كان معـه بكتمان الخبر واستـدعى كبير الخصـيان وقال له الباشا يأمـر بذهاب جميع النساء إلى القـاهرة فى هذه الساعة فنزلوا ونزل رجـال ديوانه الخاص وجمـيع الخدم والحشم والأتباع وجماعـة الغلمان وأبقى معه جماعة وألبس عبـاس باشا ثيابه وأعد عربته ولـم يعلم بالخبر إلا القليل فلما أذنت العـشاء أنزلوه من حجرته حـملا على الأيدى وأجلسوه فى عربته كأن به مرضا وجلس معه أحمد باشا وساروا إلى القاهرة

فى الكبكبة المعتادة وأنزلوه بمقره بالحلمية وأصبحوا وقد شاع الخبر بموته وتناقله الناس فلم يصدقوه وكان عمه الأمير محمد سعيد بالإسكندرية محجورا عليه فوردت عليه فى صباح ذلك اليوم رسائل التهانى وأرسلوا إليه يستقدمونه وتشاغل الناس عن جنازة عباس باشا حتى المقربون إليه والعائشون فى نعمته وأبطؤا فى دفنه فلم تخرج جنازته إلا بعد الظهر وكان اليوم شديد القيظ فسارت جنازته فى نفر من خواصه وبعض الجند ومرت من الغورية فالنحاسين والناس فى دهشة لا يصدقون بموته ثم طيروا الخبر إلى محمد سعيد باشا واستقدموه ليولوه الولاية فرحل عن الإسكندرية يريد القاهرة فكانت ولاية عباس باشا زهاء خمس سنوات رحمه الله.

(مطلب)

(ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير)

لما ورد الخبر إلى الأمير محمد سعيد باشا بموت عباس باشا قيل: إنه اندهش وكاد أن لا يصدقه لولا ترادف رسائل التهانى عليه من كل فج وصوب فجمع إليه قناصل الدول وسار بهم من الإسكندرية يريد القاهرة فعلم فى الطريق أن ألفى باشا أحمد أخصاء عباس باشا تعاهد مع أمير جند قلعة الجبل على غلق أبواب القلعة ومنع سعيد باشا من دخولها واستقدام الأمير إلهامى ولد عباس باشا من الديار الأوروباوية وكان قد سافر إليها من أيام وتحالفا على ذلك فلما دخل سعيد باشا القاهرة لاقاه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ وساروا فى ركابه إلى قلعة الجبل ومعه قناصل الدول وبعض كبار الأجانب ففتح لهم أمير جندها الأبواب وقابله الجند بالسلام وانطلقت ألسنتهم بالدعاء إليه ودقت البشائر وطيروا الخبر بولايته إلى الآفاق ففرح الناس فرحا عظيما قيل فلم يمض على ألفى باشا بياض يومه ذلك حتى مات غما وقيل خوفا مما فعل فتولاها الأمير محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا فى عشرى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان أحسن التدبير وأحكم السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة لأهلها ورد جميع الأطيان التى كانت أعطيت إلى كبار المأمورين وأرباب الدولة على عهد إبراهيم باشا وعباس باشا إلى أصحابها من الفلاحين وأبطل الكثير من المكوس

والمغارم والضرائب الفادحة وأزال البدع والمظالم والأحدوثات التى كادت تدمر البلاد منذ ولاية إبراهيم باشا ورتب الخراج ورفع المتأخرات والبقايا من الأموال الأميرية عن الفلاحين ورد المتشردين منهم إلى أوطانهم وأمن الطرق وسهل سبل التجارة فراجت أسباب الزراعة واتسع نطاقها وعلت الأسعار فأثرى الفلاح وحسن حاله واتسعت مادة رزقه فأسرف وبالغ فى السفه حتى لم يبق ولم يذر.

وكان يحب الجندية ويعجب بها جداً فبالغ فى تنظيمها وأكثر عدد رجالها وألبسهم الملابس الفاخرة وسلحهم بالأسلحة المتقنة وجمع إليهم من أبناء جميع البلاد وأنشأ طائفة من السود فكانت على أكمل هيئة وأجمل نظام فكان إذا سار إلى بلد سار جميع الجنود فى ركابه وخلفها المكاحل والمدافع ودواب الحمل كأنها زاحفة للحرب والقتال وإذا عاد عادت على هذه الصورة من الكبكبة ونزلت بالخيام ظاهر القاهرة ومصر القديمة أو دخلت إلى منازل الجند كقصر النيل وطرا والجيزة وغيرها فلم يستقر بها المقام حتى يأتيها الأمر بالرحيل إلى مريوط أو أدفينة أو بنى سويف أو غيرها فكانوا دائماً على قدم الأهبة والاستعداد لا تفتر لهم همة ولا تخمد لهم عزيمة وكان مع حبه للجند وشدة تعلقه بهم شديد البطش فتاكا بمن تقع منه صغيرة أو كبيرة من العسكر فكانوا كأحسن عساكر الدنيا طاعة وخفة ونظاما وملبسا ومأكلا ومشربا.

(مطلب)

عصاوة عربان منية ابن خصيب وما جرى لهم

وظهر فى أيامه عصيان عربان منية ابن خصيب فركب عليهم بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل والتشريد. قال بعض كتاب الأخبار: وكان سبب خروجهم عن الطاعة أنه أراد أن يأخذ منهم جماعة ليدخلهم فى مصاف الجند فيكون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وأنفذ إلى مدير منية ابن خصيب بإحصائهم فجمع المدير كبارهم وأصحاب الرأى منهم وكلمهم فى الأمر فامتنعوا وقالوا لا سبيل إلى ذلك ونحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد على باشا الكبير إلى هذا الحين فلا يصح إدخال أولادنا فى مصاف العسكر وإذهاب ما بأيدينا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد فراجعهم المدير فى ذلك فامتنعوا فألح عليهم فتجافوا وخاطبوه بفحش القول فأمر بهم فعوّقوهم ورفع أمرهم إلى محمد سعيد باشا فأغضبه ذلك قيل وكان يبغضهم بغضا شديدا لميل عباس باشا إليهم وتحريضهم على

قتال عـربان أولاد على نكاية بسعيد باشا كـما تقدم القول فأنفـذ إلى مدير منية ابن خصيب يقول لا سبيل إلى غير ما سيرت به إليك فإياك والتقاعس وإهمال هذا الأمر فشـدد المدير فى الطلب وألح على أولئك المشايـخ فطلبوا مهلة فـأمهلهم وسـرحهم وضرب لهم أجلاً فساروا وتحصنوا بالجبل الشرقى ولم يرجعوا إليه وجاء الخبر بذلك إلى محـمد سعيـد باشا فكاد يتميـز غيظا ونادى فى عسكره بالرحـيل إلى منية ابن خصيب وبنى سويف فساروا وركبوا على أولئك العـربان وقاتلوهم أياما كثيرة فترفع العربان إلى الجبل الشـرقى وبعضهم إلى الجبل الغـربى فتبعهم الجند وأعـملوا فيهم القتل فـقتلوا منهم خلقـا كثيرا وسـبوا النساء والأولاد والبنـات وأتوا بهم إلى مدينة الفيوم وبنى سـويف فكانوا يعطونهم إلى أصحاب البيـوت كالإماء والعبيد وقـبضوا على كبارهم وأصحاب الوجاهة منهم وأودعوهم السـجون وكان الجند إذا كبسوا حيا من أحيـاء أولئك القوم وجدوا البـيوت قاعا صـفصفا لبس فيها إلا مـا ثقل حمله وبخس ثمنه فيـأخذونه فإذا ابتـعدوا عنها قليلاً وجـدوا الأطفال مطروحين مـثقلين بالرمل كى لا يقدرون على الزحف فيـموتون حيث وضعتـهم أمهاتهم فكانوا يأتون بهم إلى بنى سويـف والفيوم وغـيرهما ويعطونهم إلى أهل الخـير فيـكفلونهم وكان أولئك العربان على عهد عـباس باشا واسعى الكلمة عظيمى الصـولة كبيرى الإهابة فعاثـوا فى البلاد وأفسدوا وأهلكوا الحـرث والنسل وأمر سعيـد باشا فأعملوا فـيهم القتل والشنق والتمـزيق بنيران المدافع وأباحهم لجميع المديرين لا سيـما يعقوب بيك مدير بنى سـويف فأفحش فى قـتلهم وبالغ فى البحث عنهم وتتـبعهم أينمـا ساروا وخرب مـنازلهم وشرد من بقى منهم إلى أقـاصى الشام والحـجاز فـأختـفى من لم يتمكن من الفـرار فى القرى والكفور وتزيابزى العـامة والفلاحـين وتكلم بكلامهم وترك ما يلتـزمه العرب فى كلامـهم من الترخيم وكسـر آخر الكلم وقد كان الفـقير منهم يأنف من مخالطة أهل البلاد ومكالمتهم ويحسب ذلك عارا ومذلة فصار الكبير منهم لا يرى السلامة إلا بالألتجاء إلى أصغـر بيوت الفلاحين، وأشتد الخوف بأهل الفساد واللصوص وقطـاع الطريق فأختفوا فأمنت السبل وسـلكت المسالك وأشتدت يقظة أهل البلاد فأقاموا الخفراء على الحدود ورؤوس الطرق والمسالك وارتفع الخوف عن الناس فكانت المرأة تأتى من مريوط إلى أقاصى الصعيد الأعلى برا من غير رفيق فلا تجد فى طريقهـا من يعترضها فى مالها أو عرضـها أو يسألها من أين أو إلى أين وكبرت هيبة سعيد باشا فى أعـين أهل البلاد كافة فانكفوا عن إيذاء بعضهم وعكف كل على مهنتـه وحرفته وصنعـته فحسنت حـالهم وكثرت أموالهم وغـزرت مادتهم

ونمت زروعاتهم ودرت الأرزاق فأكلوا وشربوا وشبعوا ولبسوا ما لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يلبسوا فى أيامهم الغابرة، ونظر إلى مستقبل موظفى الحكومة وأرباب الدولة فرتب لهم قانونا كافلا لمعاشهم إذا تقاعدوا عن الخدمة ورسم فى خامس ربيع الثانى سنة إحدى وسبعين بالعمل بمقتضى هذا القانون فكان من أكبر النعم وأجل المزايا التى لا يعادلها شيء عند جميع موظفى الدولة وهو معمول به إلى يومنا الذى نحن فيه حتى أصدر إسماعيل باشا قانونه الجديد فنفذ حكمه على من كانت خدمته فى مصالح الدولة ودواوينها تالية لتاريخ صدور ذلك القانون، وأنشأ القلعة القائمة على بناء القناطر الخيرية وسماها بالقلعة السعيدية ووضع أساسها بيده فى ثالث عشرى جمادى الآخرة من السنة وبالغ فى تنظيمها حتى جاءت من أحسن المبانى وأتقنها وقد زالت محاسنها وتشعث بعض بنائها فازالها اليوم جماعة الإنجليز ولم يبقوا منها حجرا على حجر، ولما كان شهر رمضان من السنة ظهرت الهيضة بالقاهرة ومصر واشتدت فكثر الموات فى الناس كثرة بالغة ولبث الحال على ذلك أياما فبلغ عدد من أحصى ممن مات نيفا وخمسة آلاف نسمة وأما من لم يحص فكثير ثم ارتفع واطمأنت القلوب وعاد من هاجر من أهالى القاهرة ومصر فرارا من الموت، وأعاد سعيد باشا بعض ما أبطله عباس باشا من المعامل والمدارس الملكية والعسكرية واستقدم العلامة رفاعة بيك من منفاه بالديار السودانية حيث كان أبعده عباس باشا لوشاية الواشين وسلمه مقاليد تلك المدارس فأفلحت وتخرج منها الكثير من أبناء البلاد.

وقدم فى ولايته الشهير فردينانديلسبس الفرنسوى إلى القاهرة وكلمه فى حفر خليج يصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر مبتدئا من مدينة السويس إلى ما يجاور الاشتوم المعروف باشتوم الجمل على ساحل البحر الأبيض المتوسط وألح على سعيد باشا فى ذلك فاستكبر سعيد باشا هذا العمل وعده رابع المستحيلات وطاول ديلسبس ومناه فاشتدت عزيمة دى لسبس وشدد فى الطلب وأكثر التردد على مقر سعيد باشا وتواردت على سعيد باشا الرسائل تترى بعضها طعنا فى أعمال دى لسبس وبعضها استهزاء بمشروعه وسخرية به. قال أحد الكتاب: وأكثرت دولة الإنجليز من التنديد بهذا العمل الخطير واندفع أصحاب صحف أخبارها يسلقون دى لسبس بألسنة حداد ويبالغون فى الهجاء والسخرية فمنهم من سماه سيزوستريس القرن التاسع عشر ومنهم من قال بل هو إسكندر المقدونى ابن فلبس ومنهم من قال هو عمرو بن العاص فاتح مصر الذين تقدموا فى أيامهم إلى إيصال البحرين ببعضهما ولم يبق

لعملهم أثر على ما كان لهم من بُعد الصيت واتساع الكلمة وتذليلهم للصعاب ومع هذا كله لم يثن لديلسبس عزم ولم تفتر له همة وثابر على الإلحاح فوعده سعيد باشا ومناه فرفع إليه فى ثانى عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية كتابا يقول فيه:

يامولاى - لقد طالما اشتغل عظماء العالم بأسره لا سيما ملوك مصر الأولين بأمر إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط وقد أثبت التاريخ ما قيل عن سيزوستريس فرعون مصر الشهير والإسكندر المقدونى وقيصر ملك رومية وعمرو بن العاص وبونابارته ووالدك محمد على باشا أنهم قد بذلوا جهدهم فى سبيل انجاز هذا المشروع الخطير وقد تم لبعضهم ما أراد فأوصلوا البحرين ببعضهما بواسطة ترعة تمرّ بالنيل وبقيت هذه الترعة مدة غير طويلة فى منتصف القرن التاسع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب فطمها وامتنع جريان الماء بها فتعطلت وبطل نفعها ثم قام بعضهم بعيد ذلك وأعاد هذا الاتصال فبقى زهاء أربعمائة سنة وخمس وأربعين سنة فى أيام خلفاء الإسكندر المقدونى على ديار مصر ولبث الحال على ذلك إلى القرن الرابع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب وطمها حينا حتى دخل عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأخذ بأطراف هذا الأمر العظيم ونهض إلى استرجاع ذلك الاتصال ففاز ونجح وجرى الماء فيه فعبرته السفن مائة وثلاثين سنة ولقيام الفتن وتوالى البلايا والمحن علاه التراب فطم وامتنع سير السفن منه.

ولما دخل الشهير بونابارته بجيوشه ديار مصر وشاهد بعينى رأسه موقع ذلك الاتصال ودّ لو استطاع إرجاعه فينال شهرة عظيمة لا يمحوها كرور الأيام والسنين وعمد إلى تشكيل عمدة من كبارالمهندسين وأماثل علماء الآثار وأتى بهم من الديار الأروباوية لينظر فى انجاز هذه الأمنية وسألهم إذا كان فى الإمكان إرجاع ذلك الاتصال بشرط أن لا يمر بالنيل فأجابوه إلى ذلك ورفع إلى مقامه أحدهم الموسيو لوبير تقريرا عما ظهر لهم من البحث والتنقيب وما يحتاجه هذا العمل الخطير من النفقة فلما اطلع عليه بونابارته صاح قائلا أنه لعمل يستحق مزيد العناية والاهتمام ويجب علىّ إنجازه ولكن من أين لى النفقة الآن ويدى خالية فعسى أن يأتى يوم تعود فيه السلطنة العثمانية إلى سابق مجدها وغناها فتعيد ذلك الاتصال فيخلد ذكرها على ممر الأعوام فها قد آن يامولاى الآوان وجاء اليوم الذى قال عنه الشهير بونابارته نعم إن العمل خطير ولكن انجازه سيكون داعيا إلى ظهور شأن السلطنة العثمانية ورفعة كلمتها واتساع شهرتها فتقطع ألسنة القائلين بقرب سقوطها وزوال

مجدها ويرجعون فيعلمون أنها ما برحت صاحبة الكلمة المسموعة والقول الذى لا يرد ويخلد لها الذكر الحسن فى بطون التواريخ الجامعة لحوادث المدنية والعمران، ولا خفاء أن اجتماع دول أوروبا على الذب عن الآستانة وحفظها مقرا للسلطنة العثمانية والذود عن ذمارها ورغبتها فى بقاء السلطنة المشار إليها زاهية زاهرة موفقة معززة قوية على خصومها وقيامها لنصرتها عند أى حادث بالنفس والنفيس وركوبها على عدوها لقتاله وارجاعه إلى الطاعة والخلود إلى السكون إنما هذا كله نظراً لما لبوغاز السويس من خطارة المركز وأهمية الموقع الذى يفصل ما بين البحرين وحذرا من وضع يد إحداهن عليه فتصبح هى المالكة المتسلطة على بقية الديار فتنتقض المساواة وتختل الموازنة المتفق عليها بين الدول الغربية التى يهم العالم بأسره حفظها بين الدول الكبرى، ولعمرى إذا كان البوغاز المذكور هو سبب تكاثف سائر الدول على معاونة السلطنة العثمانية والاهتمام بأمرها فكيف بها لو جعلت مصر مركز العالم بأسره ومحط رحال التجارة وطريق العالمين الغربى والشرقى بالجمع بين البحرين فلابد وأن يزداد شأنها علوا وقدرها خطارة ومقامها أهمية لدى أهل السياسة إذ تصبح مفاتيح العالم بأسره فى يدها ولا خوف عليها فأنه متى تم حفر ذلك الاتصال قام جميع الدول بجعله حرا مباحا للجميع سواء وجعلته تحت رعاية الدولة العلية دون سواها إذ هى صاحبة الدار، وقد كان الموسيو لوبير من نحو الخمسين سنة قدّر عدد الفعلة اللازمين للعمل فى الاتصال المذكور بعشرة آلاف وضرب لهم أجلا لانجازه زهاء أربع سنين وقوّم ما يحتاجه من النفقة بقيمة ثلاثين أو أربعين مليونا من الفرنكات وقال أنه يمكن اتصال البحرين بواسطة ترعة على خط مستقيم وأما الموسيو طلابوت الذى سبق انتدابه لهذا الغرض ضمن الثلاثة المهندسين المشهورين الذين سيرت بهم الجمعية الفرنسوية التى تأسست بفرانسا من نحو العشر سنين للنظر فى هذا الموضوع فقد تراءى له جعل الترعة المذكورة واصلة من مدينة السويس إلى الإسكندرية بحيث تمر بالنيل على القناطر الخيرية وقدر للنفقة على هذا العمل مائة وثلاثين أو مائة وأربعين مليونا من الفرنكات ونحو عشرين مليونا أخرى لعمل مينا ورصيف بمدينة السويس وأما لينان بيك الموظف بخدمة الحكومة المصرية الموكول لعهدته منذ ثلاثين سنة حفر الترع وتقوية الجسور ونحوه فقد اشتغل بأمر البحث عن إعادة الاتصال المذكور بحثا مدققا مع ما هو عليه من الدراية والخبرة المشهود له بهما فى جميع الدول فتراءى له صلاحية مدّ ترعة بحيث تمر ببحيرة التمساح وأن يعمل

بالبحيرة المذكورة مينا ترسى فيها السفن الآتية من بيلوز التى هى آتية إلى البحر الأحمر أو من السويس إلى البحرالأبيض المتوسط وكذلك العلامة الشهير كاليس بيك مهندس الحصون والقلاع المصرية على عهد المرحوم أبيك قد كان رفع إلى أبيك رحمه الله مشروع حفر ذلك الأتصال على شكل خط مستقيم وعمل له رسما عن ذلك بقلم العلامة لينان بيك المشار إليه وموچيل بيك مهندس أشغال القناطر الخيرية والكبارى والجسور المصرية وما من هؤلاء إلا وكان يطنب لوالدك المبرور فى مدح هذا العمل وما ينجم عنه من الفوائد الجمة وفوق ذلك فأنه فى سنة أربعين وثمانمائة وألف ميلادية استدعى الكونت دى والوسكى الذى كان وقتئذ نزيل الديار المصرية الموسيو كاليس المومى إليه وكلمه فى أمر هذا الاتصال فرفع إليه كاليس تقريرا بما يراه ولكن قد حالت يومئذ دون انجاز هذا المشروع موانع لا وجود لها اليوم.

ولما كان من الواجب علينا أن ندقق البحث ونمعن النظر مع التأمل فى جميع آراء أولئك العلماء الأفاضل والمهندسين الأماثل مع مراعاة أن هذا المشروع المهم قابل للانجاز على أحسن حال وأتم منوال لزمنا أن نختار منها أسدّها وأصوبها وأقواها حجة وبرهانا فنعمل به وليعلم مولاى حفظه الله أن الموانع والمرابك والعقبات التى طالما أقلقت القدماء وأضعفت عزائمهم وحالت بينهم وبين انجاز هذا العمل الجليل قد زالت اليوم وهب أنها لم تزل باقية بعضها أو كلها فإن تحمل الصعاب مع الصبر والجلد فى سبيل انجاز هذا الأمر الخطير لهو من أوجب المواجب بل من أسمى المطالب بقى إذا علينا أن ننظر فى أمر النفقة وهذه أيضاً ليست بالأمر البعيد فأنه لا يصعب على أولى الحزم والعزم حل عقدتها على أحسن ما يرام إذ ستكون إيرادات ذلك الاتصال أضعاف أضعاف ما سينفق عليه وعلى ذكر هذه المسئلة الثانوية فليسمح لى مولاى أدامه الله بأن آتى إليه بالبيان الآتى بعد فيتضح لسموه أن المصاريف التى يحتاجها عمل ذلك الاتصال لا تعد شيئاً فى جانب الفوائد المهمة والمنافع الجمة المترتبة على إعادته فضلاً عن كونه سيقصر المسافة الواقعة ما بين الهند وآسية وبين أوروبا وأمريكا وهذا البيان قد سطره الأستاذ الشهير والچيولوچى الماهر الموسيو كورديه.

أشهر مين أوروبا وأمريكا	المسافة ما بين المين المذكورة إلى بومباي		الفرق بين الطريقين بالفرسخ	
	من المحيط الأطلانتيكي	من طريق الاتصال الجديد		
قسطنطينية	٦١٠٠	١٨٠٠	٤٣٠٠	بالفرسخ
مالطا	٥٨٠٠	٢٠٦٢	٣٧٧٨	بالفرسخ
تريستا	٥٩٦٠	٢٣٤٠	٣٦٢٠	بالفرسخ
مارسيليا	٥٦٥٠	٢٣٧٤	٣٢٧٦	بالفرسخ
كاديش	٥٢٠٠	٢٢٣٤	٢٩٧٦	بالفرسخ
يسيون	٥٣٥٠	٢٥٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
بوردو	٥٦٥٠	٢٨٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
هافر	٥٨٠٠	٢٨٢٤	٢٩٧٦	بالفرسخ
لوندرا	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
ليفربول	٥٩٠٠	٣٠٥٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
آمستردام	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
سان بطرس برج	٦٥٥٠	٣٧٠٠	٢٨٥٠	بالفرسخ
نيويورك	٦٢٠٠	٣٧٦١	٢٤٣٩	بالفرسخ
نيوفيل أورلانس	٦٤٥٠	٣٧٢٤	٢٧٢٦	بالفرسخ

ولقد وافق على هذا التقـدير سائر المهندسين وأجمعوا على دقـة ضبطه وقرروا بأنه يهم جداً سـائر بلاد أوروبا وأمريكا والهند والعـالم بأسرة إعـادة هذا الاتصال، وليعلم مـولاى أن لا عمل في بلاده أكبر خطارة ولا أعظم فـائدة ولا أجل شأنا من هذا العمل العظيم فلـيعمل مولاى على ذكـر اسمه فى مـصاف أولئك الذين تملكوا على ديار مصر وينجـز هذا المشروع فى أيامه فيزدان حكمه بما لم ينله غـيره من قبل

وتسعد الأمة المصرية فتتجه نحوها الأبصار وتمد إليها الأعناق وينادى باسم مولاى فى سائر أنحاء المعمورة ويخلد ذكره فى بطون التواريخ وينال من الشهرة ورفعة القدر ما لم ينله الفراعنة الذين شادوا الأهرام والهياكل الضخمة التى لا فائدة فيها للنوع الإنسانى كالفائدة المترتبة على إعادة ذلك الاتصال وإنما هى مبان تدل على القدرة البشرية التى سخرت كل نوع لحذقها وإظهار مجدها، ومن فوائد هذا الاتصال العظيمة التى لا ينكرها مكابر تسهيل طريق الحج إلى بيت الله الحرام وتعلق الناس بفن الملاحة وتسيير السفن وإتقان السباحة فى أرض البحار فيتسع نطاق التجارة وتنفتح أبواب الرزق على أهل البلاد المصرية ويعم نفع ذلك جميع البلاد الواقعة على ساحل القلزم وخليج العجم وشرقى أفريقيا ومملكة سيام وشنتين واليابان ومملكة الصين البالغ عدد سكانها زهاء أربعمائة مليون فضلا عن جزائر فيلبين وأوستراليا وجميع جزاير البحر الأبيض المتوسط التى هاجر إليها الكثير من الأوروباويين فتجرى المواصلات بينها جميعها وتسعد حالها.

هذا ولقد ظهر من الإحصاءات المدققة أن ما تنقله السفن الأوروباوية فى كل سنة عن طريق رأس الرجاء الصالح ورأس هارون لا يقل عن الستة ملايين طونلاطة فإذا سارت هذه السفن بطريق خليج العجم وترعة السويس المراد إنشاؤها زاد نقلها عن ذلك زيادة عظيمة وكان الدخل المتحصل منها زهاء المائة وخمسين مليونا من الفرنكات باعتبار عشرة فرنكات عن كل طونلاطة وربما زاد الدخل عن ذلك كلما انتظم سير السفن بالترعة المذكورة وحسنت الملاحة فيها، ويجب مراعاة أن إعادة هذا الاتصال بين البحرين يهم جدا دولة الإنجليز التى هى سيدة البحار وأغنى سائر العالم مالاً وأكثرهم تجارة وأكبرهم رغبة فى تقريب الاتصالات التجارية ولكن بعض أهل السياسة يقولون أن إعادة هذا الاتصال تضر جداً بمصالح الإنجليز وتحط بها لأنها تقرب العالم بعضه إلى بعض وتوسع نطاق ملاحة جميع الدول على أن الإنجليز لا يحبون تقدم غيرهم فى شىء من ذلك البتة ويميلون إلى أن يروا أنفسهم السابقين فى كل شىء والرابحين لكل شىء ولذا أصبح هذا البحث الدقيق الشغل الشاغل لكثير من أهل السياسة وكان من أكبر الأسباب الباعثة على تأجيل الشروع فى هذا العمل الجليل ولو تأمل أصحاب هذا الرأى فيما جاء فى المعاهدات التى أبرمت بين دول فرنسا وانجلترا والباب العالى فى هذا الشأن لتحققوا أن الأمر على غير ما يتوهمون وعلموا أن دولة إنجلترا تملك أهم وأعظم بوغازات العالم بأسره مثل جبل طارق ومالطا وجزاير الأرخبيل وعدن وغير ذلك فى الهند وسنجابور وأوستراليا فلا

يضر بشيء من مصالحها إرجاع ذلك الاتصال فإذا سمح مولاى بالأخذ بأطراف هذا العمل لا يسع دولتي الفرنسيس والإنجليز إلا الإذعان والموافقة على حفر مستطيل لا يتجاوز طوله ثلاثين فرسخا ولعمر الحق من ينظر إلى شكل هذا المستطيل على خريطة نظرة التأمل ولا يهيم شوقا إلى رؤياه برزخا يجمع ما بين البحرين أما مدّ خط حديدى من مدينة الإسكندرية إلى مدينة السويس كما تمنت ذلك الدولة الإنجليزية وسعت جهد الاستطاعة وراء الحصول عليه فهذا لا يأتى بالفائدة المطلوبة إلا إذا كان المراد منه مساعدة الملاحة فى الاتصال المذكور.

وإذا نظرنا إلى دولة النمسا فلا نراها تبدى اعتراضنا على هذا العمل لأنها أباحت حرية الملاحة فى نهر الدانوب والسوبليانا فلا سبيل لها إلى غير الإذعان والقبول وكذلك دولة المجر لا ترى فى هذا العمل سوى زيادة أهمية مينا تريستا والبندقية وجعلهما من أهم مين العالم التجارية فنعم به السعادة والرفاهية أهل بلادها ويتسع عندها نطاق التجارة والصناعة فلا تجد بدا من معاونتنا وهى على أتم ما يكون من حسن الرضا والقبول، وإن قيل أن دولة الروسيا لا ترضى عن ذلك العمل قلت هذا لا يكون لأنها تودّ ظهوره وهى الآن فى غناء عن أن تعارضنا لا سيما وجلالة قيصرها قد فاز بكل ما تاقت إليه نفسه فافسح لكل بلاد دخلت فى دائرة حكومته طرق التمدن والعمران فإذا تم عمل هذا الاتصال كان له نور على نور فينفذ قومه إلى أقاصى الهند بأصناف المتاجر والبضائع فتنفتح لهم أبواب الرزق وتسعد أحوالهم وكذلك تزداد العلائق يوما عن يوم بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الهند والصين وتزداد مواصلات أسبانيا مع جزائر الفليبيين وهولاندا مع جافا والصومال وبرنيو ودولة إيطاليا الشهيرة قديماً مع اليونان وبالإجمال يسر العالم بأسره سرورا عظيماً يوم يعم خبر الشروع فى هذا العمل العظيم، وإنى أعد مولاى حرسه الله بأنى سأبذل جهد المجتهد فى الحصول على معاونة جميع هذه الدول وأقوم خير قيام بوفاء وعدى والسلام.

فاستحسن سعيد باشا هذا المشروع وأحله محل القبول وبعد التأمل والبحث الطويل أجاب الموسيو ديلسبس إلى الأخذ فى أسباب عمل الاتصال المذكور وأنفذ إليه إجازة تتضمن اثنتى عشرة مادة بصورة العمل وما يحتاجه من العمال وما يتبع فى حق الأراضى الواقعة على شاطىء الاتصال المذكور وكيفية المساهمة والمشاركة فى الأموال اللازمة للنفقة والأرباح الناتجة من الملاحة فيه وفى تسمية شركة لذلك

وتعيين عدد المساهمين وغير ذلك من الشروط والالتزامات التى يستلزمها هذا العمل العظيم، ولما كان لا يتـأتى الجزم بالشروع فى هذا العمل عـقب إعطاء هذه الإجازة للموسيو ديلسبس إلا من بعد مخـابرة دار السلطنة العثمانية فى ذلك والحصول على رخصة البـراءة السلطانية أو عز سعيـد باشا إلى الموسيو دى لسـبس بالشخوص إلى دارالسلطنة ليـخابر صـدر الدولة فى هذا الأمر فـسار إليـها فكان بينه وبين الـصدر الأعظم أخذ وردّ أياما كثيرة وورد مرسوم الصدر الأعـظم إلى سعيد باشا باستحسان المشروع وحلوله محل القبول لدى أمير المؤمـنين ولزوم التأنى والتروى فيه قبل إنفاذه وأنه صار من ذلك اليوم موضوع نظر رجـال الدولة ومبحث أرباب الحل والعقد وأنه قد تصرح للموسيو ديلسبس بالشخوص إلى حيث شاء حتى يأتيه أمر السلطان.

وجاء المسيـو ديلسبس إلى القاهرة غيـر قانط ولاضعيف الأمل ولبـث بها أياما يغدو ويروح على مقر سعيد باشا ثم سـار إلى بلاد الفرنسيس ليعدّ المعدات ويجمع المال للنفقة فكثر تحدث كبار الدول فى هذا الأمر واندفعت أصحاب صحف أخبارهم تبدى وتعيـد كل حسب ما تمليه عليه أهواؤه وما يلائم مـصلحة بلاده ووقف الوشاة على باب السلطان يدسـون الدسـائس ويحركـون ما فى صـدور أهل الحل والعقـد ويعـملون على إبطال هذا المـشروع فلم يـكن بأسرع مـن أن عاد ديلـسبس ومـعـه جمـاعات المهندسين والرسام والبنائيـن والغواصين وصناع الآلات ومعلمى طبـقات الأرض والمعادن وشرعـوا فى العمل فرسم محمـد سعيد باشا فى سـادس عشر ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية بتسخير زهاء عشرين ألفا من أهالى البلاد بالمناوبـة فى حفر ذلك الاتصـال ووكل مديرى الجهـات بجمـعهم وتسيـيرهم فكانت شدة عظيمة للغاية ونال مشايخ القرى والبلاد من أهلها فأذلوهم وتمكن العدوّ من عدوه وشمت الغريم بغـريمه وكادت تتعطل أسباب الفلاحـة إذ هاجر الكثير من أهل البلاد ونـزحوا من أوطانهم فرارا من هـذه المحنة الكبرى، وسار ديلـسبس فى العمل سيرا حثيـثا غير مبال بعدم رضا السلطان ولا هياب من العـاقبة وفرق العمال على طول خط الاتصال من بيلوز علـى البحر الأبيض التى على أرضهـا الآن مدينة بورسعيـد إلى مدينة السويس فتـبعهم البياعـون على اختلافهم وأصحـاب القهاوى والخانات وأهل الخلاعة والقصف فعمرت تلك الأصقاع وصارت آهلة بأخلاط الناس من الروم والترك والفـرنجة والمصريين وغيـرهم ممن جاء من البلاد البعـيدة فى طلب الرزق واهتم رجـال الدولة باستـتبـاب الأمن فى تلك الأنحـاء فرتبـوا لها العـسس

والشرطة لا ينكفون عن التطواف ليلا ولا نهارا وقام سعيد باشا بجميع تعهداته التى تعهد بها إلى ديلسبس ماديا وأدبيا فاندهش العالم بأسره وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

وبينما كانت الأحوال على ما يرام والقلوب مطمئنة والفتنة راقدة إذ جاء الخبر بزحف نجاشى الحبشة على بعض الأملاك المصرية الواقعة على الحدود وشنه الغارة عليها وأنه نهب أهلها وساق مواشيهم وأسر منهم خلقا فهال سعيد باشا هذا الأمر وأزعجه فجند جندا عظيما لقتال النجاشى وعزم على لقائه وكان إلى هذا الحين لم يرتق كيرولس بطرك المتأصلين مسند البطريكية بل كان مطرانا ووكيلا للدار البطريكية بعد موت بطرس البطرك وكان بين كيرولس ونجاشى الحبشة مودة وصحبة قديمة على عهد بطرس فإنه كان سفيرا من قبل بطرس إلى النجاشى وقد نزل فى جواره أياما كثيرة، والحبشان يجلون بطارقة القبط ويخضعون لسلطتهم الدينية خضوعا عظيما ويعتقدون أن البطرك إنما هو أقرب جميع المخلوقات إلى نوع الملائكة والأرواح العلوية من أنواع البشر ولذلك لا يقربون من مقامه ولا ينظرون إليه فإذا نظروا اضطرارا فبطرف خاشع مطرق، وبعد أن تأهب سعيد باشا للمسير للقاء النجاشى عاد فحسب ما وراء هذه الحملة فخاف العاقبة وظهر أن ماء النيل آخذ فى الهبوط فى غير أوانه فخاف الناس وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فسلك سعيد باشا فى الأمر مسلك التأنى وشاور أصحاب الفكر فأشاروا بإنفاذ رسل إلى النجاشى يكون كيرولس مطران المتأصلين صاحب الكلمة بينهم فأعجب سعيد باشا رأيهم وكلم كيرولس فى الأمر فأجابه إلى ذلك فرسم سعيد باشا فجهزوا له باخرة من بواخر النيل فركبها مع رجال الوفد وترفعوا نحو الصعيد الأعلى فكانت إذا مرت باخرتهم بإحدى المديريات أطلقوا لها المدافع إجلالا وتعظيما وأنزلوا فيها أصناف المأكول والمشروب ثم ركبوا الهجن والجمال حتى بلغوا حدود الحبشة وعلم النجاشى بقدوم كيرولس ومن معه فخف للقائهم وسار إليهم فى أربعين ألفا من الجند فلما اقترب من المحلة التى كانوا بها ترجل وسعى على أقدامه حاسر الرأس فقام كيرولس للقائه فقبل النجاشى يديه وقبل كيرولس رأسه وسار معه والجند حوله حتى دخل مجدلة تخت الملك يومئذ وشاع خبر مجىء كيرولس فى جميع أرض الحبشة ففرحوا فرحا عظيماً ودقت البشائر وأقيمت الصلاة فى جميع الكنائس وبالغ النجاشى فى إكرامه وقد كان يتمنى لو أنه يراه كى يمسحه ملكا على جميع ملوك الحبشة كما

كانت تمسح أبناء بنى إسرائيل ملوكهم حسب ناموس موسى عليه السلام وكان إلى هذا الحين لم يعتبر النجاشى نفسه ملكا على سائر ملوك الحبشة إذ هو لم يمسح بتلك المسحة فلم يستقر بكيرولس المقام حتى سأله النجاشى أن يمسحه فأجابه إلى ذلك وضرب له أجلا فوفدت جميع ملوك الحبشة والأمراء وسائر قواد الجند والوجهاء والأعيان من أقاصى الحبشة إلى مجدلة وأقيمت الولائم والأفراح فى كل صوب وحدب أياماً ثم مسحه بين الملوك والأمراء وقواد الجند وصفوف العسكر والعدد العديد من أهل البلاد وفرح ثيودوروس النجاشى بذلك فرحاً لا يوصف وكان فى مجدلة نفر من الإنجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالإنجيل لبث تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشى بعمل المدافع وصنع الأسلحة لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال إليهم وأحبهم وأباح لهم التجول فى جوف البلاد فجالوها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وبثوا تعاليمهم حتى كادت تعم تقاليدهم جميع البلاد وأصبحوا وقد عبثوا بطقوس الكنيسة القبطية التى هى أم الكنيسة الحبشية فكبر هذا الأمر على مطران الحبشة وخشى العاقبة فعمد إلى إيقاف هؤلاء المرسلين عند حدهم فلم يفلح وقدكبر شأنهم واتسعت كلمتهم واشتدت الوحشة بينهم وبينه فلما جاء كيرولس شكى إليه المطران مما تلاقيه الكنيسة من أولئك القوم وسأله أن يتقدم إلى النجاشى فى تبعيدهم عسى أن تزول من البلاد تقاليدهم فأجابه كيرولس إلى ذلك ولما تمت الأفراح بمسح النجاشى ورجع من حضر من الملوك والأمراء والقواد والجند إلى أوطانهم كلم كيرولس النجاشى فى سبب قدومه عليه من مصر وسأله أن يردّ ما أخذه من بلاد مصر وأن يقلع عما يفعله فى الحدود منعا لقيام الحرب بين الحبشة ومصر وحقنا للدماء التى حرم الله سفكها فأذعن النجاشى وأجابه إلى كل ما طلبه ورسم فكتبوا إلى سعيد باشا يعلمونه بقبول ما طلبه كيرولس بغير شرط ولا تقييد ففرح كيرولس بذلك وكلمه أيضاً فى أمر المرسلين الإنجليز وزين له تسييرهم إلى أوطانهم فقال إنما هم عندى لعمل المدافع وتدريب عسكرى على القتال فقال كيرولس لم يبق موجب لبقائهم وقد زال ولله المنة والحمد ما كان بينك وبين والى مصر من الوحشة والنفور فإن كنت فى حاجة إلى صناع لآلات الحرب أو إلى من يدرب عسكرك أتيت لك من مصر بمن لا تحتاج معهم إلى غيرهم فقال النجاشى هذا ما أبغيه ثم رسم بإخراج من كان فى البلاد من جماعة الإنجليز فأخرجوهم وقد علموا بالسبب فشق عليهم الأمر جداً واستعظموه وصمموا على الأنتقام.

وكتب كيرولس إلى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله أن يسير إليه بطائفة من الصناع والمعلمين وعلم قنصل جنرال الإنجليز بمصر بالخبر فعمد إلى الأخذ بالثأر والأنتقام من كيرولس جزاء ما فعله بجماعة المرسلين فدخل على سعيد باشا بمقره وقال قد علمت أن كيرولس مطران القبط سأل مولاى أن يبعث إلى نجاشى الحبشة ببعض صناع آلات الحرب ومعلمى الجند فقال قد كان ذلك قال ولا أظن أن مولاى يجهل أن عند القبط كتابا يعتقدون صحة ما فيه وهو يدلهم على زحف الحبشة على أرض مصر فى يوم معلوم عندهم فيأخذونها عنوة قال لا علم لى بذلك ولعله حديث خرافة فقال القنصل هو كذلك ولكنى أتقدم إلى مولاى فى أن يأخذ حذره من كيرولس فأنه داهية طاغية قوى المراس بعيد الفكر محتال قال الراوى لهذا الحديث وما زال بسعيد باشا حتى تمكنت منه الظنون وترامت إلى المرمى البعيد وجمع إليه رجال ديوانه وأهل الدولة وشاورهم فى الأمر فأشاروا بالقتال وإعداد الجند والعسكر فرسم بالتأهب والاستعداد وكتب إلى كيرولس يعيب عليه ما فعله ويقول قد أفرطت وتجاوزت حد المصالحة فعجل بالحضور، وقام فى جيش عظيم قاصدا الخرطوم فوصلها فى سادس عشرى جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف هجرية، قال الراوى فلما تمت حيلة الإنجليز بقيام سعيد باشا بعسكره إلى حدود الحبشان دسوا إلى النجاشى من أعلمه بأن قدوم كيرولس إلى بلادك إنما هو لمنعك من إعداد جندك وآلات حربك لتذب عن مملكتك من إغارة والى مصر وقد أتى إلى السودان ليركب عليك بخيله ورجله فيأخذ ملكك ويذهب سلطانك وأنت آمن مطمئن وقد سير إليك أيضاً مع كيرولس كساء مسمم النسيج حتى إذا لبسته تسمم جسدك ومت من يومك وكان مع ما أتى به كيرولس من الهدايا والتحف النفيسة والتعابى الثمينة برنس من الجوخ الأحمر المزركش بطراز الذهب والفضة والحرير الملون فهال النجاشى هذا الأمر وأزعجه جدا وأنفذ من يستكشف له خبر مجيء سعيد باشا إلى الخرطوم فجاءه الخبر بوصول جيش عظيم من المصريين فكبر خوفه وتبدلت أفراحه أتراحا وأمر بكيرولس فسجنوه فى مقره وأحاط به الحراس من الجند ومنعوا من الدخول عنده ووكل به جماعة من خواصه يراقبونه فى الليل والنهار لمعرفة أحواله واستطلاع أسراره ووكل جماعة آخرين بطعامه وشرابه وضيق عليه وشدد وكيرولس لا يعلم بالخبر ولا يدرى ما هذا الأمر ثم لم يلبث أن نادى فى عسكره بالخروج وكثرت المناداة فى كل يوم فخرجت طوائف الجند مشاة وركبانا

فكانت شيئاً كثيراً للغاية وصـاروا على قدم الرحيل إلى حيث يلتقون بالعدوّ، ورأى النجاشى أنه إذا ترك كيرولس معتقلا وسار بعسكره للقتال تمكن كيرولس من الخروج فيمسح أحد بيت الملك أو أحد كبار قـواد الجند ملكا فتذهب سلطته وتسقط بيـعته وتخرج عليه الملوك والقواد فيصبح بين منتطح عنزين فعزم على أن لا يتركه فكان إذا سار من بلد إلـى آخر ساقـه معه فى حلقـة من الحراس ونفـر من الخواص وإذا نزل بعسكره للراحـة استدعاه وجعل يؤنبـه ويعنفه بفحش الكلام ويقـول أو هذه فعالك ياإمام النصـرانية فشق هذا الأمر على كـيرولس وأحزنه جدًا وأخذ فى التـدبير فكان كلما كلموا الملك فى أمره زاد غضبا وغيظا فلبث كيرولس على هذه الحال من الشدة أياماً طوالا إلى أن تمكن من لقاء أم الملك وكانت تقية صاحبة دين وورع فشكى إليها ما يلاقيه من ولدها وقص عليـها خبره واستجار بها وسألهـا أن تعلم ولدها بحقيقة الحال فـأجابته إلى ذلك وكـلمت النجاشى واستـحلفته أن يـجمع إليه رجـال دولته ويشاورهم فى أمر كـيرولس فلم ير بدا من طاعتهـا وجمع كبار قومـه ورجال دولته وقص عليهم ماعلمه من أمـر قدوم كيرولس إلى البلاد ثم أمر بحضوره فـاستحضر فسئل عن سبب حضور سعيد باشا إلى الخرطوم بعسكره وسبب وضع الكساء المسمم بين الهدايا التى قدمـها إلى الملك فوقف بين أيديهم والدمع ينحدر على لحـيته وبالغ فى بيان الحـقائق وأكـثر من مدح سـعيد باشـا وبالغ فى إخلاصه وولائـه للنجاشى وجميع قومه وما زال يستميل القلوب بحسن إبداعه حتى بش الملك وزال عنه بعض الغضب فقـال كيرولس: وأما الكسـاء فهو هدية الباشا إليك أيهـا الملك العظيم فلا يأخذنك ريب فى أمره ولا تصدق ما أخـبرك به الوشاة وما أنا إلا أخلص الناس فى الأمانة وأقرب إلى طاعة الله فلا آخذ بالوجوه ولا أبيع الآجلة بالعاجلة فإن كنت فى ريب من أمر هذا الكساء فأذن لـى حتى ألبسه ما شئت من الأيام فيـتحقق لك الأمر فاستـحسن الملك مقالته وأمـر بالكساء فأتوا به وألبسوه إيـاه على لحمه ووكل به من يحرسه يومين كـاملين فلم يصبه ضرر فاستغـرب الملك من ذلك وأمر فجيء برجل محكوم عليه بالموت فألبسوه الكسـاء ووكل به من يحرسه ثلاثة أيام فلم يصبه شيء البتة فالتفت الملك إلى قومه وقـال: ماذا تقولون قالوا: هي فرية ما أنزل الله بها من سلطان وقد أسأنا إلى كيرولس فليـجعلنا فى حل مما وقع فقال: بقى علينا أن نسأله إرجاع سـعيد باشـا إلى مقره فـإن فعل شكرناه وكنا له من المحـسنين ثم أرسل إلى كيرولس فدخل عليه فأجله وأجلسه بجـانبه فقال: هل لك أن تكتب إلى سعيد باشا

بالانحدار بعسكره إلى تخت بلاده ويكفينا وإياه شـر القتال فإن فعلت ذلك شكرناك واستغفرنا عما سلف قال: سأفعل الساعة إن شاء الله وكتب من فوره إلى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله الانصراف عن الخرطوم تتميما لقاعدة الصلح التى تقررت مع النجاشى وسير بالكتاب مع نفر من كبار الحـبشان فلما ورد الكتاب على سعيد باشا رحل بعسكره عن الخرطوم وكتب إلى كيـرولس، قد رحلنا عن الخرطوم إلى القاهرة فبلغوا عنا الملك خـالص المودة وأعلموه أنا ما زلنا على حسن الولاء والمحبـة، فعاد الرسل بالجواب ففرح كيرولس فـرحا لا يوصف وقام ودخل على الملك فلاقاه الملك وهو حاسـر الرأس حافى الأقـدام وانكب على يديه يقبلهـما فقـبل كيـرولس رأسه وسامـحه وأمـر الملك فدقت البـشائر وأقـيمت الأفـراح وأولمت الولائم ونودى فى العسكر بالخـروج فخرجـوا أفواجاً ومـروا بالمكان الذى كان به كيـرولس والنجاشى وصاحوا بأصوات التـهليل وأمر النجاشى فجيء إليه بورقة العـهد الذى رسم بعقده مع سعيد باشا فوقع عليها وهو بين كبار قومه ورجال دولته وأرسلت والدة النجاشى إلى كيرولس هدية نفـيسة للغاية وكـذلك الأمراء وكبار القواد وزاروه وقـبلوا أقدامه وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين وأتوا إليـه من كل صوب وحدب ثم استأذن الملك فى الشخوص إلى مصر فجهزه بمال وأرسل معه كثـيرا من الهدايا النفيسة وسير معه وزيرا من كبـار وزرائه وكتابا إلى سعـيد باشا فلما وصل كـيرولس إلى الإسكندرية قوبل بغاية الاحتفاء والاحتفـال وأنزلوا وزير النجاشى بدار الضيافة الخاصة وقد رفع إلى سعيد باشا كتـاب الملك والعهد والهدايا ولبث أياماً كثيرة لم ير فيـها سعيد باشا غيـر المرة الأولى ثم استأذن بالانصراف فـأذن له وأرسل معه بعض الهـدايا والتحف وجوابا إلى الملك.

وأحس كـيرولس بعـيد رحيل وزيـر النجاشى بغـيظ محـمد سعـيد باشـا منه وإعراضه عنه فكبر عليه ذلك وتردد على مقر سعـيد باشا لعله يعرف شيئاً من الأمر فلم يتمكن فصمم على العزلة حتى تنجلى الحقيقة ويظهر الصدق لذى عينين، واتفق بعد أيام أن خـرج كيرولس إلـى دير أنطونيوس بالجبل الشـرقى ومعـه بطركا الروم والأرمن الأورثوذكس ليقضـوا فيه أياماً ترويحـا للنفس فلما وصلوا بلدة بوش على مقربة من بنى سويف نزلوا بعزبة الرهبان أياماً حتى تأتى القافلة فيخرجوا معها، قال الراوى لهذا الحـديث: وعلم قنصل الإنجليز بخـبر قيـامهم ونزولهم بعـزبة الرهبان ببوش فسار إلى مقر سعيـد باشا ودس إليه بأن كيرولس إنما ذهب إلى الدير بمن معه

من البطاركة للتحالف وتجديد العهد على وحدة الطوائف الأروثوذكسية بمصر وجعل كيرولس بطركا عليهم ووضع الكنيسة القبطية تحت حماية دولة الروس فإذا تم له ذلك أصبح مسند الولاية المصرية على شفا جرف تحيط به الأخطار من كل جانب، قيل فانذهل سعيد باشا من فعال كيرولس وأنفذ إلى مدير بنى سويف يقول: سر إلى كيرولس بطرك القبط وقل له أن يأتى إلينا عاجلا فإنا فى حاجة إلى حضوره فسار إليه بعزبة بوش وأبلغه الرسالة فقال إنى ذاهب مع رفاقى إلى الدير بالجبل الشرقى فإذا عدنا إن شاء الله ذهبت إليه وتمثلت بين يديه فقال المدير اكتب بذلك فأخذ كيرولس ورقة وكتب مقالته هذه فبعث بها المدير إلى سعيد باشا فاشتد غيظه ثم كان من خبر كيرولس وما جرى له بعيد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى.

ولم تكن لتشغل محمد سعيد باشا عندما نزل على الخرطوم الحرب المنتظر وقوعها بينه وبين نجاشي الحبشة عن النظر فى شئون الرعية وإصلاح ما أفسدته أيدى الحكام والعمال من أمور البلاد وتخفيف الضرائب وإبطال بعض المكوس فأنفذ إلى جميع عماله على السودان فى سلخ جمادى الثانية سنة ثلاث وسبعين مرسوما يقول فيه: ليس منكم من يجهل ما ألاقيه من التعب فى سبيل إحياء ما اندرس من معالم المدنية والعمران وإيراد كافة صنوف الرعية موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاستعباد ومع ذلك فإنى لما قدمت إلى هذه الأصقاع شاهدت بعينى رأسى ما يلاقيه أهلها من الضنك والفاقة وسمعت بأذنى صوت أنينهم من أحمال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنىّ منهم فضلا عن الفقير وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الأعمال التى لا قدرة لهم على القيام بها والإتجار فى أولادهم وبناتهم كالسلعة فى الأسواق فكان ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكرى لا سيما وقد علمت بأنهم أخذوا يهاجرون من أوطانهم إلى أقاصى البلاد هرباً من هذه الكوارث والمحن المتراكم بعضها فوق بعض فلذلك قد عقدت النية على جعل الخراج قدرا يناسب حالة البلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهد المجتهد فى إصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم فلما نزلت على بربر جمعت المشايخ وجميع من جاء للقائى من أهل البلاد على اختلاف مراتبهم وسألتهم أن يؤمروا عليهم أميراً يختارونه من بينهم ممن يستبشرون بإمارته ويتوسمون فيه الخير للبلاد وتحصل على يديه السكينة والخلود إلى الطاعة وأن يقدروا مبلغ الخراج الذى يسهل عليهم القيام به بلا كلفة ولا مشقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن

يربط على كل سقاية خراجا قدره مائتان وخمسون قرشا فى كل سنة فلم يعجبنى ذلك منهم لكثرته مع حاجة البلاد إلى التخفيف فرسمت بأن لا يزيد خراج كل سقاية عن مائة وخمسين قرشا وخراج كل فدان من أرض الجزائر خمسة وعشرون قرشا أما أراضى العلو فعشرون قرشا لا غير فكان لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعية وفرحوا فرحا لا يوصف وأخلدوا إلى السكون والطاعة وهنأ بعضهم بعضا وأرسلوا يستقدمون من هاجر منهم وترك الأوطان.

ولما وصلت إلى الخرطوم جاءنى أولئك المشايخ والأعيان فأحسنت لقاءهم وأكرمت مثواهم وطيبت خواطرهم مما لم يسبق له مثيل علكم تقتدون بى وإنى لم أقلدكم المناصب إلا لتكونوا عونى على استتباب الأمن وإصلاح أمور الرعية فإياكم والعسف والجور ولا تجبوا الخراج إلا فى الأوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية فى الثلاثة شهور التى لا زرع ولا قلع فيها وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها إلى آخر كل سنة وكلفوا جماعة الأعيان بتقرير هذا العمل وكل ما وقع عليه الاتفاق ارفعوه إلىّ ثم أحصوا جميع الكشاف والجند الموكلين بجباية الخراج واخلعوهم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك وعافوهم فى مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية فى كل خمس وعشرين سقاية هذا وحيث أن لأولئك المشايخ والأعيان بيوتًا ينزل عليها كل طارق وقاصد فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة فى كل مائة فدان وإذا ابتاعت الحكومة شيئًا من أهالى البلاد لزمها أن تنقدهم ثمنه حالاً بزيادة اثنين فى المائة عما تشترى به الأهالى بعضها من البعض الآخر وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء.

وحيث يوجد فى هذه البلاد من الأخشاب الصالحة للعمائر ومد السفن والحريق وغيره شيئًا كثيراً فاشتروا منه من الأهالى كل ما تيسر وسيروا به إلى القاهرة وانقدوهم الثمن معجلاً وعلموهم الصنائع والفنون وإنشاء المبانى المنظمة والمساكن المشيدة وغرس الأشجار بالشوارع والطرقات وإذا أعطيتم أحدًا أرضًا للفلاحة من الأطيان المتروكة فأخبروا بذلك المديرية التى أنتم فى دائرة اختصاصها وإذا عاد من هاجر إلى بلده وطلب رد أطيانه وكانت ثابتة إليه وجب ردها إذا لم يمض على انسحابه خمس عشرة سنة وارفعوا عن الأهالى جميع المتأخرات لغاية سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية واعتبروا أن مساحة كل فدان أربعمائة قصبة وإن كل قصبة ثلاثة أمتار فقط وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء اهـ.

فلما ذاع خبر هذا المنشور بين أهل السودان فرحوا فرحًا عظيمًا وعاد منهم من هاجر ورحل عن الأوطان بسبب تلك المغارم والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وجاءت وفودهم إلى مقر سعيد باشا يقبلون أعتابه ويدعون له بخير ويعلمونه بأنهم قد أصبحوا على قدم الطاعة والخلود إلى الدعاء بدوام ملكه وتأييد عرشه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ووعدهم بانجاز كل ما يتمنونه من الخير لبلادهم.

وكان ميالاً جدًا إلى مد الخطوط التلغرافية والحديدية من القاهرة إلى قلب السودان فلم تمكنه الأيام من ذلك ولكنه رسم بتسيير عدة من سفن البخار فى النيل بين الصعيدين فكانت من أكبر أسباب العمران وأدعى إلى رحيل الكثير من الأجانب إلى تلك الأطراف، وكان سريع الخاطر قريب الغضب سريع الرضا يرضى بالقليل من كل شئ ولا يتطلع إلى ما فى أيدى الرعية ولم يظلم أحدًا قط وكان إذا علم بظلامة أحد هاج وعاقب مرتكب هذه الظلامة لا سيما منهم أرباب الدولة والحكام وكان بعيد التعصب لأحد الأديان لا يفرق بينهم ولا يفضل بعضهم على بعض فأحبته الرعية ومالت إليه جميع القلوب وكان لا يملك دارًا لنفسه فإن جميع ما ابتناه جعله ملكًا للخزينة، وسار فى عشر رجب من القاهرة يريد الحجاز فوصل مدينة السويس فى رابع عشرة وركب من يومه الباخرة المسماة نجد وزار الحرمين وتصدق فى مكة والمدينة وأطعم وفرق أموالاً كثيرة وقام من المدينة فى سادس شعبان فوصل ينبع فى ثالث عشرة وسار منها إلى مدينة السويس فوصلها فى سابع عشر الشهر المذكور ففرح الناس بقدومه ودقت البشائر وزينوا له مصر والقاهرة ثلاث ليال فكانت كلها أفراحًا، وكان بينه وبين نابوليون امبراطور الفرنسيس محبة كبيرة وكانا على وفاق فى كثير من الأمور فأبغضه لذلك كبار سياسة الإنجليز وعملوا على نكايته وتذليله، قال بعض الكتاب: فدسوا إلى السلطان أنه إنما يسالم نابليون ليساعده على الاستقلال بملك البلاد والخروج عن تابعية دار السلطنة وكانت المملكة العثمانية يومئذ فى غاية الارتباك والخبال لخروج الكثير من إيالاتها كالجبل الأسود والبوسنة والهرسك وغيرها عن الطاعة وطلب الاستقلال أو شبه الاستقلال مع تعرض الدول الكبرى إلى جميع أمور السلطنة الداخلية ووقوفهن فى سبيل إصلاح الأحوال وإرجاع الأمور إلى سابق مجراها فكانت إذا عمدت إلى إخماد فتنة فى إحدى الإيالات ظهرت ثورة فى أخرى وإذا تجردت إلى مقاومة طائفة قامت عليها أمة فكان كبار سياسة الدول يهولون ويرمون السلطنة بالجور والعسف ويسمونها بالغلظة

والجفاء فسعت وبذلت المهج فى سبيل إخماد تلك الفتن وأجهدت نفسها ولم تتمكن من إعادة السكينة إلى ربوع الهرسك وبوسنه وإصلاح بعض أمورها حتى ظهرت الفتنة بجزيرة كريد واشتدت وعظم أمرها فقام من بها من المسلمين على النصارى واقتتل الفريقان قتال الأعداء وكادت تمتد نار الفتنة إلى جميع البلاد فتدارك صدر الدولة يومئذ عالى باشا الأمر بحكمة منه وخلع والى الجزيرة وأقام مكانه سامى باشا استرضاء لفريق النصارى فسكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه وشدد الصدر الأعظم فى مراقبة الأحوال واستطلاع الأخبار فلم يكن بأسرع من أن ظهرت الفتنة أيضًا بمدينة جدة فقام من بها من المسلمين وركبوا على النصارى فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وأعملوا فيهم القتل بحد السيف وجرحوا قنصل الفرنسيس وكاتبه بجراحة عظيمة وقتلوا زوجة القنصل وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة فاهتم له الصدر الأعظم وفؤاد باشا ناظر الخارجية اهتمامًا عظيمًا وسيرا فى الحال فريقًا من الجند ومقدمه إسماعيل باشا وأباح له الصدر قصاص جميع أصحاب هذه الثورة بالقتل من غير معاودة فسار إسماعيل باشا قاصدًا جدة فلم يبلغها حتى علمت الدول الكبرى بالأمر فهاجت وماجت ونادت بالويل والحرب وأنفذت دولتا الفرنسيس والإنجليز إلى بعض سفن حربهما بالشخوص إلى جدة ورميها بالقنابل تباعًا حتى تدكها دكًا وأعلمتا الباب العالى بذلك فراجعهما فلم يلتفتا لقوله، وكان لما وصل الخبر بما جرى فى مدينة جدة إلى عامل السلطان على مكة سار من فوره إلى جدة وقبض على أصحاب الفتنة وزعماء الثورة وحكم على جماعة منهم بالقتل وعلى آخرين بالتبعيد ورفع أمرهم إلى دار السلطنة ولبث ينتظر الجواب فوصلت فى هذه الأثناء إحدى سفن الحرب الإنجليزية وعلم ربانها بما جرى فسير إلى العامل على مكة يطلب التعجيل بقتل أصحاب الفتنة وضرب له أجلاً أربعًا وعشرين ساعة فأعاد إليه الجواب لا أعمل عملاً حتى يأتينى أمر السلطان فلما مضى الأجل المضروب أطلق ربان السفينة قنابل مدافعه على المدينة تباعًا واشتد الرمى وتراسلت القنابل زهاء عشرين ساعة حتى كادت تدمرها ولا تبقى بها حجرًا على حجر ومات تحت الردم خلق كثير وبينما القنابل تتساقط من كل صوب وحدب إذ وصل إسماعيل باشا مبعوث السلطان ومعه طوائف الجند والعسكر العثمانى فكلم ربان السفينة الإنجليزية فى الكف عن رمى القنابل فأجابه إلى ذلك وأنزل من معه من العسكر وكذلك أنزل إسماعيل باشا عسكره إلى البر ورسم بقتل أصحاب الفتنة وزعماء الثورة فعلقوهم على الأخشاب وبالغوا فى التمثيل بهم فزالت الفتنة ولم يبق لها أثر.

وكانت هذه الدسائس وأشباهها موجبة لطيرة السلطان وتخوفه من جميع عماله ورجال مملكته وتحذره عند كل حادث فلما أعلموه بخبر مسالمة سعيد باشا لنابوليون ودسوا إليه أنه إنما يتودد إلى نابوليون ليكون له عونًا على الخروج والاستقلال بملك مصر خشى العاقبة والبلاد باب الحرمين وطريق الحج إلى بيت الله فبث العيون ليأتوا إليه بالأخبار وما زال حتى تحقق أنها فرية لحاجة فى النفس فأخلد إلى السكينة مع التحذر والالتفات وما زالت الأمور بينهما على ما يرام من التودد والصفاء حتى مرض السلطان ومات فى سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته ثلاثًا وعشرين سنة وستة أشهر وعمره أربعون سنة وأربعة عشر يومًا.

ومات فى أيامه بطرس بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان تقيًا ورعًا زاهدًا متقشفًا محبًا للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار يقضى يومه منكبًا على المطالعة ولا يجلس إلا على الأرض ولا يلبس إلا الصوف الخشن ولا ينام إلا على حصير من القش بعيد الغضب إذا تكلم فمع التأدب والحشمة ولا ينظر إلى وجه سامعه وكان قد استقدمه إبراهيم باشا إلى بيت المقدس على عهد حكمه على الشام فأكرم وفادته وأحسن لقاءه وبالغ فى تعظيمه ثم أعاده إلى القاهرة، قيل ولما احتضر سأله بعض كبار الأمة عمن يخلفه فى المنصب فرفع عينيه إلى السماء لحظة ثم أطرق وقال داود رئيس عزبة بوش فاستقدموه عاجلاً وكان قد كتب إليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن أحضر ولا تبطئ فإنى فى حاجة إليك، وكان لا يتعرض إلى أمر من أمور السياسة ولا يجتمع بأحد من ولاة الأمور وإذا سار فى الطريق أرخى على وجهه لثامًا أسود، مات فى ليلة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجرية ولم يصل داود إلى القاهرة إلا فى تاسع عشرى رمضان من السنة أى بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يومًا فقد كان رسوله إلى الرسا علىّ ملك ملوك الحبشة لفض الخلاف الذى كان بين الحبشة ودار البطريكية بخصوص الدير المعروف بدير السلطان الكائن بأرض بيت المقدس، وتحرير الخبر أن للقبط بأرض بيت المقدس ديرًا عظيمًا يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة القيامة وكانت تأوى إليه جماعة من الحبشان المتوطنين ببيت المقدس كسائر الأغراب الذين لا مأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع بين بعض أولئك الحبشان وبين رهبان ذلك الدير شقاق أدى إلى المخاصمة ثم إلى الملاكمة فلم يسع الرهبان إلا إخراج

أولئك الحبشان خارج الدير المذكور وسد أبوابه فى وجوههم فتحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم إلى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضًا وكأنه قد كبـر مصابهم على قنصل الإنجليـز ببيت المقدس فـتجرد للأخـذ بناصرهم وبالغ فى تعضيدهم لأمر لم تصل إلينا معرفته فقام أولئك الحبشان يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا إن الذى أنشأه هو أحـد ملوك الحبشة ولذلك يسمى بديـر السلطان وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منذ دخـول النصرانية بأرض مصر وإنما السلطان للحـبشان وقال القبط: غير ذلك وإن الذى بناه هو الأسعد أحد عظماء القبط فى خلافة محمد المهدى ثالث خلفاء بنى العـباس وقد كان الخليفة المشار إليـه أحسن إلى القبط بقطعة الأرض الواقع عليها بناء الدير المذكـور ورسم ببنائه على نفقته فسماه جـماعة القبط من يومئـذ دير السلطان إجلالاً للخليفـة المهدى وتعظيمًـا واشتد الخـلاف وتحرجت الأمور بين الفريقـين فأوعز قنصل الإنجليز ببيت المقدس إلى جماعة الحـبشان برفع ظلامتـهم إلى دار السلطنة العثمـانية فسـار نفر منهم إلى القسطنطينيـة ووردت كتب النجاشى فـى ذلك إلى بطرس البطرك فرسم بطرس إلى مطران بيت المـقدس بفض هذا الخلاف بالتى هى أحسن فبذل المطران الجهد فـى إقناع جماعة الحبشان فلم يفلح واستفحل الأمـر وتعذر الوئام وكبر التساهل على الفـريقين وقنصل الإنجليز لا يقف عند حد فلما أعيا بطرس البطريرك الحال وخـشى سوء المآل استقدم داود رئيس عزبة بوش التى هى مفتـاح دير أنطونيوس بالجبل الشرقى ورسم له بالذهاب إلى الحـبشة سفـيرًا إلى الرسـا على لفض الخلاف الواقع بسـبب ذلك الدير وكان لـداود المذكور إقبـال وحسن سياسـة فسار فى نفر والتـقى بالرسا على وكلمه فى الأمـر قال بعض الكُتاب: فلم يفلح لـسعاية قنصل الإنجليـز وطال مقامه على غـير طائل فجـاء إليه الطلب فى أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وستين فتقدم إلى النجاشى فى ذلك فلم يأذن له وعوّقه أيامًا آخـر ثم سرحه فوصل القاهرة فى تاسع عشـرى رمضان فكانت مدة لبثه عند النجاشى سنة وبضعة أشهـر وكان وصوله إلى القاهرة بعد موت بطرس كما تقدم القول فلاقـاه الناس بإحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطريكية ضـيفًا ولبث بها أيامًا على الرحب والسـعة ثم اجتمع كـبار الملة وأصحاب الرأى فيـهم وتشاوروا فى إقامة داود خلفًا لبطرس فاتفقت كلمتهم على ذلك وكان الأمر يومئذ إلى عباس باشا حلمى والى الديار المصرية فاجتمع جماعة من كبار الملة ورفعوا إلى عباس باشا رقعة بطلـب إقامـة داود مكـان بطـرس البطـرك، قـال أحـد كُتاب الأخبار فطاولهم وسأل

أصحاب الزايرجات عما يرونه فى إقامة داود بطركا فأرجفوا وهوّلوا وقالوا نكد ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وتمزيق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشدد فى السؤال فلم يروا فى حسابهم غير ذلك وكان من مقدمى دواوين الدولة يومئذ ديوانى اسمه جاد أفندى عونى وهو جاد شيحه فاستدعاه كتخدا الباشا وقال له أعلم جماعة القبط بأن لا سبيل إلى ولاية داود منصب البطريكية فإن أبوا إلا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القوم بما قاله كتخدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم وانقسموا فمنهم من قال: لا نختار غير داود ومنهم من طلب الأنبا يوساب أسقف إخميم وهؤلاء هم أنصار جاد أفندى ومنهم من اختار الأنبا اثنا سيوس أسقف أبى تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الخلاف وتفرقت الأهواء وكثر التحزب وتوالى الاجتماع فى الليل والنهار ولبثوا على هذه الحال أيامًا وجاد أفندى يغدو ويروح على كتخدا الباشا ليعلمه بأخبار كل يوم.

فلما كادت الحزمة تنصرم ونار الوحشة بين الأحزاب تضطرم قام أنصار داود ولجئوا إلى المستر ليدر أحد مرسلى جمعية التبشير الإنجليزية واستنجدوه فكلم قنصل الإنجليز فى ذلك والقنصل كلم عباس باشا فطاوله فألح عليه فمناه وطال الحال والناس يذهبون فى كل يوم إلى بيت القنصل ويسألونه التعجيل، واتفق أن قدم فى هذه الأثناء رسول من قبل نجاشى الحبشة ومعه كثير من التحف والهدايا النفيسة إلى عباس باشا وشئ من الذهب والفضة والمرجان والدواب والوحوش البرية وكتاب من النجاشى لم يصل إلينا علم مافيه فأنزلوه فى دار الضيافة فلم يمض على حضوره إلا أيام حتى شاع الخبر بأن القبط جميعًا كانوا على قدم الخروج وشق عصا الطاعة وأن داود إنما سار إلى النجاشى ليستنجده وكثر تحدث الناس في هذا الأمر فلما كان في أحد الأيام جاء إلى دار البطريكية رسول من قبل محافظ البلد ومعه جماعة من الكتاب والجند وجعلوا يسألون داود عن سبب ذهابه إلى النجاشى وما كان بينه وبين النجاشى من القيل والقال وعما هى رسالة بطرس البطريرك إلى النجاشى وظلوا على هذه الحال أيامًا ثم رسم عباس باشا يحمل داود إلى مجلس الأحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس فى كل يوم المرة والمرتين ويشددون عليه فى السؤال وهو مع ذلك ساكن القلب هادئ اللب لا ينطق عن الهوى فكبر أمره على عباس باشا وزادت كراهته للقبط فرسم بإخراج جميع مباشرى الدواوين من خدمة الدولة وكذلك سائر الكتاب فأخرجوهم وأقصى أصحاب الوجاهة منهم إلى سنار

ودارفور وبالغ فى تذليل من لم يمكن الاستغناء عنهم فكانوا لضيق الحال ونفاد ما بأيديهم يشترون المصالح الديوانية بالمناقصة وكثر ذهاب أنصار داود إلى بيت المستر ميرى قنصل جنرال الإنجليز يستفزونه إلى الأخذ بناصرهم وعباس باشا لا يزداد إلا إباءً وعنادًا ثم سير كتخدا الباشا يومًا فى طلب جاد أفندى ورسموا له بأن يختاروا آخر غير داود خلفًا لبطرس وأن يعجلوا فى ذلك كى لا يبقى لوساطة القنصل محل فقام جاد أفندى واجتمع من ساعته بجميع الأساقفة وأخبرهم بما يريده كتخدا الباشا وقال لهم اختاروا واحدًا من بينكم يكفينا مؤنة التطويل فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وذهب كل إلى مذهب ثم طال بينهم الكلام واشتد اللدد والخصام ففشا سرهم وانكشف خفىّ أمرهم وتفرقوا فى ليلتهم تلك على غير طائل وأصبحوا وقد اجتمعوا وبينهم جاد أفندى وتكلموا فى الأمر وبعد أخذ ورد اتفقت كلمتهم على مبايعة الأنبا يوساب أسقف إخميم وكتبوا عهدًا بذلك وتحالفوا على كتمان الخبر فلما كانت الليلة الأولى من رجب الفرد سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية اجتمع جميع الأساقفة بدار البطريكية فتبعتهم الغوغاء سرًا ومعهم صاحبهم يوساب وجاد أفندى ونفر من أقاربه وأغلقوا الأبواب وأقاموا الحجاب تحرسهم ورفعوا الصلاة وبينما هم على هذه الحال إذ برز أعمى من عرفان المكاتب اسمه ينى وجعل يطوف فى الأزقة والحارات المجاورة لدار البطريكية وينادى بأعلى صوته هبوا يا قوم فقد قضى الأمر اليوم يا قوم ها هم يبايعون الليلة أنبا يوساب فإن تغافلتم ندمتم وإن نشطتم غنمتم يا قوم قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة بادروا قبل الفوات هداكم الله هداكم الله، وما زال يكرر النداء ويكثر من الصياح والتطواف حتى استيقظ الناس وهبوا من نومهم وهم لا يدرون ما الخبر وهرعوا إلى دار البطريكية فتبعتهم الغوغاء واقتحموا الأبواب وعلت الضوضاء وكثر الصياح وهب جماعة من الحبشان كانوا نيامًا بدار البطريكية وسألوا عن الخبر فزينوا لهم إخراج الأساقفة من المسجد فذهب جماعة منهم وأتوا بالعصى والمساوق واقتحموا المكان الذى كان به جمع الأساقفة ورسول الباشا وهم لا يعرفون حقيقة الخبر فكسروا الأبواب وفرقوا شمل جميع الحجاب وصاحوا فى وجوه الأساقفة وأخرجوهم قسرًا فعلت أصوات العامة وكثر الصياح ووقع بينهم الهرج وطلب العامة رسول الباشا فكان كمن غمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء وظل جماعة الحبشان والناس يغدون ويروحون أمام دار البطريكية حتى مطلع الفجر فتفرقوا وانصرف جمعهم.

وقد بدأ التعصب يدب فى صدور الناس ولاحت لوائح الفتنة وظهرت علائم اليأس فذهب قنصل الإنجليز إلى عباس باشا وأخبره بما جرى وبالغ فى الأمر وهوّل فى سوء العاقبة وأشار إلى ما سيكون من وراء الإباءة والمنع فخاف عباس باشا ورسم بإقامة داود وكيلاً لدار البطريكية فرضى القنصل ورضى سائر القبط بذلك وقالوا أن أول الغيث قطر فلما كان خامس عشر رجب من السنة سير الباشا مرسومه بذلك فأقاموا الصلاة سرًا خوفًا من قيام جماعة الحبشان إذ كانوا لا يحبون داود ولا يرضونه بطركا فما كادت الصلاة تتم حتى برح الخفاء وشاع الخبر فاجتمع الحبشان بالمسجد فلحق بهم العامة وتبعهم أتباع المصلين واقتحموا الأبواب وبأيديهم العصى والمساوق وصاحوا فى وجوه المصلين وأكثروا من شتمهم وسبهم ثم تماسكوا بالأطواق ووقع الضرب واللكم وكثر الصياح وعلت الأصوات واشتدت الجلبة وتطايرت العمائم عن الرؤوس وتكسرت مصابيح المسجد وأطفئت الشموع فهرب الأساقفة واختفى داود وأصحابه ففتش عليه الحبشان فلم يعثروا عليه فانكفوا وسكنت الفتنة وقد كان لا يظن أنها تسكن وأصبحوا وقد اتفقت كلمتهم على إقامة داود خلفًا لبطرس فلما كان يوم الأحد التالى اجتمعوا بالكنيسة الكبرى وبايعوه جهارًا وسموه كيرولسا وولوه مطرانًا على كرسى مصر ووكيلاً للكرسى البطريكى فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ووقع الخلاف فتفرقت الكلمة وتحزبت الأحزاب وذهب كل إلى مذهب فى أمر كيرولس وكبرت الوحشة بينه وبين فريق منهم وقد كانوا هم مقدمى القوم وأصحاب الكلمة فيهم فحجروا عليه فى جميع تصرفاته ومنعوه من النظر فى شئون الملة واشتدوا عليه شدة بالغة فكان إذا أراد النوم لا يجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشا وإذا جاع لا يطعم إلا ما قدموه إليه وإذا زاره أحد فلا يأذنون له بلقائه وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألو جهدا فى تأليف القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة وما زال حتى أفلح فى ضم الكل إلى الكل فصاروا على الخير أعوانا وفى ذات الله إخوانا وطرحوا عنهم الخلاف وعادوا إلى الاستنجاد بقنصل جنرال الإنجليز على تولية كيرولس منصب البطريكية فأجابهم إلى ذلك وما زال بعباس باشا حتى رسم فى سلخ شعبان من السنة أى سنة سبعين ومائتين وألف هجرية بولايته.

فلما كان تاسع رمضان بايعه الأساقفة فى أبهة زائدة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وفرحوا بولايته ووفد عليه المهنئون من كل صوب وحدب ولم يمض على

ارتقائه منصب البطريكية أيام حتى مات عباس باشا فاعتقد الناس صحة ما قاله أصحاب الزايرجات وأحلوه محلا، ولما استقر بكيرولس المنصب جمع إليه القلوب المتنافرة واستمال الخواطر المتباعدة وأصلح ما أفسده التحاقد فمال الناس جميعا إليه وأخذوا بكلمته وساروا بمشورته فعمد إلى إخراج سليلة قدماء المصريين من حضيض الجهالة ومهاوى الرذالة إلى أوج المعارف والتمدن وصروح التعلم والتفنن فأنشأ لهم المدارس وأتى لها بكبار الأساتذة والمعلمين من الفرنسيس والإنجليز والإيطاليين وعلماء العربية وأكثر لها من المعدات والأدوات والكتب المرتبة وغير ذلك، وكان المشار إليهم فى تعليم الأطفال يومئذ جماعة من العميان يعرفون باسم العرفان وكان لهم منزلة عظيمة بين الناس وحرمة واسعة وكلمة مسموعة فلما أحسوا بما فعله كيرولس أدركوا ما وراءه من الخيبة وسد أبواب الرزق فى وجوههم فتجردوا إلى العداوة وإيقاظ الفتنة الراقدة وجعلوا يطوفون البيوت ويحضون آباء الأولاد وأمهاتهم على العصيان وشق عصا الطاعة ويقولون كيف تلقون أولادكم بأيديكم إلى التهلكة وصاحبكم كيرولس قد عاقد الدولة على أن يجند لها من أولادكم ألوفا لتدفع بهم إلى حيث لا يعلم إلا الله وكان إذا وصل إلى دار البطريكية شىء من الكتب أو معدات التعليم ولولوا وقالوا هذه البنادق وآلات الحرب وملابس الصيف وأحذية الشتاء تأتى على عجل وكان الناس كافة كما هو اليوم يكرهون الجندية ويخافون التجند خوفا ما عليه من مزيد فاعتقدوا صحة الخبر وأخذتهم الطيرة وكرهوا عمل كيرولس وتجردوا لمقاومته وجماعة العرفان لا ينكفون عن التطواف وحض الناس على مقاومته، أقول وقد كنت وإخوتى نتعلم العربية عند أحد أولئك العميان ولى من العمر يومئذ السابعة فبينما نحن يوما نرقب حضوره كالعادة إذ أقبل يهرول فى ثيابه ويده على كتف أحد الصبيان فقمنا إجلالا إليه وأقبلنا جميعا نقبل يديه فجلس ثم أخذ يتمايل تمايل الزق المفنوخ أو البوّ المسلوخ وأخرج علبة السعوط فحشا خياشيمه حشوا حتى تأوّه وعطس ثم مخط وسعل وتفل يمنة ويسرة وضرب الأرض بعصاه فطار عثيرها وتساقط على رؤسنا تساقط المطر وصاح لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال أف لكم وتعساً لوالديكم فلسوف تلقون غدا ما تلقون فقد استسلم آباؤكم إلى الترهات وزخرف القول فضلوا وألقوكم بأيديهم إلى التهلكة فبئس المصير بئس المصير ثم عاد فحشا خياشيمه بالسعوط وصاح اقرؤا ارفعوا أصواتكم ثم اشتد

به السعـال حتى كاد يغـمى عليه فلمـا أفاق قال ها هاهيـه أسمعنى صـوتك، كرر لوحتك، اسكت يابن النجار، أخسأ يـاشقى، اخرس ياشيطان، لا تعض أذن أخيك يابن الصائغ قم وأفرغ ما فى خياشيمك يابن يوسف صه ياأحدب ياأبا الرأسين يا أبا ذباب وما زال على هذا الحال من النداء والصيـاح والجلبة والسب والشتم ونحن فى جلبة وضجيج حتى نعس ونام واشـتد غطيطه ونحن كالحلقة حوله ندفع عنه الذباب ونطرد الكلاب الداخلة علينا من البـاب فلما سكنت قلوبنا بنومه أقـبلنا على معلمنا الذى كان يكتب لنا الألواح ويضفـر لنا زعف النخل فراشا نجلس عليه فسـألناه عما أصاب العـريف فى يومه فقال هـو بخير وعافـية ولكنه فى شاغل مما أتاه كـيرولس البطريرك فإنه على عـزم أن يجمع جميع أبنـاء الملة ويضعهم فى دار أنشأها بالقـبيلة وسماها (دار العلوم) وقد عين لدخول التلامذة فيها يوم كذا ونودى بذلك فى الناس اليوم بالكنيسـة الكبرى فدعونا وهذا الكلام وارفعوا أصـواتكم قبل أن يرفع العريف رأسه فعلت الأصوات واشتدت الجلبة.

وأحس كيـرولس بما وراء تطواف أولئك العمـيان من الفشل فـاستعـمل الحيلة وأحسن التدبير فجمعهم إليـه وطيب خواطرهم وأناط بهم التعاليم الابتدائية وأقرهم على ما بأيديهم وأفـرز لكل منهم محـلا بدار المدرسة الكبرى ورتب لهم الجـماكى والمرتبات وأخذ عليـهم العهود ومهد لهم طريـقا للتعليم وجعل لامتـحان تلامذتهم أياما معدودة فى كل ستة شهور فـمن وجد منهم ناجباً ضم إلى صفوف المدرسة فلم يمض على ذلك إلا القليل حتى دخل من هؤلاء فى صفـوف المدرسة نيف وتسعون تلمـيذا ومائة ممـن كانوا خارجـا وظهرت عليـهم علامـات النجابة ودلائـل الفلاح فتكلموا بالإنجليزية والأفرنسية والإيطالية والقبطية وجودوا العربية وتعلموا منها النحو والصرف والبديع والبيان ونبغوا ونجحوا نجـاحا عظيما ثم أنشأ بعد ذلك مدرسة ثانية بالخطة المعروفة بحـارة السقايين فكان شديد الولع بها وكـان فى نهاية كل سنة يولم الولائم العظيمـة ويدعو كبار القـوم والوجهاء والعلماء لامـتحان التلامـذة ثم يفرق الجوائز من نياشين الذهب والفضة ونفيس الكتب ويمد الموائد الفاخرة وكان إذا سمع من أحد التلامذة كلمة وأعجبه وضعهـا أو استكبرها على قائلها لصغره وعدم بلوغه حد النقد فرح به فرحا عظيما واستعادها مرارا وأخبر بها كل من يراه فى يومه فيقول سمعت اليوم فـلان ابن فلان يقول كيت وكيت فسرنى جداً إدراكـه وتحقق لي نجاحه إن شاء الله، ووجه عنايـته إلى ترميم المعابد وإعـادة ما تخرب منها فـأعادها إلى ما كانت عليـه وأنشأ بالخطة المعروفـة بحارة السقـايين كنيسة وقـد كان إلى ذلك الحين

يصعب جداً إنشاء الكنائس تمسكا بالعهد القديم والسنة المتبعة عند أولياء الأمور وأصحاب الكلمة من أمناء الدين وأنشأ أيضاً الكنيسة الكبرى بالقبيلة على نظام أشهر الكنائس ولم يتم بناؤها وأنشأ دارا للطباعة وسماها باسمه وسلم أمر تدبيرها لجماعة من أبناء المدارس فأحسنوه وأتقنوا صنعة الطباعة فطبعوا فيها كثيرا من الكتب الدينية وكتب التاريخ والآداب وجمع من خزائن الديارات والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها في دار مخصوصة قد أعدها لذلك وقد تبددت بموته ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة بالخلط والتحريف فصححوا ما فيها وضبطوا عباراتها فجاءت على أحسن ما يرام ورتب الطقس الإكليريكى وهذب الزى الشماسى فجاء حسنا مقبولاً جارياً إلى يومنا الذى نحن فيه وأحيا اللغة القبطية بعد مواتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة الكبرى بلندن عاصمة الإنجليز فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت إلى آخر أيامه من أهم اللغات التى تتكلم بها أبناء المدارس، وكان ميالا إلى تعليم البنات وتهذيبهن إلى جد يكن فيه معينات لأزواجهن ومربيات لأولادهن فصادف من المقاومة فى ذلك أشكالا ولكنه كان مع ذلك يتحين الفرص ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه ومات قبل أن ينال إربه من ذلك.

ووقع بينه وبين محمد سعيد باشا من الوحشة والنفور بسبب ما رماه به الإنجليز من سعيه وراء الخروج عن طاعة الدولة وجعله الكنيسة القبطية تحت حماية الدولة الروسية كما تقدم بيان هذا كله فى محله ما أوجب تخوفه وانكماشه وعدم اجتماعه بأحد من رجال الدولة وكأنه كان يخشى وقوع أمر يتهدده ولكن.

ولا يمنعنك الطير شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما كنت لاقيا

وطالت أيام عزلته ورسل القيصر تعوده كل قليل وتخابره فى أمر الكنيستين القبطية والروسية وعندى أنها حقيقة لا يصح إنكارها فقد كانت من أعظم رغائب كيرولس وهو أكثر الناس تعلقا بها وأشدهم تمسكا بأهدابها وقد بذل فى الوصول إليها النفيس وتقرب ممن أشاروا عليه بذلك جهد الاستطاعة واستمالهم فأعانوه وصار اتحاد الكنيستين أدنى من قاب قوسين بل أمرا مقضيا، فلما كان فى أحد الأيام جاء إليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه إلى الديوان لأمر لا يتم إلا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف عنه الرسول بالتى هى أحسن فعاد إليه ثانية وثالثة فلم ير بدًا من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى شديدة فلازم الفراش من ساعته واشتدت به الحمى شدة بالغة فأتوا إليه بطبيب

فعرف العلة وأشار بالدواء فلم يأته حتى أتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ فى علاجه وما زال يعالجه أياما وقد اشتدت علته وعظم الداء وفقد الرشد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات ليلة من سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية ودفن بتربته التى ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى بالقبيلة ودفن معه حظ القبط جميعا وحظ بنيهم من بعدهم وحزن الناس عليه حزنا عظيما فكانت مدته خمس سنين إلا أياماً رحمه الله رحمة واسعة.

قلت وهو داود بن توماس بن بشوت بن داود ولد سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية بقرية اسمها نجع أبوزقالى من قسم صومعة شغلاق بإقليم إخميم بصعيد مصر وأقام مع أبويه بهذه القريبة إلى أن ناهز الخامسة والعشرين وكان رحمه الله عفوفا تقيا ورعا محباً للفقراء حسن النية سليم الطوية ميالا إلى العزلة والانفراد شديد الرغبة فى معرفة أخبار الصالحين مولعا بأهل العلم آوى إليه كثيرا من أهل الفضل من جماعة القسيسين والرهبان وانكب على تلقى العلوم الدينية ثم تاقت نفسه إلى الرهبنة والتجهد وهم بالرحيل عن وطنه فمنعه من ذلك أبواه ثم جعل يراقب الفرص حتى خرج هاربا فى عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية إلى دير أنطونيوس الأعلى بالجبل الشرقى ولبس مسح الرهبانية وأقام سبع سنين فكان محبوباً موقرا يشار إليه فى المهمات، فلما كانت سنة خمس وخمسين ارتقى إلى رتبة القسيسية فزادت منزلته وعلت كلمته ومالت إليه القلوب وأحبه الناس وفى سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة استقدمه بطرس البطرك وولاه الوكالة على الأحباس والأوقاف فدبر أمورها وأحسن تدبيرها وأكمل نظامها وعرفه الناس فمالوا إليه وتقربوا منه فرأوه شهما حازما واسع الدراية يقظا نشيطا وقورا حسن السياسة ميالا إلى تعميم المعارف وتوسيع نطاق التمدن شديد الرغبة فى إحياء ما اندرس من معالم مدنية الأمة القبطية والارتقاء بها إلى درجات الرفعة والتقدم، وفى أخريات سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية ولاه بطرس البطرك الرياسة على دير أنطونيوس الأعلى فأحسن التدبير ورتب الأمور على أحسن ما يرام وشدد فى ملازمة حدود الرهبانية فافتتن فى أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى ولبثت أياماً حتى تمكن من إخماد نارها وبقى رئيسا تسع سنين أولها سنة سبع وخمسين وآخرها سنة ست وستين ثم استقدمه بطرس وسير به إلى الحبشة رسولا إلى النجاشى كما تقدم القول

وكان رحمه الله عظيم التجهد يتظاهر بحسن الملبس وهو لا يلبس على جسده إلا أخشن الوبر يظهر الاعتناء بعظائم الأمور وهو غاية فى العفة والتقشف حليم بعيد الغضب شديد على جماعة الرهبان لا يبيح لهم ترك الجبل والاختلاط بالناس كريم النفس أبيها رزين خبير بالأمور وبموته خلا الكرسى زهاء سبع سنين كان يدبر الأمر فيها مرقس مطران البحيرة ثم قام بعده ديمتريوس سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية وهو الحادى عشر بعد المائة واسمه مخائيل وكان رئيسا على دير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى.

(الفصل الثالث والعشرون)

(فى خلافة السلطان عبد العزيز

ابن السلطان محمود خان)

ثم قام بالأمر بعد موت السلطان عبد المجيد أخوه السلطان عبدالعزيز خان ابن السلطان محمود خان بويع له بالملك يوم موت أخيه سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية وأتت بذلك الأخبار إلى القاهرة فزينت المدينة ودقت البشائر وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وورد إلى محمد سعيد باشا فرمان الرضا فقرىء فى ديوان الغورى بقلعة الجبل ولما استقبرت به السلطنة نظر إلى أمور الدولة من أبوابها وأجهد النفس فى ترتيبها وقد كانت الحروب القائمة عليها أمحلتها وأذهبت رونقها وبهجتها حتى كاد العدوّ ينشب أظفاره فى جوفها فبالغ فى إصلاح ما أفسدته الأيام وعزز جانبها وجند لها الجند الكثير وأنشأ مراكب الحرب وسفن الطراد وحصن الحصون والقلاع بأنواع الأسلحة الثقيلة فعلت كلمته وكبرت فى أعين الخصوم هيبته وتقرب منه الإسكندر الثانى قيصر الروس وتحبب إليه وسالمه وأخذ بقوله وعمل بمشورته حتى كاد ينفضح ما كان بينهما من السر المكتوم وخاف الإنجليز شر ذلك وأحسوا بما وراءه من تنكيس أعلامهم فى قلب آسية وداخل أبواب هندهم فبذلوا النفيس وتقربوا

إلى مشايخ قبائل ذلك الصقع وأعملوا الدسائس فى دار السلطنة ببذل المال وإعطاء العطايا العظيمة وما زالوا يميلون بأبناء البلاد يمنة ويسرة حتى نالوا منهم وأسسوا عصابة باسم تركية الفتاة وأمدوها بالمال فنمت وعظمت وكثر عددها وانضم إليها الكثير من فحول الكتاب وأصحاب التحرير والخطباء والقوّالين فكتبوا وألفوا وصنفوا وقالوا فى الخليفة السلطان عبد العزيز ما قال مالك فى الخمر ورموه بالمروق عن الدين ووسموه بموالاة الروس أعداء المسلمين وأكثروا من التقريع والوقيعة بعالى باشا الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وأهل الحل والعقد من رجال الدولة وبلغت بهؤلاء القوم القحة إلى حد كانت رسائلهم المشحونة بالسب والشتم وفحش القول تلقى فى مخادع الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقد وصلوا إلى معرفة أخبار دار السلطان وأسرار كافة بيوت أهل الحل والعقد واشتدوا عليهم شدة بالغة وكان لهذه العصابة أصول وفروع بين عاصمة الفرنسيس وعاصمة الإنجليز ودار السلطنة العثمانية فخافها السلطان وعمل على تنكيلها فلم ينجح له عمل ولم ينل منها أربا لاستفحال أمرها واتساع كلمتها حتى كان من أمرها بعد ذلك ما سيتلى عليك فى محله، ولم يقع بين السلطان ومحمد سعيد باشا من المودة والإخلاص ما كان يظن وقوعه بعد موت السلطان عبد المجيد فقد كانت الوحشة لم تزل قائمة ما بين محمد سعيد باشا ورجال الدولة وأركان السلطنة لا سيما الصدر الأعظم عالى باشا فكان كل من الطرفين على حذر والتفات دائم وكان سعيد باشا أبعد جميع الولاة عن موالاة السلطان وأقربهم إلى بغض رجاله وأكبرهم حقدا وشماتة ومع ذلك لم تتمكن رجال الدولة من استغلاطه ولا مؤاخذته بأمر من الأمور السياسية لا فى الداخل ولا فى الخارج ولا هبت للفتنة بسبب ذلك نار فى جميع أيامه لاشتغالهم عنه بالكثير من الكوائن والمحن الداخلية فكان فى مأمن من كيدهم وفى حرز من شرهم يعطيهم من طرف اللسان حلاوة، ومات فى أيام محمد سعيد باشا الأمير أحمد أكبر أولاد إبراهيم باشا بن محمد على باشا مات غريقا فى النيل بين كفر الزيات وكفر العيس بإقليم الغربية فى يوم عيد أضحى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف هجرية وذلك أنه لما كان سعيد باشا بالإسكندرية وقد دخل عيد الأضحى استقدم جميع أصحاب الوظائف العالية من الملكين والجنديين وعمد وأعيان سائر المدن وجميع الأمراء من ذرية محمد على باشا لعمل تشريف العيد بمقره بالإسكندرية فعمل التشريف فى ذلك على نسق لم يسبق له مثال ثم نزلوا يريدون الرجوع إلى القاهرة. وكان جسر

كفر الزيات الحديدى الموصل لخط السكة الحديد بما بين الإسكندرية والقاهرة لم يتم بناؤه إلى ذلك الحين وقد جعلوا لنقل عربات الركاب والبضائع والوابورات جسرا متحركا على ظهر سفينة تسير فى النيل بالبخار فكان إذا وصل المسافرون إلى كفر العيس من الإسكندرية وقف القطار هناك فيأتون بذلك الجسر ويوقفونه ملتحما بضفة النيل ويدفعون على ظهره عددا معلوما من العربات ويقيدون عجلاتها بسلاسل الحديد فيسير بها الجسر ويعبر النيل عرضا إلى أن يرسو ملتحما بالجانب الثانى فيدفعون بما عليه من العربات بمن فيها من المسافرين إلى الخط الحديدى الموصل إلى القاهرة أو بالعكس إلى الإسكندرية وكان ممن ركب فى قطار ذلك اليوم يريد الرجوع إلى القاهرة الأمير أحمد بن إبراهيم باشا والأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وبعض الباشاوات مثل أدهم باشا وغيرهم ونزل أيضاً الأمير إسماعيل وأخوه الأمير مصطفى فاضل أخوا الأمير أحمد ولكنهما عادا فنزلا من القطار قبل أن يسير من الإسكندرية بإيعاز من أحد رجال ديوان سعيد باشا فلما وصل القطار إلى كفر العيس ودفعوا بعدد من عربات المسافرين إلى ظهر ذلك الجسر وقد كان فى إحداها الأمير أحمد والأمير عبد الحليم وغيرهما من الباشاوات قيل إنهم لم يقيدوا عجلات العربات كعادتهم بل وتركوها خلوا وأتوا بغيرها من خلفها فلطمت الأولى فتحركت واندفعت إلى الأمام فسقطت جميعها فى النيل وغرقت وكان الأمير أحمد شابا جميلا قوى الجسم ضخما كبير البطن فلم يتمكن من الخلاص فمات غريقا أما الأمير عبد الحليم فإنه لما سقطت العربة ألقى بنفسه من نافذتها إلى البحر فعاونه بعض أصحاب السفن التى كانت هناك وأخرجوه حيًا ومات أدهم باشا وجميع من كانوا بالعربة مع الأمير أحمد فكان المنظر مروّعا والمشهد محزنا وقد كثر صياح العامة وولولت النساء وانتشرت مماليك الأمير أحمد وأتباعه على وجه الماء يطلبون جثته وأتوا بجماعة من صيادى السمك فألقوا شباكهم وما زالوا حتى عثروا عليها وأخرجوها وأخرجوا من عثروا به أيضًا من بقية الأموات وجاءوا به إلى القاهرة وغسلوه فى بيته الذى بجانب القصر العالى ثم دفنوه فى ثانى يوم فى مشهد حافل للغاية وتحدث الناس كثيراً فى أمر موته فقالوا أنه أغرق بأمر من سعيد باشا كى لا يتولى ملك البلاد بعده لأمر نقمه عليه ولكى تنتقل الوراثة بموته إلى أخيه الأمير إسماعيل، قلت وقد حدثنى أحد مماليك الأمير أحمد قال جاء الأمر من سعيد باشا إلى مولاى الأمير وهو بالقاهرة بشخوصه إلى الإسكندرية للحضور فى تشريف عيد

أضحى سنة ثمان وسبعين فقمنا فى صبح يوم الوقفة بعرفات ووصلنا إلى الإسكندرية قبل المساء بقليل وبتنا ليلتنا تلك والأمير ساكن البال رائق الحال وأصبحنا وقد دعانى فدخلت عليه فرأيت الدمع يذرف من عينيه فقلت أصلح الله حال مولاى ما باله يبكى وقد كنا بالأمس على أحسن ما يكون من السرور وصفاء البال قال رأيت البارحة فى نومى كأنى وإياك على شرافة هذا المنزل نريد الاختفاء من وجه سعيد باشا وقد أرسل فى طلبنا جماعة من العبيد السود فما وقع بصرهم علينا حتى هجموا علىّ هجمة الأسود الضوارى وأخذوا جميعاً بيدى ورجلى وألقوا بى فى تيار النيل فقمت مذعورا من نومى وتعوذت بالله ونمت فجاءنى هاتف يقول هلا أوصيت على العيال قلت ولماذا قال قد أتت المنية فلا مفرّ فقمت مذعورا وتعوذت بالله ولبثت باهتا ساعة حتى غلب على النوم فنمت فإذا بشخص فى زى الفقراء وعلى كتفه شبكة صياد قد اقترب منى وقال قم ياأحمد فقلت ومن أنت؟ يرحمك الله قال رسول ملك الموت فقمت باكيا من ساعتى كما ترى، قال: فقلت يامولاى هذه أضغاث أحلام وقد أتعبك البارحة السفر فلا تظن الظنون الفاسدة وقم فقد حل وقت عمل التشريف فقام ولبس كسوة التشريف وركب وهو فى قلق واضطراب وركبت معه فكان كلما مررنا بقولق من قولقات العسكر قاموا إجلالا وتعظيما ونفخوا فى البوق فيبكى ويذرف الدمع فلما انقضت ساعة التشريف قال لابد من السفر الساعة فقلت يامولاى أرحم نفسك ودعنا نبيت الليلة هنا فقال لا بل نسير إلى القاهرة عسى الله يفرج كربتى فركبنا القطار وركب معنا جميع الأمراء من ذرية محمد على باشا فلم يكن بأسرع من أن دخل أحد رجال ديوان سعيد باشا وهمس فى أذن الأمير إسمعيل فالتفت إلى أحد أتباعه وقال أنزلوا متاعى فقد عدلت عن السفر فقال له أخوه الأمير مصطفى فاضل إن كان ولابد من بقائك اليوم فإنى مرافقك ونزلا معا وتركانا فسار بنا القطار حتى وصلنا إلى كفر العيس وكان من أمر غرقنا ما سارت بذكره الركبان وعرفه القاصى والدان فالله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . اهـ.

قلت ولم تطل ولاية سعيد باشا بعد هذا الحادث فأنه مات سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى تاسع عشر يناير سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية، قال بعض الكتاب من الغربيين: لما ثقل المرض بسعيد باشا واشتدت علته وجاء خبر ذلك إلى الأمير إسمعيل وهو بالقاهرة سير إلى الإسكندرية أحد المقربين إليه من جماعة الفرنسيس واسمه ديرفيو ليرسل إليه بأخبار سعيد باشا

فى كل يوم ومناه بالأمانى الكثيرة والعطاء الجـزيل إن هو بعث إليه بخبر وفاته فلبث دير فيور بـالإسكندرية أياما يرسل فيهـا الأخبار إلى الأميـر إسمعيل باشا فـلما كان صباح تاسع عشر يناير أرسل إليه يقول أعـدّوا البيت فقد عزم الساكن على الرحيل، يشيـر بذلك إلى قرب مفـارقة سعيـد باشا لهذه الدار الدنيـا وتأهب إسمعـيل باشا للدخول فيـها، فلما جاءه هذا الخبـر فرح به كثيراً ولبث ينـتظر ما سيكون من وراء ذلك حتى جاءه الخبر بموته فسير إلى الإسكندرية من يجهزه ويدفنه هناك وكان جميع أرباب الديوان الخاص قـد حضـروا إلى القاهرة ولم يبق منهم بالإسكنـدرية إلا نفر قليل مع محـمد شريف باشا الذى لم يفـارقه طرفة عين قـيل وكان سعيـد باشا قد أوصى بأن يدفنوه فى القاهرة وقيل فى الإسكندرية فحزن عليـه الناس كثيراً لا سيما أهل الإسكندرية وأقـامت النساء عليـه المناحـات بشوارع المدينة فكان يوم دفنه يـوما مشـهودا وكانت ولايته زهاء تسـع سنين وقيل ثمان سنين وتسـعة أشهر وسـتة أيام وعمره اثنتين وأربعـين سنة رحمه الله تعالى برحمته الواسـعة وأسكن روحه فردوس جنانه.

(مطلب)

(ولاية إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا)

بويع فى اليوم الذى مات فيه محمد سـعيد باشا وهو يوم السبت سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية الأمـير إسمعيل باشا بن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا بايعه فى قلعـة الجبل أرباب الدولة وأهل الحل والعقد والعلماء والوجهاء ودقت البـشائر وطيروا الخبر إلى الآفـاق وزينت جميع المدن والبنادر ثلاث ليال وأقيـمت الأفراح والولائم وبولغ فى ذلك مبالغـة زائدة جداً وفرقت والدته فى ذلك اليوم من الهدايا والتعابى النفيسة إلى أرباب الدولة والعلماء والمشايخ شيئاً كثيرا وأقامت الأدعية فى المساجد أياماً ورسمت بتـرميم بعض أضرحة الأولياء والصالحين من مالها تفاؤلا واستزادة للنعمة فلمـا استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان عمد إلى تغيير الكثـير من عادات البلاد والأحداثات المتبـعة وتصرف فى الأمور ونظر فى ترتيب موارد الإيرادات نظرة الراغب فى المزيد فضبط الخـراج وعدل العشر وأحدث بعض المكوس والمغارم ورتب لذلك طوائف الجباة والعمـال والقباض والرقباء وتقرب كثيرا من رجال السلطنة وأهل المابين واتخذ له من كـبارهم أخلاء يعتمد عليهم فى

عظائم الأمور وأجزل عطاءهم فمهدوا له العقبات وذللوا له الصعاب وفتحوا له من الآمال والأماني أوسع الأبواب وحببوا إلى السلطان زيارة مصر وزينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار فمال إلى ذلك ووردت الأخبار بعزمه على الحضور في نفر من خواصه وحشمه وأتباعه فبالغ إسماعيل باشا في الاستعداد لقدومه وأنفق النفقة الواسعة في إعداد معدات الولائم ولوازم الأفراح من مأكول ومشروب ومفروش وملبوس واهتم لذلك اهتماما عظيما.

(مطلب)

مجيء السلطان عبد العزيز إلى ديار مصر

فلما كان رابع عشر شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية وصل السلطان إلى مدينة الإسكندرية على باخرة عظيمة يخفرها الأسطول العثماني الحربي وفريق من العسكر وكان في انتظاره في الإسكندرية إسماعيل باشا وجميع رجال الدولة وأرباب الوظائف العالية فقوبل في أبهة واحتفال لم يسبق لهما مثال للملك من ملوك المشرق والمغرب وسار في شوارع المدينة والذهب ينثر بين يديه وكان في ركابه مراد أفندي وعبد الحميد أفندي ابنا السلطان عبد المجيد خان ورشاد أفندي ويوسف عز الدين أفندي والوزير محمد باشا والوزير فؤاد باشا ثم قام من الإسكندرية إلى القاهرة على قطار مخصوص وكانت الناس على جانبي الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة فلما دخل إليها قوبل بأحسن ما قوبل به في الإسكندرية وشق من وسط المدينة فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وصاحوا نصر الله مولانا السلطان وطلع إلى قلعة الجبل وقد أعدوا له مقرا بها فزينوه بأنواع الحرائر والمقصبات وأفخر وسائل الزينة ودقت له البشائر وزينت مصر والقاهرة سبعة أيام وأقيم له الدعاء بالمساجد كافة وكبروا لحضوره على مآذن مصر والقاهرة وبعد أيام نزل لزيارة المساجد فزار المشهد الحسيني والزينبي والنفيسي وغيرها فكان إذا مر بالناس وقفوا صفوفاً إجلالاً وتعظيما فينظر إليهم يمنة ويسرة نظرة لطيفة وهي كناية عن السلام في عرف سلاطين آل عثمان وكان العامة والسوقة إذا رأوه صاحوا الفاتحة لمولانا السلطان فينظر إليهم كأنه يحييهم فيكثر صياحهم وتشتد جلبتهم وهي حالة لم يرها السلطان في بلاده فإنه إذا مر بالناس يوم خروجه للصلاة مثلا أو في أيام المواكب أطرقوا بأبصارهم إلى الأرض وتخشعوا ولم يرتفع لأحد منهم صوت.

وتصدق السلطان وأكثر العطاء وفرق على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم بالجامع الأزهر وعلى أصحاب التكايا وخدام المساجد وبعض الأضرحة ولم يره من أصحاب الوظائف إلا القليل، وكان إذا ركب سارت خلف عربته الجنائب السلطانية وطائفة الحرس السلطانى بالعمائم البيض والبرانس الحرير الأبيض وفى أيديهم القرابينات على شكل جميل للغاية ولبث بالقاهرة أياماً ثم سار إلى الإسكندرية وركب منها إلى دار السلطنة وتبعه الأسطول الحربى والسفن التى تحمل التحف والهدايا فكانت أيامه بديار مصر كلها أفراحا وولائم عند العامة ومن لا خلاق لهم، وأما خيار الناس فقد كانوا يخشون عاقبة مجيئه إلى مصر وقد أخذتهم الطيرة إذ لم يسبق لأحد من سلاطين آل عثمان بعد السلطان سليم الفاتح دخول أرض مصر وكبر خوفهم وقدأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات فترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فلما كانت سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف هجرية مع أخريات سنة ثمانين ظهر الوباء فى البقر واشتد وعم جميع البلاد شرقا وغربا ولم يترك قرية ولا كفرا إلا ودخله واشتد شدة بالغة حتى كاد يفنى جميع البقر وقل وارد السمن من جميع البلاد بل وانقطع وأكل الناس الدهن والزيت فأمر إسمعيل باشا فاستحضروا من البلاد الأجنبية كالنمسا والمجر ونواحى الأناضول السمن وهو فى غاية الرداءة والنتن وباعه على أهل البلاد وفرق منه على الفقراء مجانا فكانوا يتزاحمون على الوكائل ومخازن التوزيع بالأخطاط وهم فى ضجيج وجلبة تصم الآذان واستمر الحال هكذا أياماً كثيرة حتى ارتفع الوباء وبدأ الوارد من سمن الجاموس والضأن يرد إلى القاهرة ومصر من الجهات القبلية ولم يكد ينقضى هذا الوباء حتى وقع الغلاء وارتفعت الأسعار وانقطع وارد القمح واشتد الطلب فلم يجد الفقراء له أثرا لا فى سواحل بولاق ولا فى مصر القديمة ولا فى جميع رقع الغلال فضجوا وعجوا وكثر طواف النساء فى الأسواق يحملن المقاطف لعلهن يجدن من يبيعهن قمحا أو دقيقا وعلم إسمعيل باشا بما عليه الناس من الضر فهاله الأمر وأزعجه ورسم بجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجية فأتوا له بشىء كثير منهما وفرقوه فى الوكايل وجهات الرقع ورتبوا للبيع وقتين فى الصباح والمساء ونادوا فى الناس بذلك ففرحوا وتزاحموا على أبواب الوكائل وجهات الرقع تزاحم الجياع واستمروا على هذا الحال شهرين وبضعة أيام حتى تواردت الغلال من الأقاليم القبلية وملأت مخازن التجار وأشوان الدولة وعم الوارد منها الأقاليم البحرية فلم تكن لتسكن الخواطر وتطمئن القلوب

حتى ظهر الوباء فى الناس ثانى عشر المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية واشتد الموات شدة بالغة بالقاهرة ومصر القديمة ثم عم جميع البلاد شرقا وغربا فكانت الفقراء تموت بجانب جدران البيوت وفى الأزقة والحارات وأصحاب الشرطة يطوفون لنقل الجثث إلى المقابر وبالغ محافظ المدينة فى نظافتها فلم يرتفع الوباء واستمر على شدته إلى رابع عشرى ربيع الثانى فمات خلق كثير ثم ارتفع وقد نزح الكثير من الأجانب وأهل البلاد إلى الديار الخارجية فرارا من الموت وخلط الناس وخبطوا وقالوا أن هذه الكوائن إنما هى ناجمة عن دخول السلطان إلى مصر إذ لم يسبق لذلك مثيل منذ فتحها السلطان سليم بعسكره واشتد خوفهم وأخذتهم الطيرة وتشاءموا من حاكم الوقت وخشوا عواقب أيامه وأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات والمنجمين كعادتهم عند وقوع الشدائد وضجوا وعجوا وابتهلوا إلى الله تعالى وتوجهوا إليه بقلوبهم وقد أحصوا من مات فكان زهاء المائة ألف نسمة.

وما انقطع الوباء وسكنت الخواطر حتى جعل إسماعيل باشا يتصرف في أمور الدولة بحب هواه أو ما يلائم مصلحة البلاد فنقض ما أبرمه سعيد باشا مع ديلسبس فاتح ترعة السويس ورسم بعدم تسخير أهل البلاد فى حفر ذلك الاتصال كما كان المعينين سعيد باشا وديلسبس واستعان إسماعيل باشا على إبطال هذا الحدث بالسلطان فكتب إلى الباب العالى يقول:

إن عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه فى عمل قد أضر بالحرث والنسل وأذهب براحة أهل البلاد وأوعز إلى أصحاب صحف الأخبار المصرية فهبت يومها تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة إلى إبطال هذا العمل والأخذ بالأسباب لدفع ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد وكان إلى هذا الحين لم يصدر السلطان البراءة وعمل ذات الاتصال بعد أن سار دى لسبس إلى دار السلطنة وأقام بها أياما كثيرة وكاتب الصدر الأعظم فى ذلك مرارا فكتب عالى باشا إلى سفير الدولة العثمانية بعاصمة الفرنسيس في شأن ذلك يقول: غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثير أنفس أوقاتها فى بحث أمر عمل الاتصال المراد عمله ما بين البحر الأبيض المتوسط والأحمر ومع كونها تودّ من صميم القلب انجاز هذا المشروع الخطير والعمل على الاتحاد مع الدولتين البحريتين العظيمتين لعلمها بأهمية وخطارة هذا الاتصال إلا الورود على الباب العالى فى هذا الحين مطالعة من والى الديار المصرية يطلب فيها تأييد أمير المؤمنين فى هذا الأمر ويحزننى جداً أن

أرى أنه قد بدىء وكاد أن يتم عمل الاتصال قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الأمور بين الباب العالى والدول المتحالفة ويعز على أيضاً إيقاف العمل الآن وتعطيل مشروع كهذا جزيل الفائدة كبير القيمة على أنى مع ذلك أقول أنه لا يمكن للدولة العلية على أىّ حال كان الموافقة على عمل هذا الاتصال إلا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالى على جعله حرا مستقلا تحت حكومة البلاد التى هو فيها بمثابة بوغاز البوسفور والدردنيل فى دار السلطنة العثمانية وقد تكلفت تلك البلاد أعنى البلاد المصرية بتشغيل زهاء عشرين ألفا من جراء هذا الاتصال عونة وسخرة مع سبق النشر والإعلان بإبطال هذه العادة الخشنة وإبطال العدل والشرف ومما يحول دون اعتراف الباب العالى بتتميم عمل ذلك الاتصال فقد تم عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والموسيو دى لسبس صاحب ذلك المشروع بعد محمد سعيد باشا الموسيو المشار إليه بتنازل حكومة البلاد له عن منفعة بيع الأراضي التى تكون واقعة على ضفتى الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة ولم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع والبقاع ومدينة بورسعيد وسائر حدود الشام أى معظم المملكة المصرية فى حوزة وتصرف شركة ترعة السويس وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة أمير المؤمنين وهو أمر لا تحمد عواقبه ولا أخالكم تنكرون علىّ القول بأنه ما من حكومة رزقها الله حسن النظرّ فى عواقب الأمور ولو بقدر مثقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ استقلالها وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيتها ترضى بمثل هذه الشروط المفعمة جورا وخذلانا لرعاياها الطائعين ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان بعث محمد سعيد باشا بصورة منها إلى الباب العالى وهو يعلم حرسه الله ما وراء ذلك من تعيير سائر الأمم لحكومته ورميها بالقصور والمروق عن جادة الحق فإن أجازه فإنما يجيزه بعد قبول هاته الخصال الثلاث:

الأولى منها: جعل هذا الاتصال مستقلا تحت رعاية الحكومة المصرية وعدم منح أية دولة كانت امتيازات أو حقوق خصوصية فى أى حال من الأحوال.

الثانية: رفع نير السخرة من أعناق أهل البلاد.

الثالثة: العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل وأن لا يعطى شىء من الأراضى لشركة هذا الاتصال إلا ما كان لازما لإنشاء معاملها وورشها فقط.

فإذا تم قبول هاته الخصال الثلاث جاز العمل بالاتفاق مع والى الديار وسهل التصديق على بقية الشروط المدوّنة بالعقد، فالذى نسألكم إياه الآن هو أخذ رأى

الدولتين المتحالفتين أعنى بهما دولتى الفرنسيس والإنجليز عما يليق عمله الآن أيليق منح شركة حفر هذا الاتصال عدة امتيازات وحقوق لا يكون من ورائها إلا هضم حقوق رعايا الدولة العلية وإذهاب ثروة البلاد واضمحلالها وضياع كثير مما نالته من شبه استقلالها وهل يوافق أنه إذا لم يتم التراضى بيننا تأخذ حكومة أمير المؤمنين على عهدتها بالاتفاق مع عاملها على ديار مصر انجاز عمل هذا الاتصال وأن تنفق عليه من مالها أو تسلمه لشركة أخرى بشروط وعهود يقع الاتفاق عليها بحيث لا يبقى للشركة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفقته إذ كان اندفاعها إلى العمل بغير إجازة ولا مسوّغ أفيدوا الجواب، ووردت الأخبار بهذا المعنى إلى إسمعيل باشا من الباب العالى فسر بها سرورا عظيما وكتب إلى الموسيو دى لسبس يقول:

لا يليق بنا أن نخفى عليك معرفة أنه لما كان من الخلاف فى أمر عمل اتصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر قد كنا خابرنا دار السلطنة العلية فى ذلك وسألنا الباب العالى أن يفتينا فى الأمر فجاءنا منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخابرة مع شركة الاتصال المذكور والاتفاق معها على جميع التغيرات المراد إدخالها على عقد التنازل الموقع عليه مع المرحوم محمد سعيد باشا وإبطال ما فيها مما كان سببا لحصول الإباءة وعدم قبوله لغاية الآن، ولا إخالك تجهل إنى مذ وليت الأحكام إلى هذا الحين لم يكن عندى من المشاغل شيء يعادل هذه المسئلة وكان الذى لم يقبله الباب العالى وهو يمانع فيه للآن كل الممانعة أمرين الأول تسخير أهل البلاد فى ذلك العمل والثانى تنازل الحكومة عن منفعة الأراضى الواقعة على شاطىء الاتصال المذكور فلأجل أن لا يزداد الأمر إشكالاً والأحوال بيننا جدالاً قد رسمت إلى نوبار باشا بحل عقدة هذه المسئلة بالاتحاد معك ومع أعضاء الشركة وإنى لواثق بأنك تبادر إلى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامة النية كى لا يقع بسبب ذلك فى مستقبل الأيام ما لا تحمد عقباه وقد ضرب لنا الباب العالى أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر فإن مضى الأجل ولم نتفق على أمر يحسن السكوت عليه لم يعد إذ ذاك فى وسعى أن أعيد الكلام مع دار السلطنة فتدخل المسئلة فى دور جديد مع الباب العالى ويعز الوفاق ومعاذ الله أن نصل إلى هذا الحد، وسترون أن الذى رسمته إلى نوبار باشا ليخابرك عنه لم أراع فيه سوى راحة الرعية ورفع المضار عنهم مع إنجاز مشروعكم على النمط المرغوب هذا وقد جاءنى مرسوم أمير المؤمنين بأن أبادر إلى تبليغ مقره الكريم حالة ما هو عليه الاتصال المذكور من العمق والطول والعرض

المراد جعله حسابا لذلك الاتصال وأن يلاحظ بأن لا يكون الاتصال المذكور قليلاً السير السفن الحربية فإن أمير المؤمنين حرسه الله لا شيء أحب إليه من المحافظة على السلم واجتناب جميع المشاكل مع سائر الدول . اهـ.

فاجتمع نوبار باشا بعد أيام مع الموسيو ديلسبس وسأله الموافقة على تقليل عدد العاملين فى حفر ذلك الاتصال من أهل البلاد من عشرين ألفا إلى ستة آلاف ونفقة فرنكين أى سبعة قروش وثلاثون فضة لكل واحد يوميا والتنازل عن جميع الأراضى المتنازع فيها وقيام الحكومة بجميع المصاريف التى أنفقتها الشركة إلى تاريخ عقد هذا الأتفاق مع قيامها أيضاً بجميع نفقة الترعة المراد إنشاؤها من النيل إلى جوار الاتصال فطال بين الفريقين الأخذ والرد واشتد الجدال وكاد يتعذر الوفاق وينفض اجتماعهم على غير طائل فرفع إسماعيل باشا الأمر إلى نابوليون أمبراطور الفرنسيس وتقرب منه وتزلف إليه وأقام الوسطاء والشفعاء فأشار نابوليون بوجوب تقرب الفريقين وإصلاح ذات البين وأقام لذلك عمدة من خمسة من كبار السياسة وأصحاب الشريعة بعاصمة الفرنسيس ورسم لهم بالتخفيف وحسم أسباب النزاع بالتى هى أحسن فتم الوفاق على ما شاءه إسماعيل باشا وقام برد النفقة التى أنفقت على جميع الأراضي التى كانت الشركة تتنازع فيها وبنفقة الترعة الحلوة التى أنشئت ممتدة من النيل فكان ما أنفق على ذلك دون غيره عشرة آلاف ألف من الفرنكات أى سبعة وثلاثين ألف ألف وخمسمائة ألف قرش وورد فرمان السلطان فى ثانى عشر القعدة سنة اثنتين وثمانين وألف هجرية بقبول كل ما وقع الاتفاق عليه وارتفعت السخرة عن أهل البلاد وزالت عنهم تلك المحنة وحسبت مكرمة إلى إسماعيل باشا على مر الأيام.

(مطلب)

تولية إسماعيل باشا مصر دون ذرية محمد باشا

وكان إسماعيل باشا قد سبر غور رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة بعد أن تم له ما أراد فى أمر اتصال ترعة السويس ولما كان شديد الرغبة من يوم توليه مسند الولاية فى نزع حقوق الوراثة المحصورة فى ذرية محمد على باشا بمقتضى الفرمان السلطانى المؤرخ فى شهر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف وجعلها فى عقبه من بعده أى فى الأرشد من ولده وفى عقب ولده، قال بعض أهل التحقيق: وقد كانت رغبته فى ذلك مترتبة على سببين أولهما بغضه الشديد لأخيه الأمير مصطفى فاضل المستحق للولاية من بعده وثانيهما حرمان الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا من الولاية بعد الأمير مصطفى فاضل فسعى فى دار

السلطنة وأنفق الأموال الطائلة وأجزل العطاء لأرباب الدولة وتزلف إلى أصحاب الحل والعقد ورجال المابين وهادى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ثم جعل يدبر على أخيه وعمه ويكيد لهما ورفع القصص إلى الباب العالى يشكو من أفاعيل عزاها إليهما وقال أنهما كادا له وعملا على قتله وكان أخوه قد نزل فى جوار السلطان وعمه باق بالقاهرة فضيق على عمه وشدد وأرهب وتوعد فانكمش عمه بمقره بشبرا بضواحى القاهرة وانزوى عن الناس فزاد فى التضييق عليه وأقصى عنه حاشيته والمتقربين إليه ومزق أتباعه وضبط أكثر أرزاقه وحبس غلاته وبالغ فى نكايته حتى أخرجه مدحوراً إلى دار السلطنة فنزل على أصحاب المابين مستجيرا فلم يمدوا له يدا قد بسطوها إلى عمه فأقام يراقب الفرص لعل الله يأتيه بالفرج القريب وما زال إسماعيل باشا يكثر السعى ويجهد النفس ويبذل النفيس حتى مال السلطان إلى طلبه وحقق أمنيته ورسم فى ثالث عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بجعل حكومة البلاد وراثية تنتقل من إسماعيل باشا إلى أكبر أولاده ثم للأرشد من عقب ولده وجاء الفرمان بذلك إلى القاهرة ففرح إسماعيل باشا فرحا لا يوصف ودقت البشائر وعملت الولائم والمآدب وأكثر رجال الدولة من عمل الأفراح وتصدقت والدة إسماعيل باشا وأطعمت وفرقت الهدايا على المشايخ والعلماء وكست أولاد المكاتب واليتامى وقد أدرك الباب العالى بعد قليل من الأيام أنه لم يحدد فى فرمانه الخطة الواجب إتباعها عندما يكون الوارث لكرسى الحكومة المصرية قاصرا أى لم يبلغ سن الثامنة عشرة وعلم أن فى إغفال ذلك تعقيدا وإشكالا فسير فى ثانى صفر من السنة إلى مصر رسولا ومعه فرمان آخر بما ذكر فلما وصل القاهرة قوبل باحتفال عظيم فاستغرب الناس يومئذ حضوره وكثرت الأقوال فى شأنه وترامت الظنون إلى المرمى البعيد وما زالوا على هذا الحال حتى شاع الخبر بما فى ذلك الفرمان وتناقلته أصحاب صحف الأخبار على اختلافها.

وبدأت من هذا الحين تعلو كلمة إسماعيل باشا وقد زال عنه ما كان يلاقيه من متاعب شركة ترعة السويس ونقل الوراثة إلى عقبه من بعده وتبعيد أخيه الأمير مصطفى فاضل وعمه الأمير عبد الحليم وتمكن من مخانق رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة فاشتدت عزيمته ومالت نفسه إلى التشبه بكبار الملوك وأصحاب الحكومات الدستورية لما فى ذلك من استرضاء الناقمين من كبار الدول الأوروباوية فرسم فى شعبان من السنة أى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية

بتشكيل مجلس شورى للبلاد على نسق ورتب مجالس الأمم المتمدنة والحكومات الدستورية المقيدة وبالغ فى الأمر وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فقاموا وقعدوا وشادوا بذكر تلك المجلس وقالوا هو من مقدمات الإصلاح ومبادىء الفلاح وانتقال البلاد من دور الخراب والهمجية إلى دور العمران والمدنية (قال بعض الكتاب) ولم يكن فى الأمر شيء من ذلك البتة فأنه ما تم اجتماع أعضائه وجعلوا ينظرون فى مصالح البلاد حتى زادت الضرائب وكثرت المكوس وتعددت أنواع المغارم وانبث أصحاب الجباية شرقا وغربا واشتدوا على الرعية شدة بالغة ونواب الأمة لا يعرفون من مواجب النيابة غير الطاعة لمن قال من كبار الحكومة أو أشار من أصحاب الحل والعقد فكانوا حملا ثقيلا على عاتق أهل البلد وسدا قويا بين القادحين من أهل النقد وبين أصحاب الحل والعقد فنهض عند ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية إلى الطعن وتجردوا إلى التعييب ورموا نواب الأمة بالجهل والمروق وشخصوا أوقات اجتماعهم بهيآت مضحكة حاكوا فيها الملاعب الخيالية والأشكال السخرية وحذروا أهل البلاد من شر العاقبة وخوّفوهم من سوء المصير ولايضعف هذا كله لإسماعيل باشا عزما ولا وقف به عند حد لمكانته عند رجال السلطنة وأصحاب الكلمة فى المابين وكان كلما زاد أصحاب صحف الأخبار فى التقريع والتعييب زاد هو أيضاً فى التقرب إلى رجال السلطنة وأجزل لهم العطاء وأهدى لهم الهدايا والتحف العظيمة فيقضون له كل ما فى نفسه، واشتدت رغبته فى التسمى باسم لم يسم به أحد ممن تولى حكم البلاد قبله فسأل السلطان أن يلقبه بعزيز مصر وأن يرسل له خطا فطوعه بذلك السلطان ومناه فكثرت رسائله إلى أصحاب الباب ثم أهدى وفرق فجاء الخبر بأن السلطان قد لقبه بلقب خديو وهو أكبر مراتب الدولة وأرفعها ولم يسبق لأحد نوال مثلها من الوزراء وكبار القوم فإن لقب عزيز مصر إنما هو دون لقب خديو إذ كان يوسف بن يعقوب عليهما السلام عزيز مصر أى وزيرها والأمين على خزائنها ففرح بهذه البشرى وشاع خبرها بين الناس فلما كان خامس ربيع الأول من السنة جاء فرمان السلطان بذلك على يدى أحد القرناء السلطانية فقرىء فى محفل حافل للغاية ودقت البشائر وطيروا الأخبار إلى الآفاق ودعوا للسلطان فى جميع المساجد بالقاهرة ومصر والأقاليم القبلية والبحرية وانطلقت كلمة الخديو إسماعيل من هذا الحين بعد التقييد واتسعت وحل له فعل ما لم يحل من قبل من عقد العهود مع الممالك الأجنبية والقروض مع أصحاب الأموال بلا استئذان من الباب وضرب الضرائب وتعديل

المكوس وفعل كل ما يختار من غير معاودة ولم يمض على ذلك إلا اليسير حتى مالت به النفس إلى الاستزادة وتاقت لها الاستقلال بملك الديار المصرية فعمد إلى تنظيم الجند والإكثار من معدات الحرب وحصنت الحصون وأنشأ القلاع العظيمة بثغر دمياط ورشيد وأبى قير ومعامل البارود والفشنك والبنادق والمكاحل وملابس الجند والخيام وسروج الخيل وغير ذلك وأرسل يشترى الكثير من البنادق الجديدة المستعملة فى جيوش الدول الكبرى واستقدم جماعة من كبار جند الأمريكان وأركان الحرب والمهندسين لتعليم العسكر وتدريبهم على النسق المستعمل فى جيوش الممالك الأجنبية وأكثر من التزلف إلى نابوليون أمبراطور الفرنسيس وهو يومئذ صاحب الكلمة والقول الفصل بين كبار الملوك ليستعين به عند الحاجة وأدنى منه دى لسبس فاتح خليج السويس ليكون رسوله فى المهمات وجعل يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلم تخف أعماله على رجال دار السلطنة وعلم السلطان بما فى نيته فكبر عليه أمر ذلك واستعظمه ورسم إلى عالى باشا الصدر الأعظم بمراقبة الحوادث وعدم التهاون فى شىء وكان صفاء الود الذى بين الخديو والصدر المشار إليه قد تكدر لأسباب لم تصل إلينا معرفتها فاشتد الصدر على الخديو وبعث العيون إلى مصر وجعل يراقب الحوادث ويسأل عن الصغيرة والكبيرة ويحاسب على الذرة والبرة.

واتفق فى هذا الحين أن قدم إلى دار السلطنة داعى نابوليون أمبراطور الفرنسيس يدعو السلطان إلى الوليمة المزمع أعمالها فى عاصمة الفرنسيس عند فتح المعرض الذى أقيم فيها وقد دعا إليه الأمبراطور كثيرا من الملوك والأمراء والخديو إسمعيل فسار الخديو من الإسكندرية فى سابع صفر ووصل السلطان إلى باريز في تاسع عشرة فقوبل باحتفال واحتفاء عظيمين وأقام بها زهاء شهر ونصف وكان معه بعض رجال الدولة وجماعة من المابين فكلمه الأمبراطور في أمر الخلاف الواقع بين الباب العالي والخديو وهوّن عليه الأمر وما زال به حتى استرضاه فعفا السلطان عما سلف وأدنى الخديو منه ولاطفه ثم عاد السلطان إلى دار الخلافة فى سادس ربيع الثانى سنة أربع وثمانين ومائتين وألف هجرية وأقام الخديو أياماً فعرفه من حضر إلى باريز من الملوك وأولاد الملوك والأمراء والكبراء وتقرب من الكثير منهم وتزلف إليهم وبالغ فى التظاهر بمظاهر كبار الملوك فاتفق وأهدى وأجزل العطاء وحبب إليهم الحضور إلى مصر عند عمل الأفراح لفتح خليج السويس فمنهم من أجاب إلى ذلك ومنهم من وعد ثم عاد إلى الإسكندرية وأقام بها أياما يدبر أمر ضيافة أولئك الملوك والكبراء

فرأى أن مصر ليس فيها من محال اللعب والـلهو ما فى أصغر بلاد الفرنجة كمراسح التشخيـص ومواقف المغانى وغير ذلك مما لم تسمع به أهل البـلاد ولم تره فعاد إلى القاهرة ورسم إلى بعض المقربين إليه من الأجانب بإنشاء مرسحين على نفقة الخزينة فأقام أحـدهمـا على بقايا بناء السراى المعـروفة بسراى ثلاثة وليه وهى مـنزل أحمد طاهر باشا بن طـاهر باشا الكبيـر وسموه باسم الكومـيديا والثـانى على يسار الأول وسموه باسم (الأوبرا) وبالغوا فى تزيينهما بأنواع الفرش والبسط والطنافس والتحف والنقوش البديعة وأتوا إليهما من الديار الأوروباوية بجمـاعة المشخصين والمشخصات والمغنين والمغنيات وأساتـذة هذا الفن وعملوا لهم من الملبوس والحلى الفاخرة شـيئاً يكاد أن لا يدخل تحت الحـصر ورتبـوا لهم الجماكـى والمرتبات الواسعـة ورسم إلى شركة ترعـة السويس بأن تنشىء على نفقة الخـزينة أيضاً دارا فى مدينة الإسمـاعيلية لضيافة الزائرين من أولئك الملوك والأمراء والكبراء فأنشأتها فكان ما انفق عليها زهاء ثمانين ألـفا ذهبا، فلمـا حل الأجل المضروب لإقـامة تلك الأفـراح والولائم وكان الاتصال بين البحـرين الأبيض والأحمر قد تم وجرى الماء بينهما مـختلطا وهو كاف لحمـل البواخر والـسفن التى تشق عـبابه سـير الخـديو رسله إلى الديار الأوروباوية يدعون ملوكهـا وأمراءها إلى تلك الأفراح فلقوا من جـميعهم الرضـا وقد أخذ فى الأهبة والاستعداد ورسم بخـروج سائر عمد وأعيان البلاد القبلية والبـحرية بخيامهم وطبولهم وزمورهم وخيلهم ومـأكولهم ومشروبهم فخيموا بمدينة الإسـماعيلية وهى إحدى المدن التى أنشئت على شاطىء الترعة على قيد بعض فراسخ من قرية العباسية وأمر فجمـعوا سائر المغنين والمغنيات وأرباب الملاعب على اختـلاف أنواعها وعملوا الزينة على أشكال مـتنوعـة يعـجز اللسـان والقلم عن وصـفهـا ورتبـوا الحرّاقـات والأشكال النارية ووضـعوا الرايات الخـاصة بممـلكة كل ملك وأميـر دعى إلى هذه الأفراح وجـاءت إلى مدينة الإسـماعيليـة طوائف العساكـر والأجناد بالمدافع وآلات الحرب الكاملة وكثـير من الزوارق والسفن الصغيرة المـزينة بأحسن الزينة وتقاطرت إليها الذبائح من الضأن وشباب البقر وفحول الجاموس والغزلان والمعزى ومن الطيور على اختلافـها وتراكمت أحمال المأكول والمشـروب بحالة يقصر عن وصفـها اللسان والقلم.

وبينما كانت الاستعدادات لهذه الأفراح والولائم قائمة على ساق كان على باشا الصدر الأعظم يخابر الدول الكبـرى فى أمر تعدى الخديو على حقـوق أمير المؤمنين

واستصغاره لواجبات التابعيــة وأنه إذا كانت ديار مصر من أملاك الخلافة كالقلب من الإنسان فكيف ساغ للخـديو أن يتولى أمرا من أهم الأمور وأكبرها بغـير إجازة وأنه ليس من الكياسة ولا من حسن السياسة فى شيء أن تذهب الضيـوف إلى دار أمير المؤمنين وهو غير عالم بأسباب الضيافة ولا قائم بواجباتها مع أنه أحرص الناس على حفظ كرامة مملكته وشرف كرسى سلطنته وعدم تعريض حقوقه الذاتية للضياع، قال بعض كتـاب الأخبار: وكان قـد بلغ الباب العالى أن الخديو إنما يريد بـهذه الأفراح واستدعـاء ملوك الدول وكبار المـمالك لبس شعار السلطنة على ديار مـصر والخروج من تابعية السلطان فهال السلطان هذا الأمـر وأزعجه جداً ورسم إلى الصدر الأعظم بمداركة الخطب قبل استفحاله وشدد فى ذلك فكلم الصدر الأعظم كبار ساسة الدول وما زال بهم حتى أحجم بعض الملوك عن الذهاب وبعـضهم أناب عنه ولى عهده أو أحد قرابتـه وانفشلوا أو كادوا ولاحت بشائر الظفر للصـدر الأعظم فكبر الأمر على الخديو واستعظمه وشكى حاله إلى نابوليون واستنجده فكلم نابوليون الصدر الأعظم فى ذلك وشدد وهدد وما زال الأمر بين أخذ ورد أياماً حتى تقررت القاعدة على أن كل من شاء من المـلوك والأمراء إجابة دعـوة الخديو وجب عليـه أن يعرج على دار الخلافة قبل ذهابه إلى مـصر ويزور الخليفة السلطان بصفته صـاحب الدعوة ثم يسير إلى مصر بعد ذلك على الرحب والسعـة وأن للخليفة أن ينيب عنه من شاء فى هذه الولائم لتـفتح مراسـم التهانى بـاسمه الشـاهانى وترفع لمن حـضر واجبـات الشكر وحقوق الضيافة فأناب السـلطان عنه مبعوث دولة الإنجليز وزوده بما شاء مما لم تصل إلينا معرفته.

فلما كـان ثانى شعبان سنة ست وثمـانين ومائتين وألف هجرية قـدم الوافدون تتقدمهم أوچنيـه أمبراطورة الفرنسيس وأمبراطور النمسـا والمجر مع ولى عهده وولى عهد ملك إيطاليا وكثير من الأمراء والكبراء وولى عهد البروسيا فباتوا ليلة فى مدينة بورسعـيد بين مظاهر الأنس والسرور وأصـبحوا وقد ركـبوا السفن ومـعهم طوائف الحرس والخدم والحـشم وأكابر ممالكهم ونزلوا الإسماعيليـة وقد تكامل عددهم ولم يتأخر منهم سوى مبعوث الإنجليز النائب عن الخليفة أمير المؤمنين فباتوا ليلتهم ورأوا من إتقان نظام الوليمة وحـسن ترتيبها ما لم يجر على مـثال سابق وكانت الموائد تمد تباعا فى الخيام والصواوين والسفن والأمـاكن التى أعدت لذلك والمدعوّون يتعاقبون عليها فـوجا بعد فوج واستـمر الحال على ذلك زهاء أربع عشرة سـاعة، قال بعض كتاب الأخـبار، فأعجب الملوك ذلك جدا بل أدهـشهم وجعلهم فى حيرة وأصـبحوا

رابع عشر شعبان وقد اجتمعوا جميعا فى مجلس أعد لهم وبينهم أوچنيه أمبراطورة الفرنسيس وكبير وزراء مملكتها ورئيس أركان حرب الجيوش الأفرنسية فقامت فيهم الخطباء والفصحاء فخطبوا وتكلموا وأطنبوا وبالغوا فى الإطراء ولم يتم الخطيب كلامه حتى وقف فى وسطهم مبعوث الإنجليز وقد كان لا يظن وصوله فى هذا الحين فختم الخطيب خطابه بالثناء على الخديوى وامتدح من حسن لقائه وكرم أخلاقه فصاح رسول الإنجليز بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين صاحب البيت وما فيه فتبعه من حضر بالدعاء جهارا فأطلقت السفن مدافعها تباعا وأطلقت كذلك مدافع البر وهتف الجند بأصوات التهليل والدعاء وصدحت الموسيقى من كل صوب وحدب وعلا الصياح واشتد التهليل ودقت العمد والأعيان والمشايخ وأرباب الطرق طبولهم وهتفوا جميعا بالدعاء ومرت السفن بالخليج تباعاً بعضها آت من البحر الأبيض المتوسط وبعضها من البحر الأحمر وهى مزينة بصنوف الرايات وأشكال الزينة ورست أمام مدينة الإسماعيلية بعضها خلف بعض وجندها وملاحوها يهتفون بالدعاء على أعالى الصوارى وما زالوا على هذه الحال حتى تم عبورها فكان مشهدا من أعجب المشاهد وأحسنها لا يمكن وصفه ولا استيفاء محاسن ما فيه وقد كان ما أنفق من مال الخزينة على هذه الولائم والأفراح ما قدره ألفا ألف ذهبا ما عدا الهدايا والتقادم النفيسة التى أهداها الخديو من ماله وهى كثيرة جداً، ورجع من حضر من الملوك والأمراء ولم يبق إلا أوچنيه أمبراطورة الفرنسيس ومن معها من الحشم والأتباع وبعض الأمراء لمشاهدة الآثار القديمة بمصر وصعيدها فبالغ الخديو فى إكرامها ولازم ركابها حيثما سارت وجعل الأمير حسين ثانى أولاده فى خدمتها وطاف معها الخديو جميع ضواحى القاهرة ومصر مثل المطرية وطرا والأهرام وسقارة وغيرها على ظهور الحمير وأراها جميع العادات المصرية فى المأكول والملبوس وفى الأعراس والولائم وفى تمشيط العروس وجلوتها وتخطيرها وغير ذلك بأن زوّج بعض حظياته إلى بعض رجال ديوانه الخاص وعمل لهن الأعراس على أحسن ما يكون من الأبهة والعظمة الشرقية ثم سارت أوچنيه من القاهرة تريد الصعيد فسار الأمير حسين فى ركابها وخصص الخديو لخدمتها ستة عشرة باخرة تمخر فى النيل صعودا وهبوطا فكان بعضها لحمل الحشم والأتباع وبعضها لجلب المأكل والمشرب فى كل يوم من القاهرة وقضت بالصعيد اثنين وعشرين يوما صرف فيها من الأموال شيئاً كثيراً ثم عادت ولبثت بالقاهرة أياماً قلائل ثم سارت راجعة إلى عاصمة الفرنسيس ومعها من التحف والهدايا الفاخرة والأعلاق الثمينة ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ويجل عن الوصف.

ولما فرغ الخديو من ولائم ترعة السويس وأفراحها عاد إلى التفكر فى أمر توسيع دائرة خديويته بين مصر والسودان والحبشة وخط الاستواء فسير الإرساليات العلمية والعسكرية إلى جوف السودان والحبشة لتخطيط الطرق واستكشاف أحوال البلاد ومواقعها وعوائد أهلها وأميالهم وغير ذلك واهتم بتحسين فرضتى سواكن ومصوّع الواقعتين على ساحل القلزم وقد كان تقدم إلى السلطان فى ضمهما إلى خديوية مصر مع بعض بلاد الصومال التابعة للسلطنة العثمانية فى مقابلة زيادة الخراج المقرر دفعه كل سنة إلى الخزينة السلطانية وإبلاغه إلى سبعمائة وخمسين ألفا من الجنيهات فأعطاه إياها السلطان فحصن سواكن ببعض القلاع الخفيفة وأقام بها المرابطين من العسكر المصرى وفعل كذلك بمصوّع ثم تأهبت عساكره وشنت الغارة على غير ما أخذه من بلاد الصومال واستولى على عدة بلدان منها وسير جيشا عظيما إلى جوف السوذان والدارفور وخط الاستواء ففتح الكثير من بلدانها واستولى على عدة مدائن وأراض واسعة وعاثت جنوده فى تلك الأصقاع وأعملت فيمن عصاها السيف ففتكت ونهبت وأسرت وأهلكت الحرث والنسل فهابهم أهل السودان وخشوا بأسهم واستسلموا لهم كارهين فأقام عليهم الحكام من أهل القوّة والبأس وبث بينهم جباة الأموال من أهل الخشونة والقوّة ووكل بهم ذوى الطمع والجشع وجعل تلك البلاد الآهلة بالإنسان والحيوان والضرع والزرع منفى لأصحاب الجرائم وأهل الشقاوة وضرب عليهم العمال والولاة الضرائب الفادحة وفرضوا الفرض والمكوس الجائرة واشتدوا على طوائف التجار منهم والنخاسين وخصوهم بالمغارم والفرض وأذلوهم بالمصادرة والتشريد عند أصغر سبب أو أقل تقصير، وكان ممن سيرهم إلى جوف بلاد الحبشان لمعرفة أحوالها والتقرب من بعض كبار رجالها رجاء الغنم رجل نمساوى الأصل اسمه مشنجر فتغلغل مشنجر هذا فيها وغاب خبره حينًا ثم عاد حاملاً شيئًا من محاصيل البلاد وزين للخديو التغلب عليها وضمها إلى مملكته وقد كانت الفتنة يومئذ قائمة بين ملوكها وأمرائها والخلل ضارب فيها أطنابه قيل وأقسم مشنجر للخديو بأغلظ الأيمان أنه يملكها ويدوّخها بنفر من العسكر المصرى وشئ من النفقة فأعجب الخديو رأيه ومال إليه وما زال مشنجر يتردد على أبواب الخديو حتى ولاه المحافظة على فرضة مصوع التى هى مفتاح أرض الحبشان البحرى وأعطاه رتبة البيكوية فسار مشنجر إليها واستقرّ بها وجعل يدبر فى فتح البلاد وقرّب إليه بعض مشايخ السواحل واستمالهم بالرشاوى والبراطيل ودفع بهم إلى دس الدسائس

وإيقاظ الفتنة ما استطاعوا ولبث على هذا الحال حينًا ثم استقدمه الخديو إلى القاهرة وعوّقه أيامًا ثم أعاده وأنفذ إليه جيشًا خفيفًا معقودًا لواؤه إلى أرندروب بيك الأمريكانى أحد مقدمى الحرب الذين أتى بهم الخديو للخدمة فى الجيش المصرى ورسمَ له بالزحف على البلاد وفتحها وأقام مكانه فى المحافظة على مصوع أراكيل بيك وهو شاب أرمنى المحتد لابأس به فخرج مئسنجر بالعسكر من مصوع فى يوم مشؤم الطالع وسار نحو بلاد الحبشة سيرًا بطيئًا وجعل يستميل فى طريقه مشايخ القبائل الضاربة فى الطرق والمسالك وقرّب منه شيخ قبيلة الحماسيين وبالغ فى التودد إليه ومناه بالأمانى الكثيرة فلازم الشيخ ركابه خديعة ومكرًا وسار معه وهو على قدم السمع والطاعة ومئسنجر يظن بلوغ الغاية والفرح ملء فؤاده وسير إلى أراكيل بيك يعلمه بالخبر فكتب أراكيل إلى الخديو يبشره بذلك، وتاقت نفس أراكيل إلى الخروج والغزو مع مئسنجر ليشاطره النصر ويشاركه فى الغنم فسار عن مصوع ولحق بالحملة وساروا جميعًا وعيون النجاشى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم ويسارهم وهم لا يشعرون فلما بلغوا بلدة (جندت) نزلوا بها ونصبوا خيامهم وأوقدوا نيرانهم ليبيتوا ليلتهم وكان مع مئسنجر فى هذه الغزوة امرأته وأولاده وبناته وبعض الخدم والأتباع كأنهم ذاهبون إلى عرس أو وليمة أعدت لهم على الرحب والسعة فبينما هم نيام على فراش الاطمئنان إذ دب عليهم جماعة الحبشان فى منتصف الليل الآخر وأحاطوا بالخيام إحاطة السوار بالمعصم ودخلت جماعة أخرى فى وسط الخيام وأعملوا فى العسكر السيف فهب العسكر من نومهم مذعورين واختلطوا بالحبشان فلم تمكنهم الحبشان من الدفاع وأثخنوا فيهم قتلاً وطعنًا حتى أفنوهم أو كادوا ودخلوا على مئسنجر فى سرداقه فذبحوه مع امرأته وأولاده وبناته ذبح الشاة وذبحوا جميع حاشيته وأتباعه وقتلوا أراكيل بيك شر قتلة وكان شابًا جميلاً حسن الشمائل عاقلاً ذكيًا مولعًا بالمعالى وقتلوا كذلك أرندروب وأصبحوا ودماء القتلى تجرى بين الخيام جريان الماء وأخذوا جميع ما وجدوه من سلاح ومؤن وذخيرة وخيام ودواب للحمل ورجعوا ظافرين غانمين.

وعاد من بقى من العسكر إلى مصوع فى أسوأ حال من العرى والجوع وكلهم مثخن بالجراح وأخبروا بما جرى فسيروا بالخبر إلى الخديو فهاله وأزعجه، قال بعض الكُتاب: وأقسم بالأيمان الغلاظ أن لا ترجع عساكره عن أرض الحبشان وفيها ديار أو نفاخَ نار ورسم إلى راتب باشا أحد مقدمى العساكر وسردارها يومئذ بتجنيد الجند

وإعـداد المعـدات وشـدد وبالغ فى ذلك وكـان قـد عـاد فى هـذه الأثناء من الديار الأورباوية الأمير حسن ثالث أولاد الخديو وقـد تعلم الفنون الحربية وخدم فى عسكر الإنجليز وعسكر الألمان حينًا.

فلما كـان شوال من سنة اثنتـين وتسعين ومـائتين وألف رسم الخـديو بخروج العساكر والأجـناد وتسييرهم إلى مصوع فـسار أولا عثمان رفقى باشـا أحد مقدمى العسكر من الشراكسة على رأس ألايين إلى مصـوع ونزل بها أيامًا ثم لحقهم الجيش كله فى ذى القعدة من السنة فى ثالث عشرة ولبثوا بها جميعًا زهاء أربعين يومًا حتى تكامل وصول مؤنتهم ودواب حملهم وذخـيرتهم وآلات حربهم ووصل أيضًا الأمير حسن ومن معـه من أركان حربه ومقدّمهم الجـنرال لورنج الأمريكانى المعروف بأبى ذراع لبتـر ذراعه الأيسر ثم بعد أن رتبـوا أمورهم وأصلحوا حـالهم وتأهبوا للزحف سار فى مقـدّمتهم عثمان رفـقى باشا بمن معه من العسـكر إلى المحلة المعروفة باسم (بعرزه) وهى تبعد مسيرة يوم للمجدّ المسافر ويومين للراكب البطئ وسار بقية الجيش بسلاحه ومتاعه ودواب حمله عن مصوع فى يوم الاثنين سابع عشرى ذى الحجة من السنة فلم تغرب عليـهم شمس ذلك اليوم حتى نزلوا على بلدة (ينعض) فـباتوا بها ليلتهم وأصبحوا سائرين على أحسن ما يكون من الهيئة والترتيب فبلغوا (بعرزه) بعد الزوال بقليل فأنزلوا بها أحمالهم يوم الأربعاء وباتوا ليلة الخميس وفى الصباح الذى هو أول المحرم افـتتـاح سنة ثلاث وتسعـين ساروا إلى (عـدرسه) فنزلوا عليـها فى غروب اليوم وباتوا بها ليلتهم وأصبحـوا يريدون بلدة (قيح خور) التى يقال لها أيضًا (قيا خور) وباتوا بها ثم أصبحوا سـائرين نحو (قرع) فبلغوها فى ضحوة يوم السبت ثالث المحرم المذكور وقيـاخور وقرع كلاهما من حدود مملكة الحبـشان فرسم السردار إلى أركان حـربه بتهيـئة مكان لنزول العـسكر فأنزلوهم غربـىّ البلد ودقوا خيـامهم ورتبوا دوابهم وحفروا الخنادق وأقاموا الاستحكامات الخفيفة وأنشئوا قلعة على ذلك الاستـحكام على أحسن مـا يكون من الوضع والنظام وخندقـوا حولها خنـدقًا على أعظم ما يكون من العمق وسموا هذه القلعـة بالقلعة الجديدة وقد مهدوا الطريق من مصوع إلى قـياخور وأزالوا ما يتـخلله من العقبات وحـفروا به بعض الآبار للإرتواء وانبث جماعة منهم بين الحبشان لشراء الشعير لمؤنة الدواب والدقيق والعسل فاشتروا من ذلك شيئًا كثيرًا وآخرون لاستراق سمع الأخبار عن النجاشى يوحنا ومن معه من العساكر والأجناد وقـد سار عن (عدوة) تخت مملكته يريد الإلتقاء بالعـساكر المصرية

والقتال معهم وما زال ينتقل بخيله ورجله من بلد إلى بلد حتى وصل إلى ناحيتين يقال لأحداهما (دنبه) والأخرى (لمزه) وهما يبعدان عن المعسكر المصرى زهاء ست ساعات فتربص هناك، وجعل الأمير حسن يراسل كبار الحبشان وأمراءهم ويستميلهم إلى طاعة أبيه ويمنيهم بالأمانى الكثيرة فكان أول من مال إلى ذلك (لح برو) عظيم (عد خاله) فحضر إلى معسكر المصريين فى نفر من الجند والأتباع فأكرم الأمير حسن وفادته وأهداه شيئًا من الملابس وشقق الحرير وهذا الرجل من أهل العصاوة وقطاع الطرق وله وقائع عدة مع العساكر المصرية فى واقعة أرندروب وجاءهم أيضًا (دجاج) ولد تكائيل صاحب الحماسيين فى جيش عظيم وطبول ورايات فلاقاه الأمير حسن ومقدموا عسكره وأحسنوا لقاءه وقدموا له الهدايا النفيسة من الشيلات الكاشميرية وشقق الحرير والمقصبات وقلائد الفضة وسروج الخيل المطهمة وأقام بالمعسكر المصرى يومًا وليلة وأطلقوا لقدومه بعض المدافع وحادثه الأمير حسن فيما هم بصدده، وولد تكائيل هذا من دهاة الحبشان وأصحاب الكلمة فيهم واجتمع حول المعسكر المصرى بذلك الصقع الكثير من السوقة وأصحاب السلع وأصناف الحبوب من الفول والعدس والشعيروالسمن والعسل واللبن والدجاج والبقر والخيول والبغال والضأن والمعز فكانوا يبيعون على العسكر آمنين مطمئنين وكانوا مدة لبثهم بغير قتال شديدى التحرز والالتفات وكان كبار الضباط من الشراكسة شديدى القسوة والجبروت على صغار الضباط من المصريين يؤاخذونهم بالعنف والشدة على أصغر الصغائر، قالوا لكى لا ينفشلوا، ويلقونهم فى أضيق الحبوس عند أقل حادثة فكانت أيام هذه الحملة على صغار الضباط المصريين من أتعس الأيام وأشدها ويلاً، وكانت عيون الأمير حسن وجواسيسه تنقل من أخبار النجاشى وعسكره فى كل يوم أشكالاً حتى أتت فأخبرت بأن النجاشى على أهبة الزحف بخيله ورجله فى يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين فنادى راتب باشا فى العسكر المصرى بالتأهب والاستعداد لملاقاة العدو فتأهبوا ورحل يوحنا النجاشى عن دنبه ولمزه يريد مواقع المصريين فظهرت طلائع جيوشه ضحوة الثلاثاء وسمعت أصوات طبولهم وزمورهم فخرج فريق من المصريين ما بين مشاة وفرسان وجماعة من أصحاب المكاحل والمدافع من القلعة ووقفوا على قيد فرسخ منها على أحسن ما يكون من النظام والترتيب وناوشوا العدو القتال فقامت الحرب بينهما على قدم وساق واشتد الطعن والنزال وحمى الوطيس وعلت أصوات المدافع وارتفع الدخان إلى عنان السماء

فأظلم الجوّ والتقت الصفوف بالصفوف والتقت السيوف بالسيوف فأظهر الحبشان القهقرى والرجوع فتبعهم العسكر المصرى ومازالوا يتقهقرون والمصريون من خلفهم يصلونهم نارًا حامية حتى قطعوا ذلك الوادى وعبروا خورًا هناك وطلعوا على قطعة من اليبس توصل إلى خورثان وكلاهما يجرى فيه الماء والحبشان من أمامهم يناوشونهم القتال ولم يطل الحال على ذلك ساعة أو بضع ساعة إلا وقد أخذ الحبشان المصريين من خلفهم يعملون فى أقفيتهم السيوف والحراب وانطبقوا عليهم من كل جانب واشتدوا بالطعن والضرب وكانت صفوف المصريين الذين خرجوا من القلعة للقتال بغير احتياط ولا مدد وربما كان ذلك لحكمة لا يعلمها إلا العارفون بفنون الحرب والقتال وهجمت طائفة من فرسان الحبشان على القلعة يريدون اقتحامها وأخذ الأمير منها وكانوا يظنون أنه بها فالتقوا به عند الخور الأول فى جماعة من الحرس وأركان الحرب فاندفعوا عليه اندفاع السيل الجارف وأوشكوا أن يقبضوا عليه فساق بجواده وهم خلفه فلم يدركوه وتبعه من كان معه من حاشيته والعدوّ فى أثره حتى دخل الحصن وأغلقت أبوابه وانفشل العسكر المصرى أى انفشال واستولت عليه الهزيمة وأمر راتب باشا فجعلوا يطلقون المدافع على من كانوا خارج الحصن ووالوا الرمى بأشد ما يكون فكانت قنابل المدافع تكنس الأجسام من العسكريين كنسًا بل فعلت بالمصريين فعلاً تنفطر له الأكباد وتتمزق من هوله القلوب وما زال الرمى متراسلاً إلى قرب الزوال فتفرق من بقى من الحبشان وخلا منهم ذلك المكان فبطل رمى القنابل وقد امتلأ ذلك الوادى بالجثث والجرحى من العسكريين وجرى فيه الدم جريان الماء فى خوره وكان المنظر مزعجًا للغاية ثم خرج فريق من العساكر المصرية لدفن الموتى فأقاموا على ذلك أيامًا.

ووقع فى أسر الحبشان كثير من العساكر المصرية وجماعة من أرباب الوظائف بالجيش فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب، قال أحمد رفعت بيك مقدم كتاب هذه الحملة فى رسالته التى ألفها باسم، جبر الكسر فى الخلاص من الأسر، وقد كان وقع فى أسر الحبشان فى هذه الواقعة ووفقه الله تعالى إلى عقد رباط الصلح مع النجاشى ما نصه، وقد حضر إلينا والحرب قائمة ضابطان من سوارينا يستطلعان حال القلعة إذ ربما يكون قد دهمتها جنود الأعداء وعلمنا منهما انتصار عساكرنا وظهورهم على العدو قال وقد كان لى فى القلعة جواد فأخذه خادم محمد نسيم أفندى أحد أصحابنا بقصد التوجه به إلى مخدومه لتوصيل ماء إليه فناديت

الخادم أن ارجع فلم يرجع وكـان قصدى بذلـك أن يوجد جوادى بجـانبى حتى إذا فاجـأتنا الأعداء بالهجـوم واضطرتنا الحال إلى مغـادرة القلعة ألفيت الجـواد بجانبى ونجوت به مع الناجين، قـال: ولما لم يرجع الخادم بعثت خلفه بتابع لى يسـتحضره ويحجزه فلم يعد هو أيضًا فاشتد حنقى وزاد غيظى وخرجت من القلعة ماشيًا ومعى قربينة وجبخانـة بقدر ما يكفى سعيًا على الحصول على جـوادى وطمعًا فى مشاهدة الحرب ومشارفـة القتال وقد ظننت أنه إذا حصلت هزيمة لعسـاكرنا المحاربة أدركهم عسكر الاحتـياط بالمدد كما شاهدت ذلك فـى محاربة كريد فأكـون ما بين ذلك قد تمكنت من العود إلى القلعة غير أن الأمر كان بخلاف ذلك إذ لم يكن لعساكرنا مدد ولا احـتيـاط على حسب الـقواعـد الحربيـة وما كـنت أظن هذا الأمر ولا أتخـيل حصوله، ولما أخذت فى السير وبعدت عن القلعة بمسافـة ألف وخمسمائة متر تقريبًا وجدت حسن أفندى أحمد الكاتب معى حاضـرًا خلفى على قدميه ثم رأيت حضرة محمد علـى بيك الحكيم راكبًا بجير ومعـه خادمه وشاهدت خادم محمـد بيك جبر الميرالاى راكبًا علـى بجير محمل ماء لتوصـيله إلى مخدومه فأمر مـحمد على بيك الحكيم خادم محمد بيك جبر بالنزول عن البجير كى أركبه ففعل ولما امتطيته سلمت القربينة للخادم المذكور وسرنا وقد جاء تسليم القربينة للخادم من الحكمة كما سيظهر فيما بعد وبعد مسيرنا ببرهة لم نشعر إلا والعجاج الثائر يغشانا شيئًا فشيئًا وقد رأيت وقتئـذ شابين من عساكرنا راجـعين بهرولة فسألتهـما عن السبب فقالا إن عـساكرنا انهزمـوا ولما أردت الرجوع بالبجيـر قصر عن الإسعـاف ثم حرن وعمد إلى التـقدم مجفلاً عن الرجوع فلم أجد سبيلاً سوى الترجل فنزلت عنه ولسان حالى يقول:

أنل قـــدمىّ ظـهـــر الأرض إنى   رأيت الأرض أثبت منك ظهـــراً

وقصدت العود ماشيًا ولكن هيـهات إذ بعدت المسافة ولم يمكنى الجرى. قال: أما الـكاتب فاندهش وانذهل وقـال هات يدك ثم افتـرق منى إلى الجبل وقـد رأيت محمدً على بيك الحكيم راجعًا بجواده وما لبثنا حتى وافتنا خيالة العدو فى الحال تؤم القلعة بالهـجوم فأحاطت بنا إحـاطة السوار بالمعصم وأقامت بيننا وبين الـقلعة سدا محكما ثم أقعـدنى أحد فرسان العدو فعـمد الشابان المنهزمان إلى ضربه فـقال لهما أمان فكفـا أيديهما عنه فعـاد إلىّ وجذبنى من يدى فتـخلصت منه بالعنف وأنا عن السلاح أعزل فصوّب نحوى بندقيته ولم يطلقها وربما كانت خالية من الذخيرة وكان تصويبه إياها من باب الإرهاب ثم عـمد إلى سيفه وضـربنى به ضربة جاءت خلف أذنى اليسرى فـأسالت الدم فى الحال غير أنى لم أشـعر بها إلا عند نزول الدم على

مـلابسى لما اعتـرانى من الدهش والانذهال وشـتات الذهن وتفـرق البال ثم شـفع الضربة الأولى بثانية صـادفتنى خلف العنق وكانت خفيفة الـوطأة هينة التأثير قائلا: كيـدن، ومعناها بالحبـشية اذهب وهنا انجلت حكمـة سبق تسليمى القـربينة للخادم المتقدم ذكره إذ لو كنت حاملاً لبعض السلاح لظننى الفارس محاربا وابتدرنى بالقتال والكفـاح، قال: ولما كانت خـيالتنا عـائدة بالهجـوم على القلعة طار عنـى الفارس المذكور خائفـا وجلا فاختفـيت فى شجر المرسين فلما سلم مـنهم عاد إلى فأدركنى بمجنى ومختبئى وقهرنى على القيام وكانت النيران فى أثناء ذلك تلقى من قلعتنا على العدوّ صدا لهجماته وردا لغاراته فأخـذ العدو فى القهقرى ونزل حينئذ الفارس الذى أمسك بى عن جـواده اتقاء الإصابة بالمقـذوفات النارية راجعـا إلى الوراء منحنيا فى سيـره مشيرا إلىّ بالاقـتداء به حتى أسلم من الإصـابة وكنت أشاهد بعض عسـاكر العدو وبـعض عساكـرنا الذين اختلطوا بـهم فى ملتحم الهـجوم ومزدحم الـرجعى يصابون بالرصاص فيـخرون على الغبراء مضرجين بالدماء وقد أفـضت بنا القهقرى إلى نفق بالجبل فأوينا إليه وتوارينا به وكانت حـينئذ تمر على رؤسنا مقذوفات المدافع فتنصدم بالجـبال ولما توارينا بالجبل وصرنا على حذر من الوجل أخـذ الآسر المذكور يمشى بى على مهل حتى وصلنا إلى نهير فاغترف لى منه ماء بيده وسقانى وبعد أن شربت شرع فى سلب ما علىّ من الثياب فـأخذ منى أوّلا البالطو وكان ملطخا بالدم وعلقه بعنق جواده وبعد ذلك سرنا حتى جئنا إلى ميدان واسع وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة نهارا تقريباً فرأيت هناك جموعا شتى ولم يمكن أن أتبين فى الحال هذا الميدان الذى أعـهده من قبل وذلك بسبـب ما أصابنى من الدهشة والفـرق ووجدت هناك جملة أسارى من عساكرنا وقد سـأل الآسر المذكور أحدهم عما إذا كنت أميرا من الأمراء أو غـير ذلك فأخبـره وكان لا يعرف أننى منهم مسـتدلا على ذلك بزيى وهيئتى ثم رمق الآسر ساعتى وسلسلتها وأراد سـلبهما فأخرجت ختمى من السلسلة بحيث لا يرانى وأخـفيتـه فى جيب البنطلون لتـعلقى به إذ هو عندى من منذ ثلاث وعشرين سنة فـأخذ منى الساعة والسلسلة وعلقـهما بعنقه وصار يدور حـولى راكبا ويقول كلاما لم أفـهمه قيل لى فيما بعـد أنه عبارة عن ترنمه بشجاعته وذكـر حسبه ونسبه وإتيانه بأسير وبعـد ذلك وصل بى إلى محل فى هذا الميدان وأخذ يفتش على زملائه فلم يجـد منهم أحدا وكان ذلـك وقت الغروب وقد عـرفت هذا الميدان وهو الكائن شرقى (قرع) الذى كنا اتخذناه معسكرا لنا فى أول الأمر إذ وجدت فى المكان

الذى كنت فيه قطع ورق مما كنت أكـتب فيه بختمى فقلت سبـحان من أحلنى بهذا المكان أسيرا وقد كنت فيـه البارحة أميرا ولعلى منيت بالأسر لحكمة مـستورة علمها عند الله إلى أن قال وفى صـباح يوم الخميس ثالث عشـر صفر رأيت عسـاكر العدو يحتشـدون زمرا وأفواجاً على هيئة القـولات واحتفزوا للتوجـه إلى القلعة ثم ساروا ولم يخلفوا فى معسكرهم سوى الأسراء والنساء والصـبيان وقد أوثقوا الأسراء وبعد برهة سمعنا صوت الـبنادق والمدافع منبئة بانتشاب المحاربة واشـتداد المضاربة وحمى الوطيس بين الفريقـين فانطلقت النسـاء الموجودات بالمعسكر عند إذ يصـحن قائلات أبيت أبيت وهى كلمـة تضرع ومعنـاه ياسيدى ياسـيدى وكن يسـجدن على الأرض ويأخذن التـراب ويذررنه على رؤوسهن وهذا جمـيعه طلبا للـنصر والتماسـا للظفر وبعد ساعتين تقريباً عاد قوشـو آسرى وعلمت من حاله انفشال أمرهم وخيبة أملهم ثم صار عساكر العدو يؤبون بالتعاقـب إلى آخر النهار وسيماهم الحزن والأكدار إلى أن قال ولم يمكن العـدو أن يتغلب على الاستحكام في مـحاربة يوم الخميـس كما أسلفنا ذلك وقد رجع مهزوما مغلوبا مع كونه كـرر الهجوم على الاستحكام دفعات متعددة من أول النهار إلى آخره حـالة أن الاستحكام المذكور لم يكن به سوى أورطة ونصف تقريباً من العـساكر فلو أن السبع أورطات يعنى كامل العسـاكر التى ساقوها لهذه الغـزوة التى خرجت من الاسـتحكام أقامت به ولحـقهـا الثلاث أورطات التى كانت فى قيادخور لتكوّن من ذلك قسوة عظيمة فى الاستحكام ولانهزم جيش العدو شر هزيمـة ولم يقو على القرب من الاستـحكام لوصول مقـذوفاتنا إلى النقطة التى أخذها العدو معسكرا ولو كنا اقتصـرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافيـا لكسره وتبديد جمـوعه قال: وحصول الأمـر بخلاف ذلك نشأ من تفـرق الكلمـة وتبـاين الآراء لأن جناب السـردار رأى أن تتـحصـن العسـاكـر فى الاستحكام وتلحق بها الأورطات التى كانت بقياخور ورأى الغير ولعله الأمير حسن خروج العـساكـر لمقابلة العـدو وبقاء جزء منه بالـقلعة مع عدم إخـلاء قيـاخور من العسـاكر خشـية انقطاع خط المواصـلات، إلى أن قال: ولكن إذا أراد الله نفـاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أحكامه فيهم فإن صاحب ذلك الرأى يريد (الأمـير حـسن) لم يراع فـيـه التـدبير اللازم حـتى إننا مـا كنا نعلم بسـبب عـدم الاستكشاف إن كـانت مقذوفات مـدافعنا تصل إلى معسكر العـدوّ أم لا وما علمنا وصولها إلا بعد أن غادر جيش العدوّ هذا المعسكر قال وليس من الحكمة والتدبير أن تساق العساكر بأجمعها إلى المحاربة دفعة واحدة ولا يكون لها مدد واحتياط للرجعى

ولا يصح إيجاد العساكر فى مكان على يمينه جبل يـمكن صعود العدو فيه وإشرافه عليهم وحول أطرافه خور محيط به يمنع الـرجعة فإنه لما اصطفت عساكرنا فى ذلك المكان وأقبـل عليهم جيش الـعدو رموه بمقـذوفات المدافع والبنادق فـما وسـعه إلا الهبوط إلى الخور والسير منه بحيث لم تره عساكرنا لعمق الخور حتى وصل منه إلى ذروة الجبل فتسلط على يمين جيشنا وكسر جناحه ولما عمد جيشنا إلى الرجعى منعه الخور المذكور وقد انقلب فيه مدفع من مدافـعنا بحيواناته وانكبت حملة من عساكرنا فيه على بعضـهم فبطل الرجوع بالكلية ونشأ منه ذلك الفشل والهـزيمة ووقوع فوج من عساكرنا فى أسر العدو. اهـ.

ولما لم تتمكن الحبشان من أخذ الحصن عنوة وقد أخذتهم نيران مدافعه تراجعوا فنادوا فيـهم بدفن الموتى ونقل الجرحى فـدفنوهم ونقلوا جرحاهـم ثم دقت طبولهم بالرحيل فـانقلبوا فى الحـال على من عندهم من الأسرى فـقتلوا منهم خنقـا وذبحا وأفحشوا فى ذلك جداً ثم ساروا أفواجا وهم فى عدة كثيرة بكراعهم ومتاعهم حتى نزلوا على بلدة (اقلبـه) وعسكروا بـها فلمـا كان يوم السـبت أرسل الملك فى طلب أحمد بيك رفعت وقد أخـذ منه الجهد والتعب وبلبلة البال مأخذا عظيـما فقام وسار مع رسول الملك وصحبتـهما الآسر لأحمد بيك وهما يقولان له أمـان أمان ويفهمانه أنه ذاهب إلى حيث النجـاشى يكلمه فى شىء من أمـر الصلح والكف عن الحرب، قال أحمد بيك فلما وصلنا إلى ساحة الملك وجدت الآسر سجد خلف خيمة فظننتها خيمة الملك وأن السجود له وإذا هى كنيسـة الملك وهى مصنوعة من جوخ أحمر أما خيمته التـى يقيم فيها فمن قماش أبيض قـال: وبعد برهة طلبت إليه وكان أول من قابلنى على باب خيـمته شخص يعرفِ قـليلا من العربية وحينئـذ خرج كل من كان عند الملك من أمير وحقير ولم يبق لديه إلا عـمه المدعو رأس سرايه فقال لي: ذلك الشخص الذي قابلنى أأنت الكاتب وكبير الكتاب وهل تعرف مقدار السلاح والبارود وكل شىء فقلت نعم ولما دخلت فى الخيمة ألفـيت الملك متلثما حتى لا يمكننى من معرفة صورته وقيل لى فيمـا بعد أن من عادة ملوك الحبشة أن يفعلوا ذلك عند لقاء الأجنبى المعادى خوفـا من أن يعرفه فيفتك به عند سنوح الفـرصة وكان الملك طويل القامة متوسط اللون بين السواد والسمرة عـارى الرأس مضفور الشعر مستطيل الوجه عسلى العـينين ضخم الأنف بارز الأسنان حـافى الأقدام نظيف الملابس وعليـه منها جلابية ولباس وفوطة متشح بها وكان جالسا على سرير عنجريب وعلى يمينه مخدة

وعلى يساره أخرى وهما كبيرتان الجرم من نوع الشطمة المستعملة قديما وأمامه على الأرض كليمان وقد وقف بجانبه الشخص الذى دخل معى وسألنى عن وظيفتى ثانيا وكان إذ ذاك عم الملك جالسا على الكليم دون السرير ولما لم يحسن الفهم ولم يجد التفهيم استحضر الملك شخصا آخر يحسن الكلام بالعربية فصار يترجم بينى وبينه.

فسألنى الملك بواسطة ترجمانه قائلاً: ما سبب حضوركم وما القصد منه؟ قلت: أن القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وتوطيد دعائم المودة والألفة بين الفريقين ولما أرسل إليكم أرندروب بيك أحد النواب المدعو محمد عبد الرحيم للمفاوضة فى هذا الصدد سجنتموه على أن الرسول لا يسجن ولا يهان فقال: نحن لم نأمر بسجنه إلا لكونه قال: أن الخديو يريد الاستيلاء على ما بين مصوع إلى المأرب ومن العادة أن من يريد المفاوضة فى هذه المسائل لا يأتى ومعه العساكر فأرندروب بيك حضر إلى بلادنا ومعه الجنود فقلت له أما ما بلغه الرسول فلا ينطبق على الواقع ولا يوافق القصد فإن كان قال: ذلك فهو من عندياته وأما حضور أرندروب بيك بعساكر فمن المعلوم أن أراضى الحبشة عبارة عن وديان سحيقة وجبال وعرة وفيها قطاع الطريق والمتلصصون ونحوهم ويخشى من الطواف بها والتجوّل فيها بالانفراد فالعساكر التى أرسلت مع أرندروب بيك لم تكن إلا للمحافظة عليه فى أثناء الطريق واتصال خط المواصلة والدليل على ذلك أنه لم يكن معه سوى ألف نفر وباقى العساكر كان بالمحطات بقصد توصيل الذخائر إليه وإلى من معه حتى لا يكلفوا جناب الملك بشيء ما فقال ولو أن كلامك من هذا القبيل غير أنى عارف ببواطن الأمور وهل عندك ختم تكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم: ولكن أخذه الأسر فأمر الملك حينئذ بإحضار الختم وقد حصل فكان ذلك عندى من طلائع السرور وتباشير الحبور إلى أن قال: ولما خرجت من عند الملك أجلسونى فى خيمة معدة لحفظ الأسلحة الخاصة به وهى عبارة عن درق وحراب وبعض أمتعة فطلبت قرطاسا وقلما ودواة فأحضروا لى ذلك مع كاتب يدعى متى من أقباط مصر يشبه صيارفة البلاد ولبسه ثوب وعمامة وهو حافى الأقدام وفى خلال ذلك كنت قعدت بمعزل عن الخيمة مع الترجمان وعرفنى أن اسمه دسته وطلب منى الوعد بأن لا أنساه من البر والإحسان إذا نجح المطلوب وحصل المرغوب فقلت له لك ذلك وبعد حضور الكاتب قدموا لى من باب الإكرام بعضا من العسلية فتناولته مطمئنا فرحا وقلت لمن فى الخيمة (تملسوا) ومعناها باللغة الحبشية أخرجوا وقصدى بذلك إخلاء الخيمة من الناس فضحكوا تعجبا من إخراجهم مع كونهم هم أصحاب المحل ثم

أخذت القرطاس والقلم وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك إلى جناب البرنس حسن باشا وذكرت فيه.

إننى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الأفخم ولكن حال دون هذه الأمنية تمويهات مئسنجر باشا محافظ مصوع وبثه الأكاذيب حتى بنى على ذلك حضور أرندروب بيك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لا يرضى الله ولا الناس ولم ندر ما هو المقصد والمرام من حضوركم بالجنود إلى بلادنا فالأولى أن ترسلوا مندوبا من عندكم أو نرسل مندوبا من عندنا للمفاوضة فى شأن الأمر الذى نحن فيه إلى أن قال ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولا تبديل ولا محور ولا إثبات ثم عرض على الملك فختمه وحررت منى كتابا تركى العبارة إلى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القبيل مع الاختصار وختمته باستلفات نظره إلى ضرورة حسم هذه المشكلة بالحسنى.

وقامت رسل النجاشى بالكتاب إلى المعسكر المصرى وسلموه إلى الأمير حسن فشرع يكلمهم فى تقرير قاعدة يحسن الوقوف عندها فقالوا إنما نحن أتينا نحمل خطاب الملك لا أن نناجيكم فى أمر الصلح فرسم الأمير حسن بأن يكتبوا إلى النجاشى بأن يرسل إليهم رجلا مفوضا من قبله فى عقد رباط الصلح والكف عن الحرب والقتال فلم يرد عليهم النجاشى أياماً كثيرة وسار فى عسكره عن (أقلبه) إلى ناحية دوارية إحدى بلاد الحماسيين وهى التى وصلت إليها العساكر التركية على عهد فتح السلطان سليم لبلاد الحبشة وتعطلت المخابرة فى أمر الصلح أو كادت ثم كتب النجاشى بعد ذلك إلى الأمير حسن يقول قوموا وتوجهوا ولا خوف على عساكركم منا ولا على مودتنا من الانقطاع فلما علم الأمير حسن ما فى هذا الجواب سأل الرسول أن يبدى رأيه فى أمر الصلح فقال: لم يأذن لى مولاى بالكلام فى شيء من ذلك فكبر الأمر على الأمير حسن واستعظمه وسير فى طلب المدد فجاءته طائفة من الجند فأمد بها المرابطين فى قياخور ولبث ينتظر ما سيكون وكانت كتبه ترد فى كل يوم على أبيه بمصر يحملها السلك البرقى وكذلك كتب أبيه وكلها فى معنى ما هم فيه، واشتد قلق أحمد رفعت بيك وخشى عاقبة التطويل وكان يرى من حركة الحبشان وميل كبارهم إلى إعادة الكرة على العسكر المصرى ما زاده قلقا وانزعاجا فسير إلى راتب باشا سرا يسأله تعجيل طلب الصلح وتلافى الخطب قبل استفحاله

وعـدم النطوح إلى إعادة الحـرب التى لا تؤمن عـاقـبتـها علـى حالة أن النجـاشى موصوف بالحنان والرفق كـارها لإراقة الدماء راغبا فى المسالمة والتـوّدد فأجابه راتب باشا إلى ذلك وحـثه على عقد رباط الصلح والإسـراع فى عمله قبل دخول الـشتاء واشتداده على العسكـر المصرى ومناه بالأمانى الكثيرة إن هو عجل فى العـمل فتقدم أحمد رفعت بيـك إلى النجاشى في طلب تقرير قاعدة الصلح على ما فـيه المصلحة للطرفين وما زال به حتى ألانه واستمـاله وهون عليه الأمر فرسم له النجاشي بطلب أحد زعمـاء العسكر المصرى يكلمه فـى شيء من ذلك فسير أحمـد رفعت بيك إلى راتب باشا يطلب مبعوثا من قبلهم وضمن هو سـلامته وعدم مس المبعوث بضر فلم تكن إلا أيام حـتى جاءت الأخبـار بقرب وصـول علي أفندى الروبى أحد مـقدمى الفرسان المـصريين وأحمد أفندى عـبد الغفار ويوزباشى من الأقـباط مبعوثيـن لعقد شروط الصلح والكف عن القتال فرسم النجاشى بالاستعداد والتأهب للقائهم فخرج للقائهم زهاء الألفين من الحبشان بسلاحهم وآلات حربهم وكثر اللغط فى معسكرهم بقرب وصول المبعوثين فلما وصلوا وصاروا على مقربة من مقر النجاشى ترجلوا عن خيولهم ودخلوا على النجاشى مع بعض الأمـراء الذين هم فى ركاب الملك فأحسن النجاشى لقاءهم ورحب بهم كثيراً ورسم بنزولهم على الرحب والسعة فأنزلوهم فى خيمـة أعدت لهم وقدموا لهم شيـئاً من المأكل والمشرب ولبثوا يومـين يتكلمون فى قاعدة الصلح ثم اتفـقوا على أن يرسل الملك رسولا من قبله إلى مـعسكر المصريين فسير معهم رجلا اسـمه (ليكا منكاس ورقى) وهو من قرناء الملك فغاب ليكامنكاس ورقى أياما وعـاد ومعه شيء من الهدايا والـتحف ومبعـوثو الأمير حسن المفـوضون بعقد رباط الصلح فتناجوا فى ذلك أياما فكان ما طلبه المصريون من الحبشان رد سائر المدافع وآلات الحرب التى غنموها وفـتح أبواب التجارة ما بين أملاك مصـر والحبشة فكره النجاشى منهم ذلك وأنكره وقال لا سبيل إلى رد شيء من الأسلحة البتة اللهم إلا إذا كان مـا قدره خمـسمائة بندقـية لا غيـر فألح رسل الأميـر حسن فى الطلب وجعلوا يهونون على النجاشى الأمر فـأخذته ثورة الغضب. وقال: لا سبيل إلى رد شيء وقد أخـذتم من بلادنا سنهيت ومصـوع بغير مسـوّغ شرعى ومصـوع هى مينا الديار الحبشية ومـفتاحها البحرى فلا سبـيل قط إلى شيء مما تطلبون وما كنا لنتوقع من خديويكم أن يناوينا الشر على غير موجب ولا سبب فكان من وراء فعاله هذه ما هدرتموه من دم أولئك الأبريـاء فالله علـيكم شـهيـد ثم أعـرض عن رسل الأمـيـر

فأخرجوهم عنه وباتوا وأصبحوا وهم محل الإعراض والازدراء بعد الذى لقوه من التجلة والتكريم فعادوا وأعلموا الأمير حسن بإعراض النجاشى عنهم وعدم الالتفات إلى شىء مما طلبوه وأن النجاشى لا يسلم فى شىء من السلاح والمتاع ولا رد شىء مما غنمته عساكره البتة سوى إرجاع الأسرى والتعاقد على المحبة والولاء وفتح طريق التجارة بين المملكتين فلم ير الأمير حسن بدا من قبول ذلك فأعاد الرسل بالسمع والقبول فرسم النجاشى بإحصاء الأسرى وردهم جميعا فنادى مناديه فى العسكر بذلك فاجتمع الأسرى حول خيمة النجاشى حتى تكاملوا ثم أدخلوهم عليه وكان بينهم بيكباشى أمريكى اسمه دورهاس فالتفت إليهم النجاشى التفاتة لطيفة كأنه يحييهم تحية الوداع فخرجوا فسار أمامهم أصحاب الطبول والزمور يضربون بطبولهم ويعزفون بمزاميرهم والحبشان من نساء ورجال على جانبى الطريق حتى دخلوا إلى المعسكر المصرى سالمين.

وعاد الأمير حسن بمن بقى من حاشيته وبطانته وبعض مقدمى العساكر المصرية من جماعة الشراكسة إلى القاهرة ثم لحقهم طائفة من العسكر وبقيت طائفة أخرى بعضها بقياخور وبعضها بعدرسة وبعرزه وهؤلاء لم يلبثوا طويلا حتى رحلوا إلى القاهرة وحل محلهم جماعة الباشيبوزق والعربان وبقى راتب باشا معهم حتى يأتيه مرسوم الخديو بالرحيل فلما جاء المرسوم بذلك نزل بمن معه فى إحدى السفن التجارية وأنزلوا ما بقى من المدافع والأسلحة والمهمات في ثلاث سفن كبيرة وبينما هي تسير قاصدة السويس اصطدمت إحداها المسماة دنقلة بصخر فى الماء فغرقت بما عليها ولم ينج منها غير الرجال ووصلت العساكر إلى مدينة السويس فسيروهم على الأثر إلى رأس الوادى فأقاموا بها أياما ثم سرحوهم فعادوا إلى أوطانهم فكانت هذه الغزوة من أتعس الغزوات وأشرها على البلاد وأهلها فسبحان من يؤتى النصر لمن يشاء من عباده.

وكان الخديو منذ ولايته ميالا إلى جعل مدينة القاهرة على نسق عواصم الأمم المتمدنة والدول الكبرى فى الترتيب والنظام وتنسيق المبانى وتوسيع الطرق وغرس الأشجار لتظليل الشوارع وغير ذلك من المحسنات فبالغ فى هذا الأمر ورتب له ديوانا مخصوصا وقيد به جماعة من المأمورين فصرفوا الأموال الطائلة فى توسيع الطرق وإنشاء المبانى وعمل المراسح ومحال اللعب العمومية وغرس الأشجار الكبيرة وإنشاء الحدائق والمنتزهات البديعية وإنارة الشوارع بالأنوار الغازية على ترتيب غريب وفرشوا الأرض بالحصا الأحمر وكسوها بالرمل الأصفر وهدموا الكثير من الدور

والوكائل القديمة والجوامع والأضرحة والتكايا توسيعا للطرقات وعملوا من محاسن البناء والتنظيم شيئاً كثيرًا فكانت هذه الأعمال وغيرها مما سيتلى عليك بعضه سببا فى امحال الخزينة ونضوب الإيراد وذهاب الدرهم والدينار والاضطرار إلى الاستدانة من أصحاب الأموال بالربا الفاحش فاستدانت الخزينة مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب فكانت هذه القرضة الأولى التى مدت إليها يدها بعد ولاية إسمعيل باشا ولم تكن استدانت شيئاً من قبل سوى أربعة آلاف ألف على عهد سعيد باشا لتبتاع بها سهاما من شركة خليج السويس فكثرت من هذا الحين معاملة أصحاب الأموال للخزينة وانبسطت أيديهم فاعطوا وسجلوا وحاسبوا وطالبوا وطاولوا وتقربوا وتلطفوا فى المعاملة فأمن الخديو جانبهم واستدان منهم أيضاً باسم أملاكه وزروعاته الخصوصية فأعطوه فاستزاد فزادوه واستطال فطاولوه حتى بلغ الدرهم دينارا فأنشأ معامل السكر العظيمة وسكك الحديد الزراعية والأبنية الفاخرة والعمائر الواسعة وأكثر من بناء القصور والمتنزهات الغربية وبالغ فى أسباب الزينة بأحسن مما يفعله أكبر ملوك العالم وزوّج أولاده وبناته وعمل لهم الأفراح والولائم العظيمة وجمع فيها سائر أرباب القصف واللهو وسائر المغنين والمغنيات وفرق الهدايا العظيمة والتحف الجليلة على رجال الدولة والعلماء والمشايخ وأنفق الأموال الطائلة وخص كل واحدة وواحد منهم بالاقطاعات العظيمة والعقارات الواسعة للنفقة وأنشأ لهم القصور المشيدة والمبانى الفاخرة فى باب الخرق وخطة الإسماعيلية والقبة والجيزة وبولاق التكرور وزوّج الكثير من جواريه وسراريه إلى كبار الجند وصغار الضباط وأصحاب الوظائف الديوانية وبنى لهن الدور الواسعة وزينها بأنواع الفرش والبسط وأفخر الأوانى ورتب لهن الجماكى والمرتبات وأعطاهن غير ذلك من العطايا والتحف.

وكان إذا نضب الإيراد وأمحلت الخزينة وعز الدرهم عمد إلى الاستدانة وضرب المغارم وتكثير المكوس وفرض الفرض على البلاد شرقا وغربا وإعادة أشكال المكوس الغريبة التى كانت على عهد ملوك دولة الشراكسة الثانية وما زال على هذه الحال من السرف والأرغال وأصحاب الأموال تطاوله وهو يمنيهم بالأمانى البعيدة حتى اشتد بأهل البلاد الضيق واستحكمت حلقاته فضجوا وعجوا وجباة الأموال تجوب البلاد شرقا وغرباً وأصحاب الأموال من اليهود والروم تتبعهم فإذا تعذر على المموّل سد مطالب أصحاب الجباية أخذوا ما وجدوه عنده من غلة أو ماشية وباعوها لمن تبعهم من أولئك المرابين بأبخس الأثمان وهكذا كانوا يفعلون بأهل كل بلد وقرية حتى عم

الويل واشتد الكرب واستفحل الخطب وعز الخلاص، ولم تكن هذه المحن لتقعد الخديوى عن إعطاء نفسه كل ما تتمناه إذ سار فى سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية إلى دار السلطنة العثمانية ليستعطف صدر الدولة يومئذ ويزيل ما كان بينهما من الوحشة والتقاطع فأحسن السلطان لقاءه وبالغ فى إكرامه فأقام فى قسطنطينية أشهرا أنفق فيها من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وتقرّب من صدر الدولة وكبار السلطنة وأزال ما كان بينهم وبينه من الوحشة وأولم الولائم الكثيرة وأهدى لهم الهدايا العظيمة والتحف الفاخرة فلما تمكن من استرضائهم استقدم إليه من عاصمة الفرنسيس الموسيو أوبنهايم المرابى الشهير واقترض منه قرضا برسم الخزينة قدره ثمان وعشرون ألف ألف من الجنيهات أى ثمانية وعشرون مليونا ذهبا بحجة وفاء جميع ما على الخزينة من الديون وصرف ما يتبقى فى شئون البلاد وحاجاتها وكان من شروط هذا القرض أن لا يدفع ملتزمه للخزينة معجلا سوى ستة آلاف ألف نقدا وأن يعطى بالباقى أوراقا، هى المعروفة فى عرف أصحاب الأموال بالسندات الاسمية، فقام أوبنهايم بهذا الشرط ووفى إلى خزينة الخديوى هذا المال فى آجاله فلم يهتم له الخديوى وتقدم إلى أمير المؤمنين فى قبول ثلاثة آلاف ألف منه إعانة للخزينة السلطانية فقبل السلطان ذلك ورسم بحمل المال إلى الخزينة السلطانية وكأنه عز على الخديوى العود إلى القاهرة وفى خزينته شىء مما بقى من ذلك المال فعمد إلى شراء الجوارى الحسان والجواهر الثمينة والأعلاق النفيسة وهادى جميع رجال الدولة وأنفق وأولم للسلطان وليمة لم يسبق لها مثال جمع فيها من أصناف الزينة وبدائع الألعاب النارية والأنوار والفرش والمأكول والمشروب ما لا يمكن استيفاء شرح محاسنه وأولمت كذلك والدته لوالدة السلطان وليمة أخرى وقدمت لها من التعابى والأعلاق الثمينة ما لا يمكن وصفه.

(مطلب)

فرمان السلطان القاضي بنقل وراثة الخديوية من عقب محمد علي باشا إلى ذرية إسماعيل باشا

قال بعض كتاب الأخبار: وتحقق لهما فى تلك الليلة أنهما من أقرباء بعضهما تجتمعان فى جد واحد ففرحنا بذلك فرحا عظيما وجعلتا تتزاوران كل قليل ولا تنقطع من بينهما فى كل يوم رسل التحية والتسليم ولبث الخديوى بعد ذلك أياما

كلها أفراح ومواسم ثم تقدّم إلى السلطان فى أن يسرحه بالانصراف فسرحه فوصل الإسكندرية فى أوائل ربيع الثانى من السنة فزينت له المدينة ثلاثة أيام وكذلك زينت القاهرة عند وصوله إليها ودقت البشائر وزاره الأمراء والكبراء والعلماء والوجهاء ولم يستقر به المقام حتى شاع الخبر بورود فرمان السلطان بتأييد سائر الفرمانات السابقة مع إضافة جميع الحقوق والامتيازات التابعة لرتبة الخديوية إليه وتحدث الناس فى ذلك كثيرا ولم تمض إلا أيام حتى قرىء الفرمان فى محفل حافل بديوان السلطان الملك الغورى بقلعة الجبل حضره جميع رجال الدولة والأمراءوالكبراء والمشايخ والعلماء فكان ما فى الفرمان المذكور بعد الديباجة المعلومة ما نصه.

قد نظرنا بعين الاهتمام إلى طلبك بإصدار خط سلطانى يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المانح المرحوم الوالى محمد على باشا الحكومة الأرثية سواء كانت تلك الفرامين متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها فهذا الفرمان من شأنه أن ينسخ فى المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها بما يتضمنه مما سيأتى بعد ويكون دائماً نافذا مرعى الإجراء.

أن كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة فى فرماننا الصادر ثانى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائتين وألف قد غيرت على وجه أن تنقل الخديوية من متبوّىء كرسيها إلى كبير أبنائه ومن هذا إلى أكبر أبنائه أيضا وهلم جرا علما بأن ذلك أدنى إلى المصلحة وأرشد ملاءمة لأحوال البلاد المصرية واختصاصا لك بانعطافى الذى صرت له أهلا بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك وإثباتا لذلك أجعل قانون الوراثة الخديوية لمصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوّع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائه من بعده فإذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لأكبر أخوته أو لأكبر بنى أخيه الأكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لأبناء البنات ولأجل تأييد هذه الأحكام ينبغى أن تكون الوصاية فى حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية:

إذا توفى الخديوى وكان كبير ولده قاصرا أى غير بالغ من العمر ثمانى عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر إليه فرماننا بوجه السرعة وأما إذا كان الخديوى المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوبا للوصاية وعين كيفيتها وذوى إدارتها بصك ثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الأوصياء يقبضون إذ ذاك

على أزمّة الأعمال عقب وفاة الخديوى ثم ينهون ذلك إلى الباب ليثبتهم فى مناصبهم ولكن إذا توفى الخديوى بغير وصية وكان ابنه قاصرا فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولى الإدارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش الأقاليم فتجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوى وصيا بإجماع الآراء لا بالأغلبية فإذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتماد الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعاً أمور الخديوية ويعرضون بذلك لسلطتنا السنية ليصدّق عليه بالفرمان الشريف. وكما أنه لا يجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها على الصورة الأولى أى فيما إذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوى المتوفى فكذلك لا تغير فى الصورة الثانية وأما إذا توفى الوصى أو أحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فينتخب بدل الأول أحد أعضاء المجلس وبدل الثانى أحد ذوات الحكومة وبمجرد بلوغ الخديوى القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر أمور الخديوية وذلك مماتقرر لدينا واقتضته إرادتنا السلطانية.

ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهية سكانها من أهم الأمور لدينا وكانت إدارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدا على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت إدارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن إدارة أىّ مملكة وحسن نظامها وتزايد عمارتها وسعادة سكانها ما لا يتم إلا بالتوفيق والتطبيق بين الإدارة العمومية والأحوال والمواقع وأمزجة السكان وطباعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم ولأجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو من قبل الحكومة مع الأجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضاً الرخصة المطلقة فى عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الأجنبية فى أمور الممالك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الأجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجبا للإخلال بمعاهدات الدول السياسية.

ولكون خديوى مصر حائزا لحق التصرف المطلق فى الأمور المالية فقد أعطيت له

الرخصة فى عـقد القروض من الخارج بغيـر استئذان عندما يـجد لذلك لزوما على شـرط أن يكون القرض بـاسم الحكومة المصـرية وبما أن أمـر المحافـظة على المملكة وصيـانتهـا من الطوارق وهو أهم الأمـور وأحوجـها إلى العناية من أقـدم الوظائف المختصة بخديوى مصر قد منحناه الإذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنسيبها على مقتـضى ضرورات الزمان والحـال وبتكثير أو تقليل عدد العـساكر المصرية الشـاهانية على حسب اللزوم بغير تقـييد ولا تحديد وأبقينا كذلك لخديوى مصـر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية إلى رتبة ميرالاى والملكية إلى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كـالأعلام التى لعـساكرنا السلطانيـة بلا فرق ولا تمييـز ولا يجوز لخديوى مصر أن ينشىء البوارج المدرّعة بغير اسـتئذان أما سائر السفن والبوارج ففى استطاعته أن ينشئها متى شاء.

ولأجل إعلان الأحكام السـابق بيانها وتأييـدها قد أصدرنا إليكم هذا الفـرمان الجليل القدر من ديوانـنا الهمايونى وأعطى لكم مـتممـا ومعدّلا وشـارحا للخطوط الشريـفة والأوامر المنيـفة الصـادرة إلى هذا التاريخ سـواء كانت فى وراثة الحـكومة المصرية وفى كـيفيـة الوصاية أو فى إدارة الأمـور الملكية والعسكرية والمـالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط أن تكون أحكام هذا الفرمان الجديدة نافذة مرعية الإجراء على مر الأزمان قائمة مقام أحكام الفرمـانات السالفة على ما اقتضته إرادتنا السلطانية فينبـغى أن تعلموا قدر لطف عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفـوا الهمة إلى تنظيم الإدارة على محور الاستقامة وإلى الأخذ بأسباب وقاية الرعية وإصلاح شئونها وتأييد راحتها على حسب ما فطرتم عليه من الغـيرة والاستقامة وحسن الأخلاق وما وقـفتم عليـه من أحوال تلك الجـهـات وأن تراعوا أحكام الشـروط الواردة فى هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على الديار المصرية سنويا فى أوقاتها المعينة إلى خزينتنا العامرة السلطانيـة على القوانين والقواعد المرعية انتهى بنصه.

(مطلب)

بيع سندات خليج السويس إلى الإنجليز

وظل الخديوى سائرا عـلى ما يهواه من السرف وتمهيـد العقبات أمـام أصحاب الأموال حتى تمكنوا من أعناق أهل البلاد وأثقلوهم بالديون التى لا خلاص لهم منها

ونال أموال قرض الثمانى وعشرين ألف ألف ما نال غيره من أموال القروض السابقة له وكثرت الديون المعروفة فى عرفهم بالديون السائرة إلى حد لا يمكن معه الوفاء ونضب جميع موارد الإيراد والخديوى مع ذلك لا ينكف عن إنشاء المبانى الواسعة والقصور المشيدة والحدائق الناضرة والتغالى فى أسباب الزينة والترف والإتيان بعجائب المقتنيات من بلاد الهند والصين غير مبال بما وراء هذا كله، وكان المتولى النظر على الخزينة فى هذا الحين المشير إسمعيل صديق باشا فأعمل الفكرة فى رأب هذه الصدوع فلم يكن فى الإمكان إصلاح ما كان واشتدت الأزمة واستحكمت على الخزينة حلقات الضيق وتأخر صرف الجماكى والمرتبات والعلوفات ولا سيما جماكى الجند وعلوفاتهم فطالب أصحاب الديون السائرة بديونهم وتزاحموا على أبواب الخزينة ولجوا ورموا المشير إسمعيل صديق باشا بسوء التدبير وفساد الرأى فعمد إلى معالجة الداء بالداء واصطفى له من بين أصحاب تلك الديون جماعة فجعلوا يخلطون ويخبطون ويمنون غيرهم بالأمانى الكثيرة ولكن على غير جدوى فانكمش أصحاب الأموال وعز على الخزينة الاستدانة وابتعد عنها من كان أقربهم إليها واشتد الطلب على المشير إسمعيل صديق باشا وقد سدت فى وجهه أبواب الحيل ولج الخديوى بإصلاح الحال تعاميا وتغريرا ورسم ببيع سندات خليج السويس التى كان اشتراها محمد سعيد باشا باسم الخزينة كما تقدم القول وسامها مع قنصل جنرال الإنجليز وكلمه فى شرائها باسم دولته فأجابه إلى ذلك وعجل بشرائها كى لا يسبقه إلى ذلك قنصل جنرال الفرنسيس، فلما كان أوائل سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية رسم إلىّ المشير إسمعيل صديق باشا بتسليم تلك السندات إلى المستر بورج قنصل الإنجليز بالقاهرة وقد كانت مودعة بالخزينة وكنت يومئذ ترجمان الباشا المشار إليه فقضيت فى تسليمها أياما فكنت أرى من الاهتمام بأمرها والتعجيل بنقلها إلى عاصمة الإنجليز على ظهر دارعة حربية استقدمت من الهند لهذا الغرض ما لم يكن لأحد فى حساب وفرح كبار سياسة الإنجليز بشراء تلك السندات فرحا عظيماً وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى الأمر فصلوا وقاسوا وألبسوه ثوب الأطراء والمدح وعدّوه من معجزات سياسة ذلك الحين ثم انقلبوا يقرّعون الخديوى ويندّدون به ويرمونه بالخيانة ويسمون المشير إسمعيل صديق باشا بالتغرير وظلوا على هذه الحال أياما كثيرة لم تكن لتهدأ فيها أيضاً خواطر أصحاب الديون السائرة ولا انثنى لهم عزم عن الإلحاح فى طلب الوفاء.